خالد بن مبارك الوهيبي

أشراط الساعة

النص والتاريخ



مكتبة الغبيراء
الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م

أشراط الساعة....النص والتاريخ

خالد بن مبارك الوهيبي

أشراط الساعة.... النص والتاريخ
تأليف : خالد بن مبارك بن محمد الوهيبي
الطبعة الأولى : ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

مكتبة الغبيراء – هاتف : ٤١٩٤٢٦
سلطنة عمان – بهلا
ص.ب : ١١٥
الرمز البريدي : ٦١٢
الإشراف الفني : صالح بن راشد بن سعيَّد العدوي

أشراط الساعة.....النص والتاريخ

خالد بن مبارك الوهيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

مقدمة

كانت روايات الأشراط المستقبلية للساعة ولا تزال تشكل معالم الرؤية المستقبلية للجم الغفير من المسلمين؛ برغم تكشف الأوضاع بخلافها كلما تقدم الزمن، مما يضع علامات استفهام كبيرة وشكوك حول صحة هذه الروايات، وربط هذه الروايات بالدين يضع الدين ذاته في موضع الشك، وهذا بالفعل ما حصل لقطاعات من العلمانيين في الغرب وفي العالم الإسلامي.

وتكمن أهمية بحث هذه القضايا في عدة أمور:

أولاً: أنها تضخمت إلى حد كبير في مجموعات أحاديث عدد من المدارس الإسلامية، بحيث صارت من ركائز الاعتقاد أو من توابعه، في حين أن القرآن الكريم وهو كتاب الأركان والأصول يخلو منها تماماً ثبوتاً ودلالة، مما يثير الكثير من الشكوك حولها، إذ لا يعقل أن تأتي مجموعة خمسة مجلدات تقريباً في الأشراط المستقبلية للساعة [1] ويخلو القرآن الكريم منها تماماً.

بل إن بعضها مثل ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب)[2] ليعد من العجب العجاب، فالقرآن الكريم فصل في قصص الأنبياء بما لا زيادة عليه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف:٣ فقصص الأنبياء في القرآن هي أحسن القصص لا تحتاج إلى مرويات لا يُدرى كيف وصلت إلينا، وهي من وحي

---

١ انظر مجموعة "معجم أحاديث الإمام المهدي".

٢ البخاري (٦٩٧٢).

الله تعالى إلى نبيه وكان قبلها على غير علم بها، وهي كذلك ﴿الْقَصَصُ الْحَقّ﴾ آل عمران:٦٢، وهي أيضاً ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود:٤٩، فأين هو التحذير الذي حذره الأنبياء عليهم السلام من الأعور الكذاب؟!.

ثانياً: صارت هذه القضايا تشكل عبئاً ثقيلاً على مجمل منهج التعامل مع النص، فهي تؤصل وبدرجة كبيرة لمنهج تفتيت وتجزئة الوحي الإلهي، فهذه الروايات في هذه الطريقة من التعامل هي "السنة" التي تستقل بأخبارها وتفصيلاتها عن كتاب الله تعالى وعن حقائق الحياة وسننها، في حين كان من المفروض أن يكون كتاب الله تعالى هو الأصل الذي تقوم عليه الحياة، وبه يحاكم المسلم كل ما يرويه الناس وينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل:٨٩ فالقرآن الكريم هو المؤسس الأصلي للأحكام والعقائد والتصورات ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام:٣٨ والقرآن الكريم لم يفرط في تأسيس أصول العقائد والأحكام والتصورات، بل ترك الناس على بينة من أمرهم، وما تلك المرويات البعيدة في لغتها ومفرداتها وتراكيبها عن القرآن الكريم إلا أثر لهجر الناس لكتاب الله تعالى وتعويلهم على ما أحدث من الأمور فـ(محال أن يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ربه)[٣].

---

٣ قاموس الشريعة ج٥ ص٢٢٨–٢٢٩، جميل بن خميس السعدي.

ثالثاً: لا تزال الكثير من أدبيات الأشراط المستقبلية للساعة تدير السياسة الدولية، فهناك دول أساس قيامها التمهيد لعودة المهدي، وأخرى تنتظر المخلص، وإدارات دولية أخرى جعلت من المجئ الثاني للمسيح ونبؤات سفر الرؤيا[٤] أساساً لسياستها الخارجية، مما أشعل الحروب والصراعات في العالم في السنوات الأخيرة.

رابعاً: تمثل هذه الروايات نموذجاً من نماذج الاختراق الإسرائيلي للفكر الإسلامي، من خلال دخولها عالم الرواية منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

كل ذلك يجعل من بحث هذه المسألة أمراً يستحق العناء وليس من قبيل التجريد الذهني الذي لا يرتبط بالحياة وحراكها المستمر.

وقد اشتمل هذا البحث على أقسام:

– القسم الأول: ويحتوي على مباحث في منهجية تعامل فقهاء المدرسة الجابرية مع النص الحديثي، والمدرسة الجابرية تمثل لحظة التوهج الأولى للفكر الإباضي، وهذه المباحث ركزت على تأصيل مفاهيم السنة والحديث والرواية وعلاقتها ببعضها وعلاقتها بالمنظومة الكلية للدين، وركزت هذه المباحث أيضاً على **فكرة النقد الداخلي للحديث أو الرواية** وهو مرتكز أساسي في عملية مناقشة روايات الأشراط المستقبلية للساعة، لا سيما وأن المنهج الذي رسخ بقاء هذه الروايات يعتمد على ظاهر صحة

---

٤ سفر الرؤيا هو بحث كتبه يوحنا العراف –الملقب باللاهوتي– في أواخر الستينيات من القرن الأول، ولم يكن سفر الرؤيا يعد سفراً مقدساً وقت كتابته وحتى حلول القرن الرابع الميلادي. ولكن بعد مؤتمر (نيقية) عام ٣٢٥م طلب الإمبراطور قسطنطين من (يوزيبيوس) أسقف قيسارية إعداد كتاب مسيحي مقدس للكنيسة الجديدة، وليس مؤكداً إن كان (يوزيبيوس) في ذلك الوقت قرر إدخال كتاب (الرؤيا) ضمن العهد الجديد، ذلك أن بعض المراجع النصرانية لم تكن تؤمن بصحة معلوماته، وعليه فقد يكون سفر الرؤيا قد أضيف إلى ما يسمى بالكتاب المقدس بعد زمن (يوزيبيوس) بكثير. راجع كتاب المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين

السند ، ويرفض مناقشتها على اعتبار العرض على كتاب الله والسنة المتبعة والحقائق التاريخية الثابتة وسنن الحياة ونواميسها .

– القسم الثاني : ويشتمل على مباحث في مجمل الانتقادات التي وجهت إلى روايات الأشراط المستقبلية للساعة.

– القسم الثالث : عبارة عن تطبيقات على المنهج المقترح في دراسة هذه القضايا ، ومن هذه التطبيقات : فتح القسطنطينية وخروج دابة من الأرض وخروج يأجوج ومأجوج والجساسة وابن صياد والدجال.

وأرجو من القارئ الكريم أن يقرأ هذا الكتاب بعناية وتمهل وأن لا يصدر الأحكام القَبْلية قبل قراءته، ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم معي في إخراج هذه الدراسة. سائلين الله تعالى جلت قدرته أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفق الجميع لما يحب ويرضى.

خالد بن مبارك الوهيبي
مسقط – سلطنة عمان
١٢ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ
٣٠ يونيو ٢٠٠٤م

القسم الأول

كيف نتعامل مع الرواية الحديثية؟

قبل أن نلج في خضم تحليل روايات الأشراط المستقبلية للساعة نحتاج إلى تمهيد نطيل النفس فيه قليلاً عن كيفية التعامل مع الرواية الحديثية، وما ذلك إلا لأن الذي رسخ عند أكثر المتأخرين في وقتنا هذا الاعتماد على ظاهر صحة السند في الحكم على الرواية بالصحة أو الضعف، كذلك اغتر الكثيرون بكثرة طرق الرواية التي قد تظهر متأخرة دون الانتباه إلى عدم وجودها في مراحل مبكرة.

في المقابل غُيبت المناهج التي كانت تقوم على عرض الرواية على المسلمات الثبوتية اليقينية كالكتاب والسنة وسنن الحياة والواقع، وهذه المناهج ليست وليدة اليوم، فهي ثابتة في تراث العديد من المدارس الإسلامية، وهي وإن لم يكتب لها الذيوع والانتشار بفعل عوامل كثيرة إلا أن حضورها البارز في التراث يجعل من المتعذر تجاوزها.

وهذه المناهج ركزت بشكل كبير في تعاملها مع الرواية الحديثية على النقد الداخلي للرواية وموقع الرواية من السياق الكلي من خلال استصحاب فهم شمولي كلي يتجاوز ظاهرة التجزئة والبتر وعبادة الأسانيد، لقد درجت مدرسة كمدرسة الحديث التي أصلت منهج الجرح والتعديل (=الإسناد) على دمغ مخالفيها بنكران السنة تارة وبالكفر تارة وبالزيغ والضلال تارة أخرى، وما ذلك إلا لأجل ما كان من إعادة النظر في مرويات لا تشكل في مجموعها السنة؛ ولم تكن يوماً مما وصل معرفته لعموم المسلمين وهو ما عرف في فقهنا بخبر الآحاد.

وموضوع كموضوع الأشراط المستقبلية للساعة قد يصعب على الكثيرين هضمه واستيعابه دون مقدمات في مسألة المنهج، وذلك لأسباب متعددة منها:

– ما رسخ في أذهان الكثير من أبناء الأمة من المرادفة بين هذه الأخبار والروايات وبين السنة.

– اعتبار المناقشة لهذه الروايات من قبيل المناهج المستوردة، في حين أننا سنؤكد من خلال هذه المقدمة أنه المنهج الأصيل في المدرسة الفقهية الإباضية ممثلة في لحظة التوهج الأولى (=المدرسة الجابرية).

مصطلح الحديث

علم مصطلح الحديث من العلوم التي راجت في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً، وقد قام المحدثون من أهل السنة بتشييد دعائمه وتقعيد نظرياته، ومن الملاحظة السريعة يتبين أن كثيراً من المدارس الإسلامية الأخرى كالإباضية والمعتزلة والزيدية لم تدون آراؤها في مصنفات هذا العلم لأسباب سياسية، لكن في المقابل يرى بعض الباحثين أن بعض هذه المدارس لم تعتن مع مرور الزمن ببناء نظرياتها الخاصة بها في التعامل مع الرواية الحديثية، بل أخذت تستورد النظريات من علم المصطلح دون الانتباه إلى طبيعة الحقل المعرفي الذي نشأت فيه، ويرجع ذلك إلى أمور منها:

– **كثافة الانتشار** الذي حققته النظريات الحديثية التي شيدها المحدثون، بفعل الدعم السياسي لها من قبل السلطات الحاكمة عبر التاريخ (=الأموية، العباسية، العثمانية).

– **العجز السياسي والعلمي للمدارس الإسلامية الأخرى**، التي أقصيت من الساحة السياسية بدعوى أنها من الفرق المبتدعة.

وهذا العلم نما وترعرع بجهود عدد من كبار المنظرين كشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، ويحيى بن سعيد القطان (ت ١٩٨هـ)، وعبدالرحمن بن مهدي (ت ١٩٨هـ)، ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ)، وعلي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤٢هـ) الذي يعد من أكبر المنظرين لهذه المدرسة، ومحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، ومحمد بن يحيى الذهلي (ت ٢٥٨هـ)، ومسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، وأبي زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ)، وأبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، ومحمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) وغيرهم، وهؤلاء لهج المحدثون الذين جاءوا من بعد بمصطلحاتهم، وتحددت معالم المنهج الحديثي بما قدموه بما لا مبتغى بعده، بل إن مصطلحاتهم غلبت على أصولها اللغوية حتى كادت تنسى عند أهل هذا الفن[٥].

بل وحتى المدارس الفقهية في المحيط السني القائمة على التعويل على الطرائق الكلية في الاجتهاد والاستنباط لم تستطع الصمود طويلاً، ويبدو للمتتبع أنها كانت تمثل الطريقة الأصيلة عند عموم فقهاء الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، لكنها ولعوامل كثيرة ظلت تنكمش وتتقلص لحساب النظرة الجزئية القائمة على النظر في نصوص مفردة ومجتزئة، وعزز هذه النزعة المبالغة في طلب الروايات والأحاديث التي تم تدوينها في القرنين الثالث والرابع، (وفي وجه هذا التطور برز المحدثون لتدوين الحديث والتحقق من سنده لتمييز صحيحه من سقيمه، ودونت كتب الصحاح والسنن والمساند في أسفار ضخمة غطت كل موضوع ومسألة، وانقسم الفقهاء بين مؤثر لاتباع النصوص، وراغب في تأصيل الأصول وتقعيد القواعد واعتماد الكليات

---

٥ المنهج المقترح لفهم المصطلح ص ٥٦–٥٨، حاتم بن عارف العوني.

في مسالك الاجتهاد)[٦]، فدونت من بعد كتب القواعد الفقهية والأشباه والنظائر ككتاب قواعد الأحكام لابن عبدالسلام والفروق للقرافي والموافقات للشاطبي وغيرها، وحاول الكثير من الفقهاء اتخاذ طريقة وسطاً بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية (=اللغوية)، لكن بمرور الزمن لم يستطع الفقهاء القواعديون الصمود طويلاً أمام الهجمة الشرسة للنصوصيين من المحدثين، الذين ظلوا يجلدونهم باستمرار بسياط دعاوى التنكر للنصوص، والمقصود بالذات نصوص الأحاديث والروايات الآحادية التي دونت في مصنفات الحديث.

السنة والحديث

درج المتأخرون من الفقهاء والمحدثين على المرادفة بين السنة والحديث؛ بإعطائهما تعريفاً واحداً هو (ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم)[٧]، ويشمل هذا (قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره وصفته)[٨].

وقد انتقد بعض المتأخرين هذا التعريف ومنهم محمد رشيد رضا، حيث يرى أن سنته صلى الله عليه وسلم (التي يجب أن تكون أصل القدوة هي ما كان عليه هو وخاصة أصحابه عملاً وسيرة فلا تتوقف على الأحاديث القولية)[٩]، وعاب على الفقهاء المتأخرين (جعلهم الأحاديث القولية من السنن، وهو اصطلاح للعلماء توسعوا فيه

---

٦ إعمال العقل ص ١٦٥، لؤي صافي.

٧ شرح شرح نخبة الفكر ص ١٥٣، ملا علي القارئ.

٨ المرجع السابق ص ١٥٣.

٩ مجلة المنار، المجلد ١٠ ص ٨٥٢.

بمعنى السنة، فجعلوها أعم مما كان يريده الصحابة من هذا اللفظ، وهي الطريقة المتبعة التي جرى عليها العمل)[١٠]، (ومن العجائب أن يغبى بعض المحدثين أحياناً عن الفرق بين السنة والحديث في عرف الصحابة الموافق لأصل اللغة؛ فيحملوا السنة على اصطلاحهم الذي أحدثوه بعد ذلك)[١١].

وقد نقل هذا التفريق عن بعض قدامى المحدثين، قال عبدالرحمن بن مهدي: (سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، والأوزاعي إمام في السنة، وليس بإمام في الحديث، ومالك إمام فيهما جميعاً)[١٢] ومعنى هذه العبارة أن الأوزاعي عند عبدالرحمن بن مهدي هو الأعلم بالطريقة المتبعة والسنن الماضية للنبي صلى الله عليه وسلم، وسفيان الثوري هو الأعلم بالحديث، أي بالروايات التي تصف حوادث متفرقة من حياته صلى الله عليه وسلم وتعامله معها، أما مالك فهو عالم بالسنة والحديث، أي عالم بالسنن الماضية والطريقة المتبعة للنبي صلى الله عليه وسلم، وعالم بالحديث أي بالروايات والأخبار المتفرقة التي تصف أحداثاً ووقائع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو يوسف القاضي تلميذ أبي حنيفة: (وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا يقبل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرواية تزداد كثرة، ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه ولا يوافق الكتاب ولا السنة، فإياك وشاذ الحديث وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء وما يوافق الكتاب والسنة،

---

١٠ المرجع السابق، المجلد ١٠ ص ٨٥٢.

١١ المرجع السابق، المجلد ١٠ ص ٨٥٣.

١٢ حلية الأولياء ج٦ ص ٣٣٢، أبو نعيم الأصبهاني.

فقس الأشياء على ذلك، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن جاءت به الرواية)[١٣] .

وهذا تفريق واضح بين السنة وبين الحديث والرواية.

فالسنة تحمل معاني الاضطراد لما فيها من جريان الأحكام، وهو المعنى المتفق مع المعنى اللغوي للسنة، فالفعل "سَنَّ" يحمل معنى الاستمرارية، ويعني العمل المتواصل، ولهذا فالتعبيران "سننت الماء على وجهي وسننت التراب على وجه الأرض" يعني: ظللت أصب الماء على وجهي، واستمر الغبار يسقط على وجه الأرض، قال ابن الأعرابي: (السن مصدر سنَّ الحديد سَناً، وسن للقوم سُنَّة وسَنَنَّاً، وسَنَّ الإبل يسنها سناً إذا أحسن رِعيتها، حتى كأنه صقلها، وسَنَّنَ المنطق حسنه، فكأنه صقله)[١٤] .

فسنة النبي صلى الله عليه وسلم تحمل هذه المعاني اللغوية، فهي الطريقة المتبعة التي تصقل الحياة الإنسانية، لذا كان الصحيح من الأحاديث ما (أيده العمل أو وقع عليه الإجماع)[١٥] دون ما كان منسوخاً أو استقر عمل المسلمين على خلافه أو كان مخالفاً للسنن الماضية.

والسنة في التعبير القرآني في نسبتها للخلق الإلهي تقتضي الثبات والإطراد في خصوصية الزمان والمكان

﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلاً﴾ الإسراء:٧٧

﴿سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوۡا مِن قَبۡلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبۡدِيلاً﴾ الأحزاب:٦٢

---

١٣ الرد على سير الأوزاعي ج١ ص٣٠، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري.

١٤ لسان العرب ج١٣ ص ٢٢٣، ابن منظور.

١٥ كتاب الجامع ج١ ص ٢٨٠، عبدالله بن محمد بن بركة.

ولكن عند دلالة السنن المنسوبة إلى الفعل الإنساني نجد أن السنة استبدلت بسنن متعددة (=بشرية)، كلها تصب في معاني التفاعل الإنساني مع حركة الكون والحياة خيراً كانت أو شراً، وهو الحراك الاجتماعي.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ آل عمران: ١٣٧ ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ النساء: ٢٦ وهذا مدخل مهم ومعايير قرآنية لفهم السنة والحديث في ضوء الدلالات القرآنية الكلية.

فإذن الأحاديث لا تخرج في طبيعتها عن هذين الإطارين:

– **القوانين الإلهية في كتاب الله تعالى**: والنبي صلى الله عليه وسلم من خلال الحركة اليومية للحياة كان يشرع في نطاق القواعد والمقاصد الكلية للكتاب العزيز، بتطبيق أحكامه وبيان معانيه ودلالاته، فـ(السنة والسيرة تبدوان تطبيقاً عملياً للقرآن في مقاصده العليا الحاكمة، تتكامل السنة معه في وحدة بنائية تقرأ وتفهم في ضوئها آلاف الأحاديث الصحيحة والأفعال والتصرفات النبوية الثابتة، التي أدخلتها القراءات الجزئية المعضاة ولا تزال في دوائر "مختلف الحديث" و"مشكل الآثار" ونحو ذلك، ولم تستطع قواعد الجرح والتعديل وموازين الأسانيد والمتون أن توقف ذلك الجدل الذي دار)[١٦].

– **القوانين الكونية والاجتماعية**: وهذه أيضاً تطبيق للقواعد والمقاصد القرآنية في واقع الحياة المتغير، وهذا البعد لابد من إدراكه لدى الفقيه في تعامله مع الأحاديث،

---

١٦ مقاصد الشريعة ص ١٣٤– ١٣٥، طه جابر العلواني.

إذ إن إدراك هذا البعد الزمني الذي ورد في النص المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفق مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية هو الذي يضمن عملية التفريق الدقيق بين التشريع النبوي وبين تطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم للنصوص وفق حركة المجتمع والحياة[١٧] .

تاريخ المدرسة الجابرية

من المدارس الإسلامية التي نشأت مبكراً وسعت للتصدي للجور والظلم الذي مورس على الأمة؛ المدرسة الفقهية السياسية التي شكلها الإمام التابعي الجليل جابر بن زيد رضي الله عنه، وهذه المدرسة نشأت (على مسمع ومرأى من الصحابة، وكان للمذهب في ذلك الوقت علماء عديدون منهم صحار بن العباس العبدي وجابر بن زيد وجعفر بن السماك والحتات بن كاتب وعبدالله بن إباض وأبو نوح صالح الدهان)[١٨] .

وكان في طليعة هؤلاء (التابعي الكبير الإمام جابر بن زيد الأزدي العماني الذي أجمعت الأمة على توثيقه ولم يطعن فيه طاعن، وقد أخذ العلم عن عدد كبير من الصحابة كأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك وعبدالله بن عمر وأبي هريرة وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم، وروى عن أمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أثنى عليه الصحابة ثناء لم ينله أحد غيره)[١٩] .

---

١٧ انظر أيضاً "الفصول في الأصول" ج٣ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٤ ، أحمد بن علي الرازي الجصاص.

١٨ رسالة في الرفع والضم في الصلاة ص١٠ ، أحمد بن سعود السيابي.

١٩ المرجع السابق ص ١٠–١١.

وقد كان لجابر تلاميذ كثر من داخل الحركة السياسية التي يقودها ومن خارجها، فمن داخل الحركة: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وضمام بن السائب وأبو نوح صالح الدهان وحيان الأعرج وغيرهم، ومن خارجها: عمرو بن هرم وقتادة السدوسي وعمرو بن دينار وحبيب بن أبي حبيب[٢٠].

ولكونه قد عاش في (البصرة، احدى أهم مراكز النشاطات السياسية، وبمعاصرته لأحداث تلك الفترة المفعمة بالحيوية [٢٨هـ/٦٨٤م - ٩٣هـ/٧٠١م] استطاع جابر أن يكوّن فهماً واضحاً للسير المعقد للشؤون الدينية والسياسية في الأمة الإسلامية النامية، ونتيجة لذلك اختار السبيل الأمثل لتحقيق أهدافه، إذ بقي بعيداً عن جميع النشاطات السياسية العلنية، ونهج نهجاً يتسم بالحذر الشديد في علاقاته برجال الحكم الأمويين، ومن ناحية أخرى فقد كرس وقته لتعليم الإسلام للناس وصياغة الأحكام الشرعية بشأن المشاكل الدينية)[٢١].

(ولما كان جابر تابعياً بارزاً، فإن إسهامه للأمة الإسلامية النامية يمكن إدراكه في إطار الدور الذي قامت به طبقة التابعين الذين ورثوا العلم وتطبيق الإسلام عن الصحابة مباشرة، ثم نقلوه إلى طلابهم، وبما أنه كان طالباً وثيق الصلة بابن عباس الذي أسهم في معظم النشاطات السياسية للأمة الإسلامية منذ شبابه، فقد تمكن جابر من أن يتعرف إلى المواقف المتناقضة في النشاطات السياسية الي بدأت مع النزاع الأهلي في خلافة عثمان وانتهت بانتصار معاوية)[٢٢]. فهو (الرجل الذي كان مسؤولاً فعلياً عن

---

٢٠ دراسات عن الإباضية ص ٧٨، عمرو خليفة النامي.

٢١ المرجع السابق ص ٧٧ (بزيادة بسيطة).

٢٢ المرجع السابق ص ٧٦ (بتصرف). وللتوسع في دراسة دور الإمام جابر في تشكيل المدرسة الإباضية الأولى، انظر (دراسات عن الإباضية ص ٧٣–٩٤ ، ١٢٠– ١٢٥).

تأسيس مدرسة للفقه الإباضي، بسبب معرفته الواسعة بالقرآن الكريم وبأحاديث الرسول، فقد كان قادراً أن ينشئ مذهباً مستقلاً، وأن يجذب إليه عدداً من المتعلمين، وفي وقت لاحق راح هؤلاء يطورون آراءه وينشرونها)[٢٣].

وترأس الحركة من بعده الإمام التابعي أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وقد عاش في البصرة ودرس على يد صحار العبدي وجعفر بن السماك وجابر بن زيد [٢٤]، ويقال إنه روى عمن روى عنهم شيخه جابر بن زيد من الصحابة[٢٥].

(وفي البصرة كانت المنظمة الإباضية بزعامة أبي عبيدة ومجلس الشيوخ تقوم بمسؤولية تصميم سياسة الحركة وإعداد المتعلمين للقيام بالدعوة؛ لإرسالهم إلى البلدان الإسلامية لنشر الفكر العقدي والسياسي، وكانت نشاطات الحركة الإباضية في البصرة تجري كلها سراً؛ وهي حالة خاصة في الحركة السياسية الإباضية معروفة بحالة الكتمان، ولقد كان من شأن القمع الأموي للمعارضة أن أرغم الإباضيين على القيام بنشاطاتهم سراً للحفاظ على سلامته وسلامة الدعوة)[٢٦].

وقد خلف أبو عبيدة بالبصرة[٢٧] تلاميذ نجباء كانوا امتداداً لتلك المدرسة الفقهية العملاقة، منهم:

---

٢٣ المرجع السابق ص١٢٠، مع بعض التصرف.

٢٤ المرجع السابق ص ٩٥.

٢٥ روى الإمام الربيع في مسنده (٥٩٥) أبو عبيدة قال: سمعت ناساً من الصحابة يقولون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حكم بين اثنين فكأنما ذبح نفسه بغير سكين)، وراجع كذلك الحديث رقم (٧٠٠).

٢٦ دراسات عن الإباضية ص ١٠٠–١٠١، عمرو النامي (مع بعض التصرف والزيادة).

٢٧ للتوسع في دراسة دور الإمام أبي عبيدة في تشكيل المدرسة الإباضية الأولى، انظر (دراسات عن الإباضية ص ٩٥ – ١٠٩).

– أبو عمرو الربيع بن حبيب
– أبو سعيد عبدالله بن عبدالعزيز
– أبو المؤرج عمرو بن محمد
– أبو المهاجر هاشم بن المهاجر
– أبو غسان مخلد بن العمرد
– أبو أيوب وائل بن أيوب
– أبو منصور حاتم بن منصور
– ابن عباد المصري

وهؤلاء هم الذين أكثر أبو غانم الخراساني [١٤٨ـ ٢٠٥هـ] من الرواية عنهم في مدونته المعروفة[٢٨] . من هذا نخلص إلى أن المدرسة الإباضية الأولى (= المدرسة الجابرية) كانت بعيدة عن نطاق وهيمنة السلطة السياسية الأموية ثم من بعدها العباسية، بحيث لم تتشكل رؤيتها العقدية والفقهية وفق ضغط البنية الفكرية للمنضوين تحت لوائها، وهذا ما مكنها من الحفاظ على رؤية بعيدة عن الضغط السياسي إلى حد كبير، بل (ولم يعتمد الفقه الإباضي في تاريخه الطويل إلا على مواد إباضية مروية من قبل علماء إباضيين، أما مجموعات الأحاديث السنية الأخرى فلم تستخدم في أية مرحلة)[٢٩] متقدمة أصولاً للتشريع والعقائد، وإنما كانت الاستفادة منها على أساس المحاكمة إلى الأصول الثابتة لديهم.

---

٢٨ المرجع السابق ص ١٣٣– ١٤١.
٢٩ المرجع السابق ص ١٣١.

السنة في اصطلاح المدرسة الجابرية

وردت نصوص كثيرة عن أئمة وعلماء المدرسة الجابرية في معنى السنة، لنقرأها قراءة فاحصة، ثم نحاول أن نخرج بنتيجة من خلال استقرائها :

١ . روى الإمام أفلح عن الحسن بن أبي الحسن قال: مضت السنة أن يقصر المسافرون في بلد أقاموا فيه، وإن أقاموا عشر سنين ما لم يتخذوه وطناً.[٣٠]

٢ .أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: الوتر والرجم والاختتان والاستنجاء سنن واجبات، فأما الوتر فلقول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (إن الله زادكم صلاة سادسة خير لكم من حمر النعم وهي الوتر)[٣١] .

٣ . قلت (=أبو غانم الخراساني): فإن قدم شيئاً قبل شيء؟. قال الربيع: لا ، إلا أن يتابع وضوءه كما جاءت به السنة[٣٢] .

٤ . قال أبو المؤرج وابن عبدالعزيز: (السنة في المغرب أن يجهر الإمام بالقراءة في الركعتين الأوليين)[٣٣] .

٥ . قال (= أبو المؤرج): (ومما يؤمر به الرجل في السنة عشر خصال: خمس في الرأس، وخمس في الجسد ، فأما اللواتي في الرأس: فالمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الرأس والسواك، وأما اللواتي في الجسد : فتقليم الأظافر ونتف الإبطين وحلق العانة والاختتان والاستنجاء بالماء)[٣٤] .

---

٣٠ كتاب الترتيب، روايات الإمام أفلح (١٦).

٣١ كتاب الترتيب، مسند الربيع (١٩٥).

٣٢ المدونة الصغرى ج١ ص ١٥ ، بشر بن غانم الخراساني.

٣٣ المرجع السابق ج١ ص ٤٦ .

٣٤ المرجع السابق ج١ ص ٦٩ — ٧٠.

٦ . قال أبو غانم في المدونة : (قال أبو المؤرج : أخبرني أبو عبيدة : أن السنة مضت في الشياه أن يؤخذ من كل الأربعين من الشياه شاة إلى عشرين ومائة، ليس فيها إلا واحدة)[٣٥] .

٧ .(قال أبو سعيد عبدالله بن عبدالعزيز سألت أبا عبيدة عن رجل أكل أو شرب أو جامع ناسياً صومه في رمضان . قال سألت أبا الشعثاء جابر بن زيد عن ذلك فقال : لا قضاء عليه . ثم قال عبدالله بن عبدالعزيز : مضت السنة وأجمعت الأمة بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أطعمه الله وسقاه")[٣٦] .

٨ . (السنة المجتمع عليها في الصوم أن يدع الصائم الطعام والشراب والرفث كله لله نهاراً)[٣٧] .

٩ . (والسنة عندنا أن الله أحل الميتة والدم ولحم الخنزير لمن اضطر إليها وخاف على نفسه، وليس قتل النفس من التقرّب إلى الله، وقد قال الله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً﴾)[٣٨] النساء :٢٩–٣٠ .

١٠ . (والسنة على من أفطر في رمضان عدة من أيام أخر)[٣٩] .

---

٣٥ المرجع السابق ج١ ص ١٥٦ .

٣٦ الديوان المعروض، كتاب الصيام ص ٧ . يقول عمرو النامي في دراسات عن الإباضية ص ١٣٧ : (كتاب الصيام، وهو يبدأ بروايات أبي المؤرج عن شيخه أبي عبيدة على شكل أسئلة وأجوبة، وبعد العنوان التالي "باب اختلاف العلماء في الصيام" ترد آراء مختلف العلماء حول الموضوع، منوهة بالآراء التي يعتمدها الأئمة الإباضيون، لا سيما أبو عبيدة) .

٣٧ المرجع السابق ص ٤٠ .

٣٨ المرجع السابق ص ٤٣ .

٣٩ المرجع السابق ص ٤٩ .

١١ . (والسنة المجتمع عليها أن الحائض لا صوم لها وعليها عدة من أيام أخر)[٤٠] .

١٢ . (والسنة المجتمع عليها أن الشمس إذا غابت فقد ذهب النهار وجاء الليل، والسنة أن الصوم بالنهار وليس بالليل)[٤١] .

١٣ . (وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنن الصلاة بقيامها وركوعها وسجودها وتشهدها)[٤٢] .

١٤ . (وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم المضمضة والاستنشاق)[٤٣] .

١٥ . (وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستنجاء)[٤٤] .

١٦ . (فريضة الزكاة من التنزيل، مقرونة بالصلاة، ثم فسرت السنة كيف كان قسمها)[٤٥] .

١٧ . (وزكاة الفطر يؤديها من كان له ما يقوته سنة، وهي سنة، الأخذ بها فضيلة، وتركها ليس بخطيئة، والسنة سنتان :

أ- سنة في غير فريضة، الأخذ بها فضيلة وتركها ليس بخطيئة.

ب- وسنة في فريضة، الأخذ بها هدى وتركها ضلال)[٤٦] .

١٨ . (والسنة المجتمع عليها لا يغط الرجل رأسه)[٤٧] .

---

٤٠ المرجع السابق ص ٨٣ .

٤١ المرجع السابق ص ٧٢ .

٤٢ أصول الدينونة الصافية ص٩١ ، عمروس بن فتح .

٤٣ المرجع السابق ص ٩٢ .

٤٤ المرجع السابق ص ٩٣ .

٤٥ المرجع السابق ص ٩٥–٩٦ .

٤٦ المرجع السابق ص ١٠٢ .

٤٧ المرجع السابق ص ١١٠ . (هذا الكلام في الإحرام) .

١٩ . (وإنما يقطع يده اليمنى، وهذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والسنة أن يقطع من أخرج من الحرز؛ ولا يقطع إلا بإقرار أو بشاهدين عدلين)[٤٨] .

٢٠ . (ذكر الله الأذان ذكراً ولم يأمر به، أجمع الناس أنه من سنة رسول الله عليه السلام، واختلفوا فيه، وقولنا الذي نأخذ به: الأذان مثنى مثنى، والإقامة كذلك، وهما من سنة رسول الله عليه السلام)[٤٩] .

٢١ . قال أبو غانم في المدونة نقلاً عن أبي المؤرج: (وجاء في السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله زادني صلاة وهي الوتر، فصلوها ما بين صلاة العشاء وهي العتمة إلى انشقاق الفجر)[٥٠] .

٢٢ . قال أبو غانم نقلاً عن أبي المؤرج: (لأن السنة عن النبي عليه السلام على المدَّعي البينة والمنكر اليمين، والبائع الآن هو المنكر عليه اليمين، فلست أن أحطها منه وأحولها إلى غيره ممن لم يجعلها عليه النبي عليه السلام)[٥١] .

٢٣ . قال أبوغانم في المدونة عن أبي المؤرج: (قال: نعم، قد جاء ما ذكرت وأخبرت، السنة أن الزانية والزاني اللذين أمر الله بإقامة الحدود عليهما هو الذي يولج كولوج المرود في المكحلة)[٥٢] .

٢٤ . جاء في آثار الربيع: (الربيع عن ضمام أنه قال: أتيت أبا الشعثاء يوم الجمعة، فلما حضره الرواح قال لي: قم حتى ننطلق إلى الجمعة.

---

٤٨ المرجع السابق ص ١٢٨ .

٤٩ المرجع السابق ص ١٥٦ .

٥٠ المدونة الصغرى ج١ ص ٦٢، بشر بن غانم الخراساني.

٥١ المرجع السابق ج٢ ص ١٦٤ – ١٦٥ .

٥٢ المرجع السابق ج٢ ص ٧٤.

فقلت: أخلف الحجاج؟

قال: نعم؛ فإنها صلاة جامعة وسنة متبعة)[٥٣].

٢٥ . جاء في الديوان المعروض: (وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أجاز شهادة رجل على الهلال.

وبلغنا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فطركم يوم تفطرون وأضحاكم يوم تضحون.

وكان عمر بن عبدالعزيز يقبل شهادة رجل واحد على الصوم، ولا يقبل على الفطر إلا شهادة رجلين. والسنة في هذا ما تثبت به الأشياء)[٥٤].

٢٦ . جاء في الديوان المعروض: (سئل جابر بن زيد: عن إمام لم يركع في صلاة مكتوبة؟.

قال: يعيد ما خالف فيه السنة من صلاته، فإنه لا يستقيم للناس ما خالفوا فيه السنة)[٥٥].

من كل هذا الحشد من النصوص يتبين لنا:

— أن مصطلح السنة عُبر به عن المفردات التالية:

---

٥٣ آثار الربيع ج١ ص ٤٦، عبدالملك بن صفرة.

٥٤ الديوان المعروض، كتاب الصيام ص ٦٧. والديوان المعروض على علماء الإباضية (يظن أنه من تأليف أبي غانم مؤلف المدونة، لأن الكثير من الأعمال الواردة في هذه المخطوطة الكبيرة منقول عن مصادر المدونة نفسها) انظر دراسات عن الإباضية ص ١٣٧ عمرو النامي، و(كتاب الصيام يبدأ بروايات أبي المؤرج عن شيخه أبي عبيدة على شكل أسئلة وأجوبة، وبعد العنوان التالي "باب اختلاف العلماء في الصيام" ترد آراء مختلف العلماء حول الموضوع، منوهة بالآراء التي يعتمدها الأئمة الإباضيون، لا سيما أبو عبيدة)، انظر دراسات عن الإباضية ص ١٣٨.

٥٥ الديوان المعروض (كتاب جابر بن زيد ص ١٠).

(قصر الصلاة في السفر، صلاة الوتر، تتابع غسل الأعضاء في الوضوء، جهر الإمام بالقراءة في الركعتين الأوليين من المغرب، القيام والركوع والسجود والتشهد في الصلاة، المضمضة والاستنشاق في الوضوء، الاستنجاء، السواك، نتف الإبط، الرجم، عدم تغطية الرأس للمحرم، قطع اليد اليمنى في السرقة، الأذان والإقامة، في زكاة الشياه أن يؤخذ من كل الأربعين من الشياه شاة إلى عشرين ومائة، صلاة الجمعة، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، الزانية والزاني اللذان أمر الله بإقامة الحدود عليهما هو الذي يولج كولوج المرود في المكحلة، السنة في حديث "أطعمه الله وسقاه").

– وهذه المفردات عند تأملها يتبين أنها: **سنن مورست عملياً ومثلت المقدار المتفق عليه بين المسلمين** أوبعبارة ابن بركة ما (أيده العمل أو وقع عليه الإجماع)[٥٦] وهذا هو معنى قول الإمام جابر عن صلاة الجمعة بأنها (سنة متبعة)، ومعنى قولهم كثيراً (السنة المجتمع عليها).

– وفي أحيان أخرى يعبر بالسنة عن دلالات قرآنية مورست عملياً في تشريع النبي صلى الله عليه وسلم، أمثلة (٩، ١٠).

– وأحياناً يعبر بالسنة عن المعاني الثاوية في مجموع النصوص الثابتة في الكتاب والسنة، والتي تستخلص من خلال النظر، مثال (٢٥).

---

٥٦ كتاب الجامع ج١ ص ٢٨٠، عبدالله بن محمد بن بركة.

الحديث والرواية في استعمال المدرسة الجابرية

وهذه نصوص من تراث المدرسة الجابرية في استعمال مصطلحي الحديث والرواية:

١ . قال الإمام جابر بن زيد : (كيف يمسح الرجل على خفيه والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء؟! والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم)[٥٧] .

٢ . قال الإمام جابر : (وهذه الرواية تمنع من التيمم بغير التراب)[٥٨] .

٣ . قال أبو المؤرج : (لسنا نأخذ بهذا من حديث ابن عمر، وقد كان أبوه أمير المؤمنين رحمة الله عليه يقول بخلاف هذا القول)[٥٩] .

٤ . قال أبو غانم في المدونة : (حدثني أبو المؤرج عن أبي عبيدة رفع الحديث إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه إذا قام إلى الصلاة قال : سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . ثم يتعوذ من الشيطان الرجيم ويكبر)[٦٠] .

٥ . قال أبو غانم في المدونة : (وروى لي أبو المؤرج عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أن رجلاً من الأنصار ذبح ضحيته ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المصلى، فلما انصرف النبي عليه الصلاة والسلام، وعاب ذلك عليه أصحابه ....)[٦١] .

٦ . قال أبو غانم في المدونة : (سألت أبا المؤرج : عن الإمام يؤم الناس؛ كيف ينبغي أن يصلي بهم؟ .

---

٥٧ كتاب الترتيب، مسند الربيع (١٢٥) .

٥٨ كتاب الترتيب، مسند الربيع (١٦٨) .

٥٩ المدونة الصغرى ج١ ص ١٣٥ ، بشر بن غانم الخراساني .

٦٠ المرجع السابق ج١ ص ٢٥ .

٦١ المرجع السابق ج١ ص ١٢٩ .

قال: حدثني أبو عبيدة فقال: من أم الناس فليخفف وليصل بأضعف من خلفه، فإنه يصلي وراءه السقيم والضعيف وذو الحاجة والكبير والمريض والحامل. ولا أحسبه إلا وقد رفع هذا الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم)[٦٢].

٧. قال أبو غانم في المدونة: (أليس قد روى الناس عن النبي عليه السلام أنه يتوضأ بنبيذ التمر إذا لم يجد الماء حين وفد الجن. قال أبو المؤرج: قال الله أعلم بما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو نعلم أن النبي عليه السلام فعل ذلك لأخذنا به)[٦٣].

٨. قال أبو غانم في المدونة: (سألت ابن عبدالعزيز وأخبرني من سأل الربيع بن حبيب عما روى الناس ورفعوه إلى النبي عليه السلام أنه قال: البايعان بالخيار ما لم يفترقا. قالوا جميعاً: بلغنا ذلك عن النبي عليه السلام، والأمر عندنا كذلك، قال ابن عبدالعزيز: البيع جايز ماض وإن لم يفترقا والله أعلم بحديث النبي عليه السلام ما معناه، والافتراق عندنا افتراق صفقة البيع)[٦٤].

٩. قال أبو غانم في المدونة: (قلت: أخبرني عن قول هؤلاء فيما رووه ورفعوه إلى أبي سعيد الخدري أنه قال: ليس فيما دون المائتين من الوَرِق شيء، ولا فيما دون عشرين مثقالاً من الذهب شئ، ولا فيما دون الأربعين من الشياه شيء، ولا فيما دون الثلاثين من البقر شيء، ولا فيما دون خمسة من الإبل شيء، ولا فيما دون خمسة أوساق من الحنطة والشعير والزبيب والتمر شيء. والوسق ستون صاعاً.

---

٦٢ المرجع السابق ج١ ص ٧٠.

٦٣ المرجع السابق ج٢ ص ٥٣.

٦٤ المرجع السابق ج٢ ص ١٢٩.

قال: كل حديثهم الذي ذكرت مستقيم، غير قولهم: "ليس فيما دون ثلاثين من البقر شيء"، وزكاة البقر عندنا كزكاة الإبل يؤخذ منها ما يؤخذ من الإبل، ويعمل فيها ما يعمل في الإبل، وسائر ما ذكرت من السنة في الذهب والوَرِق والغنم والحنطة والإبل والشعير والزبيب والتمر كما ذكرت)[٦٥].

– من كل النصوص السابقة يتبين أن فقهاء المدرسة الإباضية الأولى استعملوا مصطلح (الحديث) للتعبير عن:

- أحاديث تنسب إلى الصحابي (=قول للصحابي)، مثال ذلك (٣ ، ٤).
- رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم. مثال ذلك (٥ ، ٦).

– في النصوص (٢ ، ٣): استخدم فقهاء المدرسة الجابرية مصطلح (الرواية) للتعبير عما تفرد به الآحاد من الرواة فيما يروونه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومثال ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً".

– في النصوص (١ ، ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩): اعترض فقهاء المدرسة الجابرية على بعض الروايات والأحاديث التي رويت عنه صلى الله عليه وسلم أو عن غيره من الصحابة لمخالفتها ما هو أقوى منها في نظرهم، وحملوا البعض الآخر على محمل مقبول اقتضاه النظر في الثابت من النصوص من الكتاب والسنة.

من واقع الاستقراء للنصوص السابقة المأثورة عن فقهاء المدرسة الجابرية، يتبين لنا أن مصطلح:

١ . **السنة**: استعمل للتعبير عما جرى عليه عمل الأمة واستقرت عليه الشريعة وما اجتمعت عليه من السنن، دون ما ينفرد به الأفراد القليلون.

---

٦٥ المرجع السابق ج١ ص ١٥٥.

٢ . **الرواية**: استعمل للتعبير عن بعض ما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال قيلت في مناسبات ووقائع لا تذكر في كثير من الأحيان الملابسات والظروف التي قيلت فيها من قبل الرواة، مما ينفردون به عن غيرهم.

٣ . **الحديث**: استعمل للتعبير عن أقوال أو أفعال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من صحابته الكرام رضي الله عنهم، مما يرويه الآحاد من الناس.

إذن نلاحظ أن مصطلحي (الرواية) و(الحديث) متقاربان جداً وليس بينهما سوى فروق طفيفة للغاية، بينما مصطلح (السنة) يعبر عن درجة أعلى ومستوى من الثبوت أرقى، هذا ما بينه الاستقراء .

العلاقة بين السنة والحديث

قدمنا فيما سبق من تعريفات للسنة والحديث أن السنة تعبر عن الجانب التشريعي المتيقن منه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما يعبر الحديث عن وقائع متفرقة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم مما ينفرد به الآحاد من الرواة.

إذن يكون بذلك الحديث دالاً على السنة أحياناً، وفي أحيان أخرى معبراً عن جوانب منها، وفي أحيان أخرى قد يحصل للحديث نوع من عدم الانسجام الداخلي مع البنية الهيكلية للسنة نتيجة للعوارض الداخلية والخارجية التي ترافق عملية نقله، ومن هذه العوارض: النسيان والخطأ والرواية بالمعنى والبتر والزيادة وغيرها مما يعتري حتى أوثق الرواة، قال الإمام أبو عبيدة مسلم في رسالته عن الزكاة التي وجهها إلى أتباعه بالمغرب (فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ في رواية أو خبر أو غير ذلك

فمن نفسي، استغفر الله من جميع ما ليس هو له رضى)[66] وهذه الرسالة فيها من الأخبار والروايات عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن صحابته الكرام، وأبو عبيدة راو من رواة الحديث كما يظهر من مسند الربيع ومدونة أبي غانم، فقوله (وما كان من خطأ في رواية أو خبر) ينصرف لمعنى الرواية والخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته.

لذا كان بعض علماء الصحابة ينكر على من يسرد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بدون ذكر الوقائع والملابسات التي تكتنفه، فعندما كان الصحابي أبو هريرة يروي ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت السيدة عائشة تقول: (ولو أدركته لرددت عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم)[67] وكان عمر بن الخطاب يوصي بالإقلال من الحديث والرواية، روى ابن ماجه (٢٨) والدارمي في السنن (٢٨٠) والحاكم في المستدرك (٣٤٧) عن قرظه بن كعب قال: بعث عمر بن الخطاب رهطاً من الأنصار إلى الكوفة، فبعثني معهم، فجعل حتى أتى صرار - وصرار ماء في طريق المدينة - فجعل ينفض الغبار عن رجليه، ثم قال: "إنكم تأتون الكوفة، فتأتون قوماً لهم أزيز بالقرآن، فيأتونكم فيقولون قَدِم أصحاب محمد قدم أصحاب محمد ، فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث، فاعلموا أن سبغ الوضوء ثلاث وثنتان تجزيان" . ثم قال: "إنكم تأتون الكوفة، فتأتون قوماً لهم أزيز بالقرآن فيقولون قَدِم أصحاب محمد قدم أصحاب محمد ، فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث، فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم فيه" .

---

٦٦ الديوان المعروض (رسالة الشيخ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في الزكاة ص٢).

٦٧ البخاري (٣٣٧٥) مسلم (٢٤٩٣).

نخلص من كل ذلك أن الحديث:

– يكون دالاً على السنة.

– وفي أحيان أخرى يكون معبراً عن جوانب منها.

– وقد يحصل للحديث نوع من عدم الانسجام الداخلي مع البنية الهيكلية للسنة نتيجة للعوارض الداخلية والخارجية التي ترافق عملية نقله.

(١) عندما يكون الحديث دالاً على السنة

– روى الإمام الربيع (٥٢٣): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها).

قال أبو عيسى الترمذي بعد روايته للحديث عن ابن عباس وأبي هريرة: (حديث ابن عباس وأبي هريرة حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند عامة أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافاً أنه لا يحل للرجل أن يجمع بين المرأة وعمتها)[٦٨].

فهذا الحديث عبارة عن عمل مورس من قبل المسلمين عبروا فيه عن السنة (=الطريقة المتبعة) النبوية، وهذا التشريع في حقيقته موجود في كتاب الله تعالى، فالله تعالى نهى عن الجمع بين الأختين ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاخْتَيْنِ﴾ النساء: ٢٣، ونهى عن نكاح البنت إذا كانت الأم قد دخل بها الرجل ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فِى حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ النساء: ٢٣، أما مجرد العقد على البنت فيجعل الأم محرمة على الرجل ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ﴾ النساء: ٢٣، فمن تلك التشريعات يظهر حرص الإسلام على الحفاظ على منظومة العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة من أن يقطعها الاشتراك في

---

٦٨ سنن الترمذي ج٣ ص٤٣٣.

علاقة الزوجية ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ محمد ٢٢، وهذا يشمل القرابة من الدرجة الأولى كالأم والبنت والأخت، وجاء النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها من التشريع النبوي المفعل للتعاليم والرؤية القرآنية.

– روى الإمام الربيع (٢٣٩): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال: (التحيات كلمات كان يعلمهن النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، ومعنى التحيات الملك لله)، وجاء في مدونة أبي غانم من كلام أبي المؤرج: (التشهد أن تقول حين تجلس بعد كل ركعتين: "التحيات لله والصلوات الطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله". ثم تدعو بعد كمال الرابعة وبعد هذا التشهد بما بدا لك وبما يصلح لك أن تدعو به. قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: فهذا تشهد عبدالله بن مسعود)[69].

وهذه الأحاديث في التحيات (=على اختلاف يسير في بعض ألفاظها) مثلت السنة العملية المجتمع عليها بين المسلمين والتي حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليمها لأمته، (قال الربيع وأبو المؤرج: بلغنا عن عبدالله بن مسعود أنه كان يعلم أصحابه هذه الكلمات من التشهد كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وكان ابن مسعود يقول: "علمنيهن النبي عليه السلام")[70].

(٢) عندما يكون الحديث معبراً عن جوانب من السنة

٦٩ المدونة الصغرى ج١ ص ٣١، بشر بن غانم الخراساني.

٧٠ المرجع السابق ج١ ص ٣٢.

فالحديث عبارة عن نقل وقائع متفرقة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم يشهدها بعض الصحابة وينقلونها (=مستلهمين في ذلك فهمهم لها في كثير من الأحيان)، ومن خلال ربط تلك الأقوال أو الممارسات بالأصول الكلية للدين من الكتاب والسنة يتبين لنا أن الأحاديث لا تخرج في طبيعتها عن:

أ- **القوانين الإلهية في كتاب الله تعالى**: فالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال الحركة اليومية للحياة كان يشرع في نطاق القواعد والمقاصد الكلية للكتاب العزيز، بتطبيق أحكامه وبيان معانيه ودلالاته، فـ(السنة والسيرة تبدوان تطبيقاً عملياً للقرآن في مقاصده العليا الحاكمة، تتكامل السنة معه في وحدة بنائية تقرأ وتفهم في ضوئها آلاف الأحاديث الصحيحة والأفعال والتصرفات النبوية الثابتة، التي أدخلتها القراءات الجزئية المعضاة ولا تزال في دوائر "مختلف الحديث" و"مشكل الآثار" ونحو ذلك، ولم تستطع قواعد الجرح والتعديل وموازين الأسانيد والمتون أن توقف ذلك الجدل الذي دار)[٧١].

ب- **السنن الكونية والاجتماعية**: أي أن بعض الأحاديث تكون عبارة عن تطبيق للقواعد والمقاصد القرآنية في واقع الحياة المتغير، وهذا البعد لابد من إدراكه لدى الفقيه في تعامله مع الأحاديث، إذ إن إدراك هذا البعد الزمني الذي ورد في النص المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفق مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية هو الذي يضمن عملية التفريق الدقيق بين التشريع النبوي المطلق وبين تطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم للنصوص وفق حركة المجتمع والحياة[٧٢].

---

٧١ مقاصد الشريعة ص ١٣٤– ١٣٥، طه جابر العلواني.

٧٢ انظر أيضاً "الفصول في الأصول" ج٣ ص ٢٣٩– ٢٤٤، أحمد بن علي الرازي الجصاص.

ولنضرب على ذلك مثالين:

- **المثال الأول:**

روى الإمام الربيع (٦٢٣) من طريق ابن عباس عن النبي عليه السلام أنه سئل عن ضالة الغنم فقال: (خذها فهي لك أو لأخيك أو للذئب). ثم قيل له: ما تقول في ضالة الإبل؟، فاحمر وجهه وغضب وقال: (مالك ولها، معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها).

وروى الإمام الربيع (٦٢٤) من طريق ابن عباس أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن لقطة التقطها، فقال: (عرفها سنة، فإن جاء مدعيها بوصف عفاصها ووكائها فهي له، وإلا فانتفع بها). قال الربيع: العفاص الوعاء، والوكاء الخيط الذي تشد به.

وعند الربيع (٦٢٥) من طريق ابن عباس أيضا أن زيد بن ثابت التقط صرة فيها مائة دينار، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال له: (عرفها سنة، فمن جاءك بالعلامة فادفعها له). فجاءه عند تمام السنة فقال له: عرفتها يا رسول الله سنة. فقال له: (عرفها سنة أخرى). فجاءه عند انقضاء السنة الثانية فأخبره أنه عرفها سنة أخرى، فقال: (هو مال الله يؤتيه من يشاء).

وهذه الأحاديث رواها البخاري (٩١) ومسلم (١٧٢٢) وغيرهم.

ومن هذه الأحاديث نلحظ:

— أن حق صاحب اللقطة لا يسقط بالتقادم.

— وأن الانتفاع بالمفقود أولى من إهلاكه، فالمال يُعرّف سنة أو سنتين ثم ينتفع به، ويلزم رده عند ظهور صاحب الحق.

— وأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز التقاط ضالة الغنم ونهى عن التقاط ضالة الإبل.

وهذه التشريعات مأخوذة من القواعد التشريعية العامة من الكتاب والسنة العملية، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ النساء ٥٨ فمن ثوابت الإسلام ومن أخص صفات المؤمنين حفظ الأمانة وتأديتها إلى أهلها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ المؤمنون ٨.

وكذا الانتفاع بها إن لم يُعرَف صاحبها بعد تعريفها هو من باب الحفاظ على المال من الضياع والإهمال، وحق صاحبها لا يسقط بالتقادم، لأن الحق لا ينتقل عن صاحبه إلا بموجبات شرعية كالهبة أو الهدية أو البيع وما شابهها، فالله تعالى نسب المال إلى أصحابه ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ﴾ النساء ٥ ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء ٢، ولا تنتقل هذه الملكية إلا بوجه مشروع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ النساء ٢٩، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بيان عام أمام الأمة في حجة الوداع: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)[٧٣].

أما ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في جواز إيواء ضالة الغنم والنهي عن إيواء ضالة الإبل؛ فلأن ضالة الإبل (معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها) بخلاف ضالة الغنم.

فتجدون من كل هذه التشريعات النبوية أنها تُستَقى من أمرين اثنين:

- القواعد التشريعية العامة في الكتاب العزيز والسنة العملية.
- دائرة الوجود الإنساني الاجتماعي التي تعمل فيها هذه القواعد.

---

٧٣ البخاري (١٠٥)، مسلم (١٢١٨)، السنن الكبرى للنسائي (١١٢١٣)، أبو داود (١٩٠٥) وآخرون.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هذا الأمر، فلم يقفوا عند ظواهر الألفاظ مستأسرين لحرفيتها، بل غاصوا في حقائق مراميها واكتشاف قواعدها وأصولها، روى مالك في الموطأ (عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار أن ثابت بن الضحاك الأنصاري أخبره أنه وجد بعيراً بالحرة فعقله، ثم ذكره لعمر بن الخطاب، فأمره عمر أن يعرفه ثلاث مرات. فقال له ثابت: إنه قد شغلني عن ضيعتي. فقال له عمر: أرسله حيث وجدته)[٧٤].

و(كانت ضوال الإبل في زمان عمر بن الخطاب إبلاً مؤبلة تناتج لا يمسها أحد، حتى إذا كان زمان عثمان بن عفان أمر بتعريفها ثم تباع، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها)[٧٥].

فعمر بن الخطاب أجاز إمساك وإيواء ضالة الإبل بشرط تعريفها ثلاثاً، ثم إطلاقها إذا لم يتعرف عليها أحد، أما عثمان بن عفان فقد أمر بإمساكها وبيعها، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها، فهل في فِعلْ الخليفتين مخالفة للسنة؟، قد يحسب ذلك بعض ممن لا يفرقون بين السنن الماضية وما انبنت عليه، وبين مواقف يتخذها النبي صلى الله عليه وسلم استناداً إلى القواعد التشريعية في دائرة الوجود الاجتماعي.

والمدقق يرى أن (تكاثر ضوال الإبل في ولاية عمر يعود إلى انتقال قبائل برمتها من الحجاز ونجد إلى العراق وخراسان والشام ومصر، وامتداد سلطان المسلمين خارج

---

٧٤ الموطأ (١٤٤٧)، انظر أيضاً الديوان المعروض (من قول قتادة ج٤ ص ١٣).

٧٥ المرجع السابق (١٤٤٩).

الجزيرة وتخلف أعداد من الإبل في أحيائها القديمة)[٧٦] ، ولعل الناس قد خف الوازع لديهم، وكما يقال المال السائب يعلم السرقة، فأجاز عمر إمساكها وتعريفها ثلاثاً.

ثم (رأى الخليفة عثمان أن ترك الإبل طليقة يحول دون الانتفاع بها بعد أن تكاثر عددها في عهد عمر بن الخطاب وأصبحت كما روى ابن شهاب "إبلاً مؤبلة تناتج لا يمسها أحد" أي تتوالد دون أن يعرف لها مالك، لذلك أمر عثمان ببيعها والاستفادة من أثمانها في تنمية ثروة المسلمين، بدلاً من تركها تتوالد وتموت دون أن ينتفع بها أحد، ولو تمسك بظاهر النهي عن التقاط الإبل لخالف سنة رسول الله لتضييعه أموال المسلمين وثرواتهم)[٧٧] ، وعليه (فمن وجد بعيراً ضالاً فيما لا يقدر فيه على الورود ولا على الرعي، وأخذه قصداً إلى حفظه على ربه فهو مطيع لله في فعله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينه عن أخذ مثل هذا)[٧٨] ، ويؤيد خميس بن سعيد الشقصي هذا الرأي بقوله: (ولا يبعد أن يكون هذا البعير في معنى ضالة الغنم ونحوها، وقال عمر: "من آوى الضالة فهو ضال ما لم يعرفها" فهذا يدل على أنه إذا عرفها وحبسها على ربها كان مأجوراً)[٧٩] .

ويعلل ابن بركة هذا التوجه بقوله: (فإن قال قائل: لم أجزت أخذه والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يأوي الضالة إلا ضال" وقال عليه السلام: " ضالة المؤمن حرق النار"، والظاهر يمنع من أخذه؟.

---

٧٦ إعمال العقل ص ١٦٠، لؤي صافي (بتصرف بسيط).

٧٧ المرجع السابق ص ١٦٠، (بتصرف بسيط).

٧٨ التاج المنظوم ج ٧ ص ١٢٨، عبدالعزيز الثميني.

٧٩ المرجع السابق ج ٧ ص ١٢٩.

قيل له: إنما هذا الوعيد لمن فعل ما قد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وأما من تقرب إلى الله تعالى بأخذ البعير وحفظه على ربه في حال كان فيها لو تركه لتلف، وليس معه شرطه الذي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أخذه لأجله، وإذا كان هذا هكذا كان مطيعاً في فعله لقول الله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَىَ﴾ المائدة:٢ . وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "من آوى الضالة فهو ضال ما لم يعرفها" فهذا يدل على أنه إذا عرفها فحبسها على ربها كان مأجوراً.

وروى أصحاب الحديث من مخالفينا عن الزهري أنه قال:"كانت الإبل أيام عمر بن الخطاب مؤبلة تناتج لا يمسكها أحد، حتى كان أيام عثمان فأمر ببيعها بعد تعريفها، فإن جاء لها رب دفع إليه ثمنها)[٨٠]. وماذا عسانا أن نقول في زماننا هذا وخاصة في الجزيرة العربية والذي صارت فيه ضوال الإبل تهدد أرواح البشر في الطرقات؟! إن إمساكها هو الوجه المعتبر في هذا الوقت حفاظاً على أرواح الناس وممتلكاتهم، وهو التطبيق الصحيح للسنة النبوية.

أما مدة تعريف اللقطة؛ فجاءت الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم بتحديد السنة والسنتين، ولا يخفى على المتأمل أن البعد الاجتماعي متداخل في هذه القضية مع الجوانب التشريعية، فتحديد مدة التعريف يرتبط أساساً بطبيعة وسائط النقل والاتصال اللازمة للتعريف، ونعرف أن تلك الوسائط تتطور بفعل حركة الحياة، وقد انتبه الفقهاء المحققون باستمرار لهذه الظاهرة؛ فأبو المؤثر الصلت بن خميس

---

٨٠ كتاب الجامع ج١ ص ٢٣٩، عبدالله بن محمد بن بركة. بيان الشرع ج ٦٤ ص ٣١٨، محمد بن إبراهيم الكندي (بتصرف).

الخروصي يقول بأن اللقطة (تُعرَّف على قدرها)[٨١] وأبو سعيد الكدمي يرى أن (ما قيمته ثلاثة دراهم فصاعداً عُرِّف سنة، والدرهمان شهرين، والدرهم شهراً)[٨٢].

- **المثال الثاني:**

روى الإمام الربيع (٥٩٢): أبو عبيدة عن جابر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عام سَنَة – وإنما سُمِي عام سَنَة لشدة غلائها – أن يُسَعِّرَ عليهم الأسواق فامتنع؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (القابض الباسط هو المُسَعِّرُ، ولكن سلوا الله).

وعند أبي داود (٣٤٥١) عن أنس قال: قال الناس: يا رسول الله غلا السعر فسَعِّر لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله هو المُسَعِّر القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال). والحديث رواه أيضاً ابن ماجه (٢٢٠٠) والترمذي (١٣١٤) وابن حبان (٤٩٣٥) وآخرون.

وروى مالك في الموطأ (١٣٢٨) عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مر بحاطب بن أبي بلتعة وهو يبيع زبيباً له بالسوق، فقال له عمر بن الخطاب: (إما أن تزيد في السعر وإما أن ترفع من سوقنا).

وروى البيهقي في السنن الكبرى (١٠٩٢٩) (عن القاسم بن محمد عن عمر رضي الله عنه أنه مر بحاطب بسوق المصلى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرهما. فسعر له مدين لكل درهم، فقال له عمر رضي الله عنه: قد حدثت بعير مقبلة من

---

٨١ التاج المنظوم ج ٧ ص ١١٩، عبدالعزيز الثميني.

٨٢ المرجع السابق ج٧ ص ١١٩.

الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك، فإما أن ترفع في السعر وإما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت.

فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره، فقال له: " إن الذي قلت ليس بعزمة مني ولا قضاء، إنما هو شيء أردت به الخير لأهل البلد، فحيث شئت فبع، وكيف شئت فبع").

فالظاهر أن عمر بن الخطاب لم يكن يرى في التسعير إلا أمراً يدور مع تحقيق مصلحة البائع والمشتري ويرفع الظلم والضرر عنهم ولا يقتضي حالة واحدة يلزمها.

قال ابن بركة بعد أن استدل بالحديث السابق في منع تسعير السلع (ولكن إذا بلغ الناس حال الضرورة من الحاجة إلى الطعام على ما في أيديهم واستغنائهم عنه مع سوء حال الناس والشدة جاز للإمام أن يأخذ أصحاب الطعام ببيع ما في أيديهم بالثمن الذي يكون عدلاً من قيمته ويجبرهم على ذلك، فإن قال قائل: فَلِمَ منعتم التسعير للإمام وقد جوزتموه؟ قيل له: جوزناه في حال الضرورة، وغيرها، وعلى الإمام أن يمنع أهل الأسواق عن الغش؛ لأن في ذلك ظلماً من بعضهم لبعض، وكذلك يمنعهم من كتمان العيوب التي يغش بها المتاع)[٨٣].

(وقال الشيخ أحمد بن محمد بن بكر: يجوز لقاض أو جماعة أن يسعروا على قدر نظرهم، وما رأوه أصلح على الثمن أو على المثمن، وفي رواية عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أن يسعر لهم فامتنع، فقال: "إني لأرجو أن لا ألقى الله بمال مسلم" فمن منع التسعير حمل الحديث على التحريم، ومن أجاز حمله على التنزه والحوطة، كما يقول

---

٨٣ كتاب الجامع ج٢ ص ٦٠٤– ٦٠٥، عبدالله بن محمد بن بركة.

الإنسان: "لا أقضي بين الناس لئلا أظلم أحداً في مال أو نفس" أو يقول: "لا أبيع ولا أشتري لئلا آكل أموال الناس، أو لئلا أربي".

وقال ابن بركة بعد أن ذكر الحديث الأول: فلا يجوز لهذا الخبر أن يسعر أحد على الناس أموالهم أو يجبرهم على بيعها بغير طيب نفوسهم من إمام ولا غيره، ولكن إذا بلغ الناس حال الضرورة من الحاجة إلى الطعام وعزم أصحاب الطعام ببيع ما في أيديهم جاز للإمام أخذ أصحاب الطعام ببيع ما في أيديهم بالثمن الذي يكون عدلاً في قيمته، فيجوز التسعير في حال الضرورة لا غير اهـ. وقيل: يجوز التسعير بلا ضرورة وهو القول الأول الذي ذكرته عن الشيخ أحمد)[٨٤].

قال صاحب متن النيل وشفاء العليل عبدالعزيز الثميني: (وجاز لأهل سوق مشهور وما حوله من منازل رد أسعار منازلهم لسعره) وعلل الشارح محمد بن يوسف اطفيش هذا الرأي بقوله: (لئلا يقع اللبس على الناس في السعر فيتوهم الإنسان أنه يبيع له البائع على سعر ذلك السوق مع أنه باع له على غير سعره فيبيعون في منازلهم على سعر البيع في السوق)[٨٥].

من كل هذه النصوص المأثورة عن العلماء ابتداء بعمر بن الخطاب وانتهاء بالعلماء المتأخرين يتبين أنهم عولوا على:

– أن القضية برمتها في دائرة الوجود الاجتماعي المرتبطة بحياة الناس اليومية فيما يتمونون به من سلع وبضائع، فهي تمثل العلاقة المتبادلة بين ثلاثية: المنتج والموزع والمستهلك، وهذه العلاقة عند سبر نصوص الكتاب والسنة الماضية تقوم على رفع

---

٨٤ شرح كتاب النيل وشفاء العليل ج١٣ ص ٦٦٣، محمد بن يوسف اطفيش.

٨٥ المرجع السابق ج ١٣ ص ٦٦٣–٦٦٤.

الضرر والظلم وتحقيق المصلحة (والأصل فى العقود جميعها هو العدل، فإنه بعثت به الرسل وأنزلت الكتب قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد :٢٥ ، والقرآن نهى عن الربا لما فيه من الظلم، وعن الميسر لما فيه من الظلم، وكلاهما أكل للمال بالباطل، وما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من المعاملات كبيع الغرر وبيع الثمر قبل بدو صلاحه وبيع السنين وبيع المزابنة والمحاقلة ونحو ذلك هي داخلة إما فى الربا وإما في الميسر)[٨٦]، فالواقعة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق لهذه المبادئ العظيمة، فلذا قال صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه: (وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال).

(٣) وفي أحيان أخرى قد يحصل للحديث نوع من عدم الانسجام الداخلي مع البنية الهيكلية للسنة نتيجة للعوارض الداخلية والخارجية التي ترافق عملية نقله، فيحتاج الفقيه إلى عملية من المواءمة والموازنة (=التأويل) في قبول الحديث أو رده، لكن علينا التنبيه أنه في بعض الأحيان قد تختلف أنظار الناس في هذه العملية بين القبول والرد بحسب مداركهم، وهذا حاصل حتى في عصر الصحابة، فقد روى البخاري (٥٥٦) ومسلم (٨٢٦) عن ابن عباس قال: "شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس، وبعد العصر حتى تغرب".

٨٦ كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج ٢٠ ص ٥١٠ (بتصرف بسيط)، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية.

وقد تعقبت السيدة عائشة هذه الرواية فقالت: (وهم عمر، إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحرى طلوع الشمس وغروبها)[٨٧]. وعند النسائي (٥٧٠): "أوهم عمر رضي الله عنه، إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها)[٨٨].

وقد نحا ابن عمر منحى السيدة عائشة في ذلك ووافقها على رأيها مخالفاً لما يروى عن أبيه حيث قال: (أصلي كما رأيت أصحابي يصلون؛ لا أنهى أحداً يصلي بليل ولا نهار، غير أن لا تحروا طلوع الشمس ولا غروبها)[٨٩].

الحديث بين القبول والرد

(قد يقع للصحابي أن يسمع من صحابي آخر حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فيتوقف فيه، حيث لا يراه منسجماً مع ما فهمه من معاني القرآن الكريم، وما سمعه هو من فم النبي صلى الله عليه وسلم، وهنا إما أن يتوقف الصحابي في الرواية مجرد توقف، وإما أن ينكرها إطلاقاً، حملاً لها على سهو الناقل وخطئه ووهمه)[٩٠].

وكما علمنا في الفصول الماضية أن السنة هي الطريقة المتبعة المطردة، لذا كان المعبر عنها بما استقر عليه العمل وما اجتمعوا عليه دون ما يروى آحاداً، ومن خلال تتبع طريقة فقهاء المدرسة الجابرية تبين أنهم عبروا عن الآحاد بمصطلحات الرواية

---

٨٧ صحيح مسلم (٨٣٣).

٨٨ انظر أيضاً مسند الربيع (٢٩٩): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتحرى أحدكم أن يصلي عند طلوع الشمس أو عند غروبها).

٨٩ صحيح البخاري (٥٦٤).

٩٠ منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي ص ١٠٥، صلاح الدين الأدلبي.

والحديث، حرصاً منهم على فصل ما يعبر عن طبيعة الدين ومصدره التشريعي المطلق عن التطبيق الزمني الظرفي المولَد من التشريع الدائم المطلق.

لذا مارسوا فهم الحديث والرواية في ضوء السنة، مع التنبيه على أن السنة لديهم لم تنفصل على الإطلاق عن القرآن، فهما يمثلان معاً المرجعية العليا للإسلام، فـ(السنة مأخوذة من الكتاب)[٩١]، وهي (عمل بكتاب الله وبه وجب اتباعها)[٩٢]، وكثيراً ما كان شعارهم في تأصيلاتهم الفقهية والعقدية (ولم نر قوماً أتبع لرواية وأنقض لكتاب الله منكم...)[٩٣].

لذا لم يتردد فقهاء المدرسة الجابرية في ترك مئات الروايات الآحادية أو تأويلها تعويلاً على فهمها وعرضها على السنة المتمثلة في السنة العملية المتبعة وأنساق القواعد العامة والمقاصد الكلية للممارسات العملية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تحقق ترابطها وانسجامها الداخلي. ومن أمثلة ذلك عندهم:

(١) القنوت في الصلاة

قال أبو غانم الخراساني في مدونته (سألت أبا المؤرج: هل في الصلاة قنوت؟.

قال: حدثني أبو عبيدة أنه سأل جابر بن زيد عن ذلك فقال: الصلاة كلها قنوت، قال الله تبارك وتعالى: "أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً" فالصلاة كلها قنوت.

قلت: يا أبا الشعثاء؛ ليس عن هذا أسألك، ولكن إنما أسألك عن الذي يفعل هؤلاء بعد الركوع، يدعون ويهللون وهم قيام.

---

٩١ كتاب الجامع ج١ ص ٢٨٠، عبدالله بن محمد بن بن بركة.

٩٢ المرجع السابق ج١ ص ٢٨٠.

٩٣ المدونة الصغرى ج ١ص٢١٢، بشر بن غانم الخراساني.

قال: هذا أمر محدث لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة)[٩٤] . والقنوت في نشأته الأولى عبارة عن لعن الخصم السياسي أثناء الصلاة، فلم يقبلوه لمخالفته الأصل العملي، ولكونه من كلام الآدميين الذي لا يصح في الصلاة، إنما هو الذكر والتسبيح وقراءة القرآن، وقد رووا ذلك عن فقهاء الصحابة.

– (سئل جابر بن زيد عن القنوت في صلاة الغداة والوتر؟

قال: هو شيء أحدثه الناس لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن يقنت في صلاة الغداة ولا الخلفاء من بعده)[٩٥] .

– (أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال: كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيناه قنت في صلاته قط).[٩٦]

– (أبو عبيدة قال: وقد سمعت عن ابن عمر أنه لا يرى القنوت في الصلاة ولم يقنت في صلاته قط، وكان يراه بدعة)[٩٧] .

– (وعن الإمام رضي الله عنه (=الإمام أفلح بن عبدالوهاب) مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم من طريق جابر بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقنت قط في صلاته ولا الخليفتين بعده)[٩٨] .

– (الإمام عن أبي غانم الخراساني عن حاتم بن منصور قال: حدثني من لا أتهم قوله من أصحابنا وأنا بمصر أو في طريق مصر عن أبي أهيف الحضرمي فقيه أهل مصر عن

---

٩٤ المرجع السابق ج١ ص ٦٧.

٩٥ الديوان المعروض (كتاب جابر بن زيد ص ١٢).

٩٦ الربيع (٣٠٣).

٩٧ الربيع (٣٠٤).

٩٨ كتاب الترتيب، روايات الإمام أفلح (٦).

ابن عمرانة، قال: كان في الزمان الذي كان فيه أقرب إسناداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غيره.

قال حاتم بن منصور: حدَّثني عن القنوت في صلاة الصبح بعدما سألته، هل بلغك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قنت؟

قال: فقال لي: لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال حاتم: فقلت له: كيف كان يصنع فيما بلغك؟

قال بلغني أنه كان إذا فرغ من القراءة الأخيرة قرأ بقل هو الله أحد ولا يقنت)[٩٩].

(٢) حديث أفطر الحاجم والمحجوم

قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج وأبا سعيد عبدالله بن عبدالعزيز، وأخبرني محبوب عن الربيع: عن قول الناس أفطر الحاجم والمحجوم[١٠٠]. قالوا جميعاً: إنما يكره ذلك للصائم مخافة أن يضعف، فإن لم يخف ضعفاً فليحتجم إن شاء)[١٠١].

(٣) حديث النهي عن صيام الجمعة

قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج وابن عبدالعزيز: عن صيام يوم الجمعة ويوم عرفة.

قالا: حسن جميل.

قلت لهما: إن رجالاً يكرهونهما من أجل أنهما عيدان[١٠٢].

---

٩٩ كتاب الترتيب، روايات الإمام أفلح (٩).

١٠٠ الترمذي (٧٧٤)، أبو داود (٢٣٧١)، النسائي (٣١٣٧)، الدارمي (١٧٣١).

١٠١ المدونة الصغرى ج١ ص ١٦٤، بشر بن غانم الخراساني.

١٠٢ روى مسلم (١١٤٤) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم)، وروى البخاري (١٨٨٤) ومسلم (١١٤٤) عن أبي هريرة قال: قال

قال أبو المؤرج: سألت عن ذلك أبا عبيدة فقال: إن أفضل ما صمت فيه يوم الجمعة ويوم عرفة، إلا أن يكون يوم الجمعة التي يكره الصيام فيها.

قلت: وما هي يا أبا عبيدة؟.

قال: يوم الفطر والأضحى، وأيام التشريق، ويوم الشك)[١٠٣].

(٤) حديث عن صيام آخر يوم من شعبان

جاء في الديوان المعروض: (باب في رجل يصوم آخر يوم من شعبان متحرجاً لرمضان. قال قوم: حسن جميل، لأن الله لم يحرم صوم شعبان كله ولا صوم بعضه، ولأنه يصام في الكفارة، وفي التطوع وصيام آخر يوم من شعبان كصيام جميع الأيام، فإذا أصاب رمضان فكان موافقاً لرمضان، وإن لم يوافق رمضان لم يكن عليه حرج في صيام يوم من الأيام.

وقال قوم: لا يصام آخر يوم من شعبان، ورووا فيه حديثاً والله أعلم به. قالوا: إن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "لأن أفطر يوماً من رمضان أحبّ إليّ من أن أصوم آخر يوم من شعبان".

ولسنا نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول هذا، لأن صوم رمضان فريضة افترضها الله على النبي عليه الصلاة والسلام ولم يحرم عليه صوم شعبان أو آخر يوم منه.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يصومن أحدكم يوم الجمعة، إلا أن يصوم يوماً قبله، أو يوماً بعده)، وعند ابن خزيمة (٢١٦١) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن يوم الجمعة يوم عيد فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده).

١٠٣ المدونة الصغرى ج١ ص ١٦٨، بشر بن غانم الخراساني.

حدثنا هارون بن اليماني في هذا الحديث أنه قال: حديث مقلوب، إنما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "لأن أصوم آخر يوم من شعبان أحبّ إليّ من أن أفطر يوماً من رمضان".

حدثنا هارون بن اليماني، رفع الحديث إلى أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن حال السحاب في صومه فعدوا له، وإن حال السحاب دونه في فطره فأكملوا العدة ثلاثين يوماً")[١٠٤].

(٥) حديث البيعان بالخيار

روى الربيع (٥٧٤): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البَيِّعان بالخِيار ما لم يَفْتَرِقا).

قال الربيع: قال أبو عبيدة: "الافتراق بالصفقة أي يبيع هذا ويشتري هذا، وليس كما قال من خالفنا بافتراق الأبدان، أرأيت إن لم يفترقا يومين أو ثلاثة أيام أو أكثر، فلا يستقيم على هذا الحال بيع لأحد"[١٠٥].

قال أبو غانم في المدونة: (سألت ابن عبدالعزيز وأخبرني من سأل الربيع بن حبيب عما روى الناس ورفعوه إلى النبي عليه السلام أنه قال: البايعان بالخيار ما لم يفترقا[١٠٦].

قالوا جميعاً: بلغنا ذلك عن النبي عليه السلام والأمر عندنا كذلك.

---

١٠٤ الديوان المعروض (كتاب الصيام ص ٢٨).

١٠٥ كتاب الترتيب (الجامع الصحيح) ص ٢٥٩.

١٠٦ البخاري (١٩٧٦)، مسلم (١٥٣٢) من طريق حكيم بن حزام عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا). قال أبو عيسى الترمذي في "سنن الترمذي ج٣ ص٥٤٧ ": (وفي الباب عن أبي برزة وحكيم بن حزام وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو وسمرة وأبي هريرة).

قال ابن عبدالعزيز: البيع جايز ماض وإن لم يفترقا، والله أعلم بحديث النبي عليه السلام ما معناه، والافتراق عندنا افتراق صفقة البيع)[١٠٧].

والرواية التي ناقشها الإمام أبو عبيدة وتلميذاه: الربيع بن حبيب وعبدالله بن عبدالعزيز رووها بأنفسهم من طرقهم التي يثقون بها، لكنهم سلكوا بها مسلك التأويل لمخالفة ظاهرها للأصول الكلية والقواعد التشريعية فـ(الله أعلم بحديث النبي عليه السلام ما معناه)، ورأوا أنها لا تتسق والأصول الكلية إلا بحملها على (افتراق صفقة البيع) كما قال ابن عبدالعزيز، وأن (الافتراق بالصفقة أي يبيع هذا ويشتري هذا) كما قال الإمام أبو عبيدة، (وليس كما قال من خالفنا بافتراق الأبدان).

والظاهر أنهم سلكوا هذا المسلك اعتماداً على:

– أن البيوع تدخل ضمن دائرة الوجود الاجتماعي بعلاقاته الشائكة التي تتأثر باستمرار بمتغيرات الحياة المتسارعة، لذا كان الأصل في البيوع التي تظهر هي الإباحة قال الله تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة: ٢٧٥ وما كان محرماً منها فهي البيوع التي تشتمل على الغرر أو الضرر بالفرد أو المجتمع، ومن استقراء واقع البيوع المحرمة التي جاءت بها الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يتبين لنا هذا، (والأصل فى العقود جميعها هو العدل، فإنه بعثت به الرسل وأنزلت الكتب قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد:٢٥، والقرآن نهى عن الربا لما فيه من الظلم، وعن الميسر لما فيه من الظلم، وكلاهما أكل للمال بالباطل، وما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من المعاملات

---

١٠٧ المدونة الصغرى ج٢ ص ١٢٩، بشر بن غانم الخراساني.

كبيع الغرر وبيع الثمر قبل بدو صلاحه وبيع السنين وبيع المزابنة والمحاقلة ونحو ذلك هي داخلة إما فى الربا وإما في الميسر)[١٠٨]، فالاعتبار في الاقتصاد هو تحقق العدالة وارتفاع الظلم، وهذا ما دل عليه استقراء الشريعة الإسلامية، وظهور أي معاملة من المعاملات الاقتصادية إنما يحكم فيها هذا الأمر، والشروط المصاحبة للعقد ينظر فيها هل تحقق العدالة وترفع الظلم فتجاز، أو توقع الظلم فتحرم [١٠٩].

– والحرج مرفوع في الشريعة قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج:٧٨، وصاغ الفقهاء ذلك في قواعدهم الفقهية بقولهم (المشقة تجلب التيسير)، والمشقة الكامنة في هذا الأمر أن إلغاء صفقة البيع التي تمت طالما البيعان في المجلس يؤدي أن (لا يستقيم على هذا الحال بيع لأحد)[١١٠] وتتعرض المعاملات التجارية التي تقضي حوائج الناس للضيق الشديد والعسر في التنفيذ.

(٦) حديث "من أدرك ماله بعينه عند رجل قد أفلس"

قال أبو غانم في المدونة: (قلت لأبي المؤرج أبلغك ما يروي هؤلاء عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام؟.

قال: وما هو؟

قلت: يقولون إن رجلاً أفلس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رجلاً قد باعه متاعاً فوجد الرجل ذلك المتاع بعينه فرد عليه متاعه، قال أبو هريرة: فإن كان بيع منه شيء فإن الناس يطلبون صاحب المتاع كأحد الغرماء.

---

١٠٨ كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج٢٠ ص٥١٠ (مع تصرف بسيط)، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية.

١٠٩ ربا النسيئة وربا الفضل ص ٦(مقال)، خميس بن راشد العدوي (www.alnadwa.net).

١١٠ كتاب الترتيب (الجامع الصحيح) ص ٢٥٩.

قال: الله ورسوله أعلم بهذا الحديث، وما قال رسول الله فهو حق، والقول من الناس كثير، غير أن أصحابنا يروون أنه بين الغرماء بالحصص، ولست أعرف بينهم في ذلك اختلافاً، إلا أن يكون الرجل المفلس خدع رجلاً من المسلمين فاشترى منه بعدما أفلس ولم يطلع على إفلاسه، ثم علم بعد ذلك؛ فذلك الذي يقول أصحابنا يأخذ متاعه، وليس لأحد من الغرماء فيه شيء، لأنه بمنزلة قاطع الطريق، أو بمنزلة السارق.

قلت: فلو كان اشترى جارية على هذه الجهة التي أعلمتني بها، ثم علم الرجل بإفلاسه، فانطلق إليه يأخذ جاريته، فوجد المفلس قد أحدث فيها عتقاً؟.

قال: لا يجوز عتقه، ولا نعمت له عين)[111]. وهذا النص في المدونة تداول فيه أبو غانم وأبو المؤرج رواية رواها الربيع (٥٩٣) والبخاري (٢٢٧٢) ومسلم (١٥٥٩) والنسائي في السنن الكبرى (٦٢٧٢) وأبو داود (٣٥١٩) والترمذي (١٢٦٢) عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أدرك ماله بعينه عند رجل قد أفلس أو إنسان قد أفلس فهو أحق به من غيره). قال أبو عيسى الترمذي: (حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم هو أسوة الغرماء، وهو قول أهل الكوفة)[112].

نتساءل ما الذي جعل فقهاء المدرسة الإباضية الأولى يرون أن مال المفلس بين الغرماء بالحصص بلا خلاف بينهم في ذلك، بينما الرواية تنص على خلاف ذلك؟.

أولاً: لم تكن الرواية تشكل طابعاً إلزامياً بفعل طبيعة نقلها الآحادية لذا قال أبو المؤرج: (الله ورسوله أعلم بهذا الحديث) مع التنبيه على عدم الاستخفاف أبداً بما يصدر

---

١١١ المدونة الصغرى ج٢ ص ١٤٨، بشر بن غانم الخراساني.

١١٢ سنن الترمذي ج٣ ص٥٦٢ .

عنه صلى الله عليه وسلم (وما قال رسول الله فهو حق)، وبسبب كون المسألة لم تشكل سنة ماضية فـ(القول من الناس كثير)، وآراؤهم متنوعة حولها استناداً إلى الأصول الكلية والقواعد التشريعية في هذا الباب، ومن هؤلاء فقهاء المدرسة الإباضية الأولى.

ثانياً: ومما يظهر أن الأصول الكلية والقواعد التشريعية التي قام عليها هذا الرأي: تحقيق العدل في رجع الحقوق لأصحابها قال تعالى ﴿إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدّواْ الأَمَانَاتِ إِلَىَ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ النساء:٥٨، إذ المفلس شخص (تزيد ديونه على موجوده)[١١٣] يطالبه الناس برجع حقوقهم من الأموال، وهو في كثير من الأحيان لا يملك ما يغطي كل تكاليف ديونه، فما يملكه مما قد تعود ملكيته السابقة لأي من الغرماء فيه نصيب لبقيتهم، فأخذ أي من الغرماء لأشياء تعود ملكيتها السابقة له في حقيقته تعد على حصص بقية الغرماء، لذا رأى فقهاء المدرسة الإباضية الأولى أنه بين الغرماء بالحصص، ليس بينهم في ذلك اختلاف.

ثالثاً: أما الرواية فحملوها على حال كون (المفلس خدع رجلاً من المسلمين فاشترى منه بعدما أفلس ولم يطلع على إفلاسه، ثم علم بعد ذلك؛ فذلك الذي يقول أصحابنا يأخذ متاعه، وليس لأحد من الغرماء فيه شيء، لأنه بمنزلة قاطع الطريق، أو بمنزلة السارق)، وهذا التوجيه للرواية لم يذكر بالطبع في الرواية، لكنه محمل صحيح تفرضه الأصول الكلية والقواعد التشريعية.

---

١١٣ شرح كتاب النيل وشفاء العليل ج١٣ ص ٦٠٨، محمد بن يوسف اطفيش.

(قال ابن وصاف: المسألة من الجامع، ومن أخذ من قوم مالاً ثم أفلس فهو بين الغرماء، وإن أخذه بعد أن أفلس ولم يعلم فتلك خيانة وصاحب المال أحق به أدركه بعينه، وقال أبو الحسن: من أخذ مال قوم ثم أفلس فهو بين الغرماء، ودين رب المال بالحصة عليه، وإن أخذه بعد أن أفلس فعلى قول تلك خيانة والمال لربه أحق به إذا أدركه بعينه)[١١٤].

(وقال أبو معاوية عزان بن الصقر وتبعه أكثر من جاء بعده من فقهاء الأصحاب: إن كان إفلاسه من بعد ما اشترى فالبائع والغرماء سواء في المتاع، وإن اشتراه بعد إفلاسه ثم مات فهو بمنزلة المغتصب، فإن وجد المتاع بعينه أخذه، وإن لم يوجد المتاع فثمن المتاع في ماله، وله الوفاء دون الغرماء)[١١٥]، وكما يظهر من هذه النقول أن هذا الرأي هو الذي ساد لدى أكثر فقهاء المذهب الإباضي (وهو في غاية من التحقيق)[١١٦].

(٧) حديث "لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه"

روى الإمام الربيع (٨٩): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه). قال الربيع: قال أبو عبيدة: ذلك ترغيب من النبي صلى الله عليه وسلم في نيل الثواب الجزيل في ذكر الله.

يرى الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة أن التسمية مندوبة وليست فرضاً مع مجيء الحديث عنه صلى الله عليه وسلم بلفظ (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه).

ومرد هذا الرأي فيما يظهر أنه نظر إلى أن فرائض الوضوء وأركانه الأساسية ثابتة بالكتاب العزيز ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ

---

١١٤ المرجع السابق ج ١٣ ص ٦٣٥.

١١٥ شرح الجامع الصحيح ج٣ ص ٢٣٤، عبدالله بن حميد السالمي.

١١٦ المرجع السابق ج٣ ص ٢٣٤.

وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ المائدة:٦ (وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم المضمضة والاستنشاق)[١١٧] ومسح الأذنين من خلال الممارسة العملية، قال أبو غانم الخراساني (حدثني الربيع: أنه سأل أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة عن الوضوء للصلاة، قال: تبدأ فتغسل كفيك، ثم تستنجي، ثم تمضمض فاك، ثم تستنشق بالماء، وتغسل وجهك وذراعيك إلى المرفقين، وتمسح برأسك وأذنيك ظاهرهما وباطنهما، وتغسل رجليك إلى الكعبين)[١١٨].

فالوضوء بهيئاته وكيفيته ثابت بنصوص الكتاب العزيز والسنة العملية المجتمع عليها، لذا فعندما وردتهم هذه الرواية تعاملوا معها بالشكل التالي:

نظروا إلى كونها تحث على الذكر في حال الشروع في الوضوء، وذكر الله تعالى عند الشروع في الأعمال وردت بها بعض جزئيات الشريعة كالذبح والصيد والجماع والأكل، وذكر الله تعالى على أي حال أمر مرغب فيه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ﴾ آل عمران:١٩١، فالرواية لا تخرج عن نطاق هذه الأصول.

لكن رفعها لدرجة الإلزام يحتاج إلى مستوى من الممارسة العملية في الوضوء ذاته، إذ إن بقية هيئات الوضوء ثبتت بهذه الكيفية، والدلالة اللغوية للرواية المنقولة لا تكفي وحدها لرفع الأمر إلى درجة الإلزام في مثل هذه الأبواب، لذا اكتفى الإمام أبو عبيدة بالقول باستحباب ذكر الله تعالى عند الشروع في الوضوء وقال: (ذلك ترغيب من النبي صلى الله عليه وسلم في نيل الثواب الجزيل في ذكر الله).

(٨) أحاديث التسليمتين في الصلاة

---

١١٧ أصول الدينونة الصافية ص ٩٢، عمروس بن فتح.

١١٨ المدونة الصغرى ج١ ص ١٣، بشر بن غانم الخراساني.

قال أحد تلاميذ الإمام الربيع عندما سئل عن التسليم: (واحدة عن يمينه ثم يرد وجهه عن يساره، ويكره للإمام أن يقعد بعد التسليم حتى ينحرف أن يقوم من مقعده)[١١٩]، وقال أبو غانم الخراساني (سألت الربيع بن حبيب: كيف يسلم الرجل إذا أراد أن ينصرف من صلاته؟.

قال: سألت عن ذلك أبا عبيدة فقال: إذا أراد أن ينصرف قال عن يمينه: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" تسليمة واحدة، ثم ينصرف بوجهه عن يساره حتى يرى من على يساره خده.

قال أبو المؤرج: هذا إذا كان إماماً لغيره، وأما إذا كان إماماً لنفسه فأتم صلاته فأراد أن ينصرف يسلّم تسليمة واحدة تلقاء وجهه أمامه، ثم ينصرف على أي جهة أحب.

قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: وإن سلّم عن يمينه وعن شماله أجزأه. وقال: حسن جميل. وإن سلّم واحدة عن يمينه ثم ينصرف بوجهه حتى لا يرى من على يساره خده، ثم ينصرف على أي جهة أحب فليفعل.

قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: إذا سلّم الإمام فلينحرف عن مجلسه لأنه لا ينبغي لأحد أن يقوم حتى ينحرف الإمام ويقوم، وكان يقال: إن صلاة الجماعة تزيد على صلاة الرجل وحده خمسة وعشرين ضعفاً)[١٢٠].

وروى (ضمام عن يحيى قال: صلى جابر بن زيد على جنازة، فسلم تسليمة واحدة أولها عن يمينه وآخرها عن يساره)[١٢١].

---

١١٩ الديوان المعروض (من قول قتادة ج١ ص ٢٣).

١٢٠ المدونة الصغرى ج١ ص ٣٦– ٣٧، بشر بن غانم الخراساني.

١٢١ آثار الربيع ج١ ص ٦١– ٦٢، عبدالملك بن صفرة.

يتبين من كل هذه النصوص عن جابر بن زيد وأبي عبيدة والربيع وتلاميذه وأبي المؤرج أنهم كانوا يعتمدون في عملهم وفتاويهم على تسليمة واحدة للخروج من الصلاة، وهي التي شكلت السنة العملية لديهم، حيث (أجمع العلماء الذين يعتد بهم على أنه لا يجب إلا تسليمة واحدة)[١٢٢]، ولم يروا أية إلزامية لهم في روايات أخرى ترى سنية التسليمتين، لذا لم تكن من عملهم وشعارهم، قال أبو الحواري: (من سلم تسليمتين فلا فساد عليه، ولا يكفر بذلك وليس هو من فعل المسلمين)[١٢٣].

لذا لم يرووا في مجموعاتهم الحديثية سوى حديث واحد في ذلك، هو ما رواه الإمام الربيع (٢٢٣): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن علي ابن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تحريم الصلاة التكبير وتحليلها التسليم).

فالتسليم هو المطلوب، وأقل ما يخرج به المصلي من صلاته هي تسليمة واحدة وهي القدر المتفق عليه، وهو الذي نقله جيل التابعين وتابعي التابعين من فقهاء المدرسة الجابرية، أما انفراد مجموعات حديثية أخرى بأحاديث التسليمتين فلم تكن بالنسبة لهم "سنة متبعة" يلزمهم العمل بها، فالصلاة أمر تعبدي وصل للناس جميعاً لا ينفرد فيه زيد على عمرو بشيء، وليست فيه خبايا مدفونة تحت ثلوج سيبيريا وبلاد الاسكيمو، فأمر الصلاة من أولها إلى آخرها (نقلته الأمة عن النبي صلى الله عليه وسلم عملاً وقولاً)[١٢٤] لا ينفرد فيه أحد عن أحد بشيء.

---

١٢٢ شرح النووي على صحيح مسلم ج ٥ ص٨٣ .

١٢٣ كتاب الضياء ج٥ ص ٢١٩، سلمة بن مسلم العوتبي.

١٢٤ كتاب الجامع ج١ ص ٥١٢، عبدالله بن محمد بن بركة.

حديث الآحاد منسوباً إلى الراوي

وكذلك نلحظ أمراً آخر يحتاج منا إلى النظر والفحص، فقد وجدنا أنهم يعبرون عن روايات آحاد شائعة في عصرهم بـ (قال الفقهاء) أو (يروون عن فقهائهم)، ومن أمثلة ذلك:

١ . قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج: هل في الصلاة قنوت؟ .

قال: حدثني أبو عبيدة أنه سأل جابر بن زيد عن ذلك فقال: الصلاة كلها قنوت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآيِماً﴾ الزمر:٩ فالصلاة كلها قنوت.

قلت: يا أبا الشعثاء؛ ليس عن هذا أسألك، ولكن إنما أسألك عن الذي يفعل هؤلاء بعد الركوع، يدعون ويهللون وهم قيام)[١٢٥] .

٢ . قال أبو غانم في المدونة: (قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: الصلاة على الميت في الحضر والسفر واحدة، وعلى الصغير والكبير سواء .

قلت: أبلغك أنه يقال في التكبيرات الأربع على الميت كما يقول هؤلاء ويروونه عن فقهائهم؟ .

قال: وما هو؟ .

قلت: يقولون: ليس فيهن قراءة إلا دعاء معروف، يقولون: اللهم اغفر لحينا وميتنا وذكورنا وإناثنا وشاهدنا وغائبنا، اللهم من توفيته منا فتوفه على الإسلام، ومن

١٢٥ المدونة الصغرى ج١ ص ٦٧، بشر بن غانم الخراساني. ومن أحاديث القنوت في الصلاة المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ انظر البخاري (٩٥٦)، مسلم (٦٧٧) وغيرهم.

أبقيته منا فابقه على الإيمان. يقولون ذلك في ثلاث تكبيرات اللاتي يلين التكبيرة الأولى، يقرأون في التكبيرة الأولى وحدها)[١٢٦].

٣. قال أبو غانم في المدونة: (وسألته (=أبا المؤرج): أيتوضأ الرجل من الإناء الذي ولغ فيه الكلب أو السبع؟.

قال: ليغسله، ثم ليتوضأ فيه، ولا يتوضأ فيه حتى يغسله.

قلت: أتوقت في غسله ثلاثاً أو سبعاً كما قال هؤلاء؟.

قال: لا أوقت في ذلك وقتاً دون حسن التنقي والغسل، فإن أنقاه في مرة واحدة فليتوضأ فيه)[١٢٧].

٤. قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج: أيُسقى الصبيُ البول؟

قال: لا.

وسألت عن شرب أبوال البهائم كلها؟

فقال: سألت عن ذلك أبا عبيدة فقال: لا يحل شرب أبوال البهائم كلها.

وقال وائل ومحبوب عن الربيع: كل ما حل أكل لحمه فلا بأس ببوله والشراب منه والتداوي به.

قال وقال عبدالله بن عبدالعزيز: هذا غلط؛ لا يؤخذ بهذا القول، وشرب أبوال البهائم كلها لا يحل ولا التداوي بشيء منها)[١٢٨].

---

١٢٦ المرجع السابق ج١ ص ١٢١. وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند الترمذي (١٠٢٦)، ابن ماجه (١٤٩٥) (١٤٩٦).

١٢٧ المرجع السابق ج١ ص ١٧. وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند الربيع (١٥٥) (١٥٦) (١٦٧)، مسلم (٢٧٩) (٢٨٠)، الترمذي (٩١) وغيرهم.

٥ . قال أبو غانم : (سألت أبا المؤرج عن رجل يموت له الإبل والبقر والغنم فيدبغ جلودها ؛ أينتفع بها؟

قال : لا بأس بذلك، حدثنا أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أنه قال : إيما إهاب دبغ فقد طهر .

قال : وكذلك قال ابن عبدالعزيز)[١٢٩] .

٦ . قال أبو غانم : (سألت أبا المؤرج وأبا سعيد عبدالله بن عبدالعزيز وأخبرني محبوب عن الربيع عن قول الناس "أفطر الحاجم والمحجوم" ؟ .

قالوا جميعاً : إنما يكره ذلك مخافة أن يضعف، فإن لم يخف ضعفاً فليحتجم)[١٣٠] .

٧ . قال أبو غانم في المدونة : (إن هؤلاء يقولون ويروون عن فقهائهم : إن الرجل إذا أصبح ولم يحدث نفسه بالصيام فهو بالخيار إلى ارتفاع النهار، فإن بدا له الصيام وأتم كتب له ما مضى في يومه)[١٣١] .

---

١٢٨ المرجع السابق ج٢ ص ١٤٥ . وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند الربيع (١٤٨)، البخاري (٢٣١) وغيرهم .

١٢٩ المرجع السابق ج٢ ص ١٢٦ ، المرجع السابق ج٢ ص ١٤٣ . وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند الربيع (٣٩٢) ومسلم (٣٦٦) والنسائي في السنن الكبرى (٤٥٦٧) والترمذي (١٧٢٨) وآخرون من طريق ابن عباس قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ميتة كانت قد أعطيتها مولاة ميمونة، فقال : (هلا انتفعتم بجلدها) قيل يا رسول الله : إنها ميتة . قال : (إنما حرم أكلها، وأيما إهاب دبغ فقط طهر) .

١٣٠ المرجع السابق ج١ ص ١٦٤ . وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند ابن حبان (٣٥٣٢)، الترمذي (٧٧٤)، أبو داود (٢٣٦٦) وغيرهم .

١٣١ المرجع السابق ج١ ص ١٦٧ . وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم (١١٥٤)، الترمذي (٧٣٣)، أبو داود (٢٤٥٥) وغيرهم .

٨. (قلت (=أبو غانم): إن أناساً يقولون: إنه إن أصبح ولم ينو الصيام من الليل فهو بالخيار ما لم ينتصف النهار، ويروون ذلك عن أحد من الفقهاء.

قال (=أبو المؤرج): لسنا نأخذ بذلك ولا نعتمد عليه)[١٣٢].

٩. (قلت: إن أناساً من قومنا يروون عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "أفطر الحاجم والمحجوم".

قال: ليس فيما قال علي شيء، والأمر عندنا على ما وصفت لك عن النبي صلى الله عليه وسلم)[١٣٣].

١٠. قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج وابن عبدالعزيز: عن صيام يوم الجمعة ويوم عرفة.

قالا: حسن جميل.

قلت لهما: إن رجالاً يكرهونهما من أجل أنهما عيدان.

قال أبو المؤرج: سألت عن ذلك أبا عبيدة فقال: إن أفضل ما صمت فيه يوم الجمعة ويوم عرفة، إلا أن يكون يوم الجمعة التي يكره الصيام فيها.

قلت: وما هي يا أبا عبيدة؟.

قال: يوم الفطر والأضحى، وأيام التشريق، ويوم الشك)[١٣٤].

---

١٣٢ الديوان المعروض، كتاب الصيام ص ٤٠. وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم (١١٥٤)، الترمذي (٧٣٣)، أبو داود (٢٤٥٥) وغيرهم.

١٣٣ المرجع السابق ص ٤٦. وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند ابن حبان (٣٥٣٢)، الترمذي (٧٧٤)، أبو داود (٢٣٦٦) وغيرهم.

١٣٤ المدونة الصغرى ج١ ص ١٦٨، بشر بن غانم الخراساني. وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم (١١٤٤) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون

١١ . قال أبو غانم في المدونة: (إن هؤلاء يقولون ويروون عن فقهائهم أن الرجل إذا أصبح ولم يحدث نفسه بالصيام فهو بالخيار إلى ارتفاع النهار، فإن بدا له الصيام وأتم كتب له ما مضى في يومه وما بقي صياماً تاماً، وإن بدا له الصيام ولم يذق شيئاً حتى ينتصف النهار أو حتى تصفر الشمس، فإنما يكتب له من صيامه قدر ما بقي من يومه. قال (=أبو المؤرج): لسنا نأخذ بذلك من قولهم، ولا نأمر به أحداً، غير أن أصحابنا الذين نأخذ عنهم ونعتمد عليهم قالوا: إن الصيام من الليل إلى الليل، فمن أصبح صائماً لم يفطر ومن أصبح مفطراً لم يصم، وكذلك الصوم عندنا، والله أعلم بقول من ذكرت)[١٣٥].

١٥ . قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج: عمن وطئ القبور؟

قال: كان أبو عبيدة يكره وطأها، قال: وقال عبدالله بن عبدالعزيز: بلغنا عن عبدالله بن مسعود أنه قال: لأن أطأ جمرة أحب إليَّ من أن أطأ قبراً متعمداً)[١٣٦].

١٦ . قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج وابن عبدالعزيز: عن بيع الخمر؟

فقالا: لا يصلح، وهو حرام.

في صوم يصومه أحدكم)، وروى البخاري (١٨٨٤) ومسلم (١١٤٤) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يصومن أحدكم يوم الجمعة، إلا أن يصوم يوماً قبله، أو يوماً بعده).

١٣٥ المرجع السابق ج١ ص ١٦٧ . وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم (١١٥٤) من طريق أم المؤمنين عائشة قالت: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فقال هل عندكم شيء؟ فقلنا: لا، قال: "فإني إذن صائم".

١٣٦ المرجع السابق ج٢ ص ١٤٣ . وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم (٩٧١) من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر).

قال: وقال أبو المؤرج: حدثني أبو عبيدة رفع الحديث إلى ابن عباس أنه قال: إن الله تبارك وتعالى حرم على اليهود الشحوم فلم يأكلوها فباعوها، وأكلوا أثمانها، وإنه لا يحل الخمر ولا بيعه ولا التداوي به)[١٣٧].

١٧. قال أبو غانم في المدونة: (قلت: أوَ ليس قد قيل من لغا فلا جمعة له؟

قال أبو المؤرج: قد جاء في ذلك أثر عن الفقهاء، وتفسير ذلك في رأينا والله أعلم أنه لا جمعة له؛ أي ما ذكر من فضل الجمعة فلا فضل له في ذلك، والله أعلم بتحقيق التفسير، وأما أن ينقض ذلك جمعته فلا نقول ذلك)[١٣٨].

١٨. قال أبو غانم في المدونة: (قلت لأبي المؤرج: ما أشد ما بلغك؟. قال: بلغنا عن عبدالله بن مسعود أنه قال: ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعاء الجاهلية)[١٣٩].

---

١٣٧ المرجع السابق ج١ ص ١٤٣. وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند البخاري (٢١٢١) ومسلم (١٥٨١) من طريق جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح وهو بمكة: (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام). فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة، فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: (لا هو حرام). ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (قاتل الله اليهود، إن الله عز وجل لما حرم عليهم شحومها أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه).

١٣٨ المرجع السابق ج١ ص ٥٦، وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند البخاري (٨٩٢) والترمذي (٥١٢) وآخرين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قال يوم الجمعة والإمام يخطب انصت فقد لغا). قال الترمذي: وفي الباب عن ابن أبي أوفى وجابر بن عبد الله.

١٣٩ المرجع السابق ج٢ ص ١٤٧، وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم عند البخاري (١٢٣٥) ومسلم (١٠٣) عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية).

ومن واقع الدراسة للأجواء التاريخية للتدوين الروائي، ودراسة آثار المدرسة الإباضية الأولى وقراءتها قراءة متأنية، نطرح التفسيرات التالية:

– التفسير الأول: أن فقهاء المدرسة الجابرية لم يطلعوا عليها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، إنما رووها آراء للفقهاء والعلماء في عصرهم.

– التفسير الثاني: أنه لم يكن يُعرَف رفعها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في عصرهم، بل كانت تنسب إلى الصحابة والتابعين، والرفع تم في فترات لاحقة بفعل عوامل متعددة كالوهم والخطأ والنسيان.

– التفسير الثالث: أن التعبير عن تلك الروايات الآحادية التي ينفرد بها القليل من الرواة بنسبتها للفقهاء هو تعبير يقصد من ورائه أنها لا تشكل بمفردها مرجعية مستقلة تعبر عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل تعبر عن رأي من وصلت إليه ووثق بها وعول عليها.

- **التفسير الأول:**

وهذا التفسير يعكر على صفائه أمران:

– أن تلك الروايات كانت شائعة وذائعة، ومن الصعب جداً أن يكون عدم اطلاعهم عليها بهذه الكثرة والوفرة، ومن المعلوم أن المدرسة الإباضية الأولى كانت بالبصرة وهي مستقر كثير من تلك المدارس الفقهية الأخرى، فيصعب جداً القول بهذا الرأي.

– أن بعض تلك الروايات هي من ضمن مجموعات الأحاديث الإباضية، التي تداولوها فيما بينهم.

- **التفسير الثاني:**

وهو تفسير له وجاهته، ويعترف المحدثون بحصوله ، ومن المؤسف أن بعضهم (أدت بهم الرغبة في أن يعثروا على أكبر قدر ممكن من الأحاديث النبوية، إلى أن يجعلوا كثيراً من الأقوال الموقوفة في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورغم احتمال أن تكون هذه الأقوال إسرائيلية المصدر، فقد رفعها بعضهم من قول صحابي إلى حديث نبوي)[١٤٠] .

(وليس هذا افتراضاً مجرداً بل هو افتراض وواقع، وقد صرح بسر بن سعيد بهذا محذراً، حيث قال: "اتقوا الله وتَحفظُوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة، فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب الأحبار، ثم يقوم، فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[١٤١] .

لكن يصعب القول بأنه يشكل هذه الظاهرة بمجموعها للأسباب التالية:

– أن بعض تلك الروايات من مجموعات الأحاديث الإباضية، والرواة الإباضيون تداولوها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدفع هذا الاحتمال بشدة في المجموع العام.

– أن القول بذلك لا بد أن يدعم بأدلة تاريخية وتشريعية تدل على هذا الاحتمال، لا بمحض الرغبة في ذلك، ونحن لا ننكر أخبار الآخرين (فيما تفردوا به دون أصحابنا من غير أن نعلم فسادها، لأنا قد علمنا فساد بعضها، ويجوز أن يكون ما لم يعلم بفساده أن يكون صحيحاً، وإن لم ينقلها معهم أصحابنا لما يجوز أن يكون البعض من

---

١٤٠ منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي ص ٢٢١، صلاح الدين الأدلبي.

١٤١ المرجع السابق ص ٩٥.

الصحابة علم بالخبر أو بعض الأخبار، ولم يستقص في الكل، علم ذلك الخبر ولم يشتهر بينهم، وقد تختلف الأخبار بيننا وبينهم لتأويلها أو لانقطاع بعض الأخبار أو اتصالها وقلة حفظنا فيها، وقد كان بعض الصحابة يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو الرجل يصل إلى الصحابي، وقد ذكر بعض الخبر، ومنهم من ينسى من الخبر شيئاً فيغير معناه أو يزيد فيه، ومنها ما ينقل على وجه القصص أو لفائدة الأدب أو لغيره، والصحيح منها ما أيده العمل أو وقع عليه الإجماع لذلك، وكذلك اختلفت الأخبار وأحكامها والله أعلم)[١٤٢].

• **التفسير الثالث:**

وهو أن الروايات الآحادية التي تصل لبعض الناس ولا تصل للآخرين؛ لا تشكل بمفردها مرجعية مستقلة تعبر عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل تعبر عن رأي من وصلت إليه ووثق بها وعول عليها، يقول أبو يعقوب الوارجلاني (والأصل في سنة ظهرت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تعتد قولة من أقاويل المسلمين)[١٤٣].

ويقول أبو المؤرج: (ومن أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ناسخ ومنسوخ، والقرآن قد نسخ بعضه بعضاً، وقد فعل النبي عليه الصلاة والسلام أشياء مثل هذا ورجع عنها، وقد فعل أصحابه مثل ذلك أشياء كثيرة ثم رجعوا عنها، وقد قال السلف من أئمة المسلمين أقاويل كثيرة ثم رجعوا عن ذلك، وقالوا بغير أقاويلهم ثم رجعوا إلى بعض أقاويلهم وذلك كله اختلاف منهم في الرأي، ولم يكن اختلاف في كتاب ولا سنة ولا

---

١٤٢ كتاب الجامع ج١ ص ٥٤٧، عبدالله بن محمد بن بركة.

١٤٣ العدل والإنصاف ج٢ ص ٩، يوسف بن إبراهيم الوارجلاني.

أثر مجتمع عليه، إلا اختلافهم في الرأي)[144]، والرأي الذي عناه أبو المؤرج تدخل فيه مرويات الآحاد (=خبر الخاصة) عاملاً من عوامل توليده كما هو الظاهر من مداولاتهم الفقهية في المدونة وغيرها من مصنفاتهم الفقهية، فلم يكن اختلاف في كتاب ولا سنة ولا أثر مجتمع عليه.

وتظهر هذه المعاني في هذه المداولة الفقهية بين ابن عبدالعزيز وأبي غانم الخراساني في العمرى والرقبى

(قلت: أخبرني عن العُمْرَى والرُقْبَى والسُكْنى.

قال ابن عبدالعزيز: إن كان معنى العُمْرَى والرُقْبَى والسُكْنى من العمر، أن يقول الرجل قد عمرتك هذه الدار حياتك فهي لك عمرى ولك رقبى ولك سكنى على إنها لحياتك.

قال أبو عبيدة رفع الحديث إلى جابر بن زيد إلى ابن عباس أنه قال: من عمر شيئاً حياته فهو له حياته ولورثته من بعد مماته.

قال ابن عبدالعزيز: وكان غيره من الفقهاء لا يجيز ذلك ولا يراه لورثته من بعده، وكان إبراهيم ممن لا يجيز ذلك، ويقول في العمرى إذا مات الذي عمرها فهي راجعة إلا أن يقول هي لك ولعقبك، وقول إبراهيم أعدل عندي.

قلت: رأيتك تأخذ بقول إبراهيم في كثير من المسائل وتختار قوله على قول من هو أكبر منه وأفضل.

قال: ومن هو؟

قلت: أبو عبيدة.

---

١٤٤ المدونة الصغرى ج١ ص ٤٨، بشر بن غانم الخراساني.

قال: الانصاف في الحق قبول الحق ممن جاء به، والأمر القوي الذي لا دخل فيه ولا خلل ليس كغيره مما يدخل فيه الوهن والضعف.

قلت: وأي قوة أقوى من قول أبي عبيدة وغيره من أصحابنا حيث قالوا: من عمر أرضاً فهي له ولعقبه من بعده.

قال: وأي قوة في هذا؟.

قلت: لأن سبيل العُمْرَى سبيل المواريث.

قال: ليس لك في هذا من القوة شيء إلا أن تقول هكذا قالوا؛ وأما القياس فلا تتكلم به عند أهله فيسخرون منك ويتبين ضعف مقالتك.

قلت: وكيف يكون هذا وهناً وضعفاً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر شيئاً فهو له حياته وبعد مماته؟.

قال فقال لي: يا عاجز لو اتفق الناس على هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخالفه أحد من الفقهاء، ولم يجاوزه بالقياس وبالرغبة عنه؛ لأن كل ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لأحد أن يخالف فيه.

قلت: وأي قوة أعجبتك من قول إبراهيم في هذا الذي كان رأياً منه ولم يكن أمراً مجتمعاً عليه؟.

قال: أعجبني أنه يقول إنما أعطيتها لرجل حياته ولم يجعلها لعقبه من بعده، فكيف يكون لهم ما لم أجعل لهم إليه سبيلاً بعطاء، وإنما أعطيته له على جهة العارية، والدليل على قوله إنها عارية استثناء أنها لك حياتك ولم يجعلها له بعد مماته، فكيف يكون هذا عدلاً عندك أن يجعلها بإذن له فيها)[١٤٥].

---

١٤٥ المرجع السابق ج١ ص ٣٤٧–٣٤٨.

وهذا النهج هو نهج الصحابة رضي الله عنهم، فلم يكونوا يقبلون أي رواية من روايات بعضهم البعض دون تمحيص ودون عرض على الأصول، فكان القبول بعد التثبت والتدقيق والفحص، وهو أيضاً النهج البارز في المدرسة الإباضية الأولى التي تشكلت في البصرة في عموم مداولاتها الفقهية، (إن بعض أحاديث الآحاد تكون حجة عند من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها، ولا تكون حجة على غيره يلزم العمل بها، ولذلك لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يكتبون جميع ما سمعوه من الأحاديث ويدعون إليها، مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به، وبالسنة العملية المتبعة المبينة له)[١٤٦].

فعلى هذا يمكن تعريف حديث الآحاد:

(هو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق الأفراد القليلين ولم يكن من الشرع المُبلَغ للجميع المُدعم بالعمل المتواصل من الأمة).

ويلاحظ على هذا التعريف:

(١) أنه يعتمد في الدرجة الأولى على كون الرواية من الشرع غير المبلغ للكافة (=خبر الخاصة)، وليس بالضرورة اشتهارها وكثرة رواتها لدى فئة معينة كمذهب فقهي أو حزب سياسي[١٤٧].

(٢) اعتبار الدعم العملي للرواية في اعتبار قبولها، فالظهور المتأخر للروايات وعدم قيام عمل عليها مؤذن بضرورة الفحص والتمحيص الدقيق والعرض على الأصول،

---

١٤٦ تفسير المنار ج١ ص ١٣٨، محمد رشيد رضا.

١٤٧ توجد المئات من الروايات في مجموعات أحاديث مدرسة إسلامية معينة، بينما تخلو منها مجموعات أحاديث أخرى عند مدارس إسلامية أخرى، وعلى سبيل المثال لا توجد في مجموعات الأحاديث في المدرسة الإباضية أية أحاديث عن المهدي المنتظر، بينما تكثر الروايات عنه في مجموعات الأحاديث الشيعية والسنية على السواء.

(فلذلك تجب الأسانيد والبحث عن صحتها ثم التنازع في تأويلها إذا صحت بنقلها، فإذا اختلفوا في حكمها كان مرجعهم إلى الكتاب)[١٤٨] .

يقول ابن بركة: (وأحكام الشريعة كلها مأخوذة من طريق واحد وأصل واحد، وهو كتاب رب العالمين، فهو قوله ﴿اتبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف:٣، والسنة أيضاً مأخوذة من الكتاب قال جل ذكره ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ النساء:٥٩ وقال ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء:٥٩ وقال جل ذكره ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور:٦٣ وقال ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾ النساء:٨٠ وقال ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء:٦٥ وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم:٣-٤ والسنة عمل بكتاب الله وبه وجب اتباعها، والإجماع أيضاً عمل بكتاب الله وبالسنة التي هي من كتاب الله، لأن الإجماع توقيف والتوقيف لا يكون إلا من الرسول صلى الله عليه وسلم)[١٤٩] .

من هذا النص عن ابن بركة يتبين أنه يرى أن الأصل الأصيل للدين هو كتاب الله وأن (أحكام الشريعة كلها مأخوذة من طريق واحد وأصل واحد، وهو كتاب رب العالمين)

---

١٤٨ كتاب الجامع ج١ ص ٢٨٠، عبدالله بن محمد بن بركة.

١٤٩ المرجع السابق ج١ ص٢٨٠.

والسنة كذلك هي التطبيق العملي لكتاب الله تعالى لأن (السنة عمل بكتاب الله وبه وجب اتباعها).

ثم يقول ابن بركة: (والسنة أيضاً على ضربين:

فسنة قد اجتُمع عليها، وقد استغني بالإجماع عن طلب صحتها.

وسنة مختلف فيها، ولم يبلغ الكل علمها، وهي التي يقع التنازع بين الناس في صحتها)[١٥٠].

يقسم ابن بركة السنة (=بحسب اصطلاحه) هنا إلى قسمين، والذي يظهر أن هذا التقسيم بحسب طريق الورود:

– **سنة مجمع عليها** (وقد استغني بالإجماع عن طلب صحتها)، وهذه تشمل ما تواتر من العمليات من سنته صلى الله عليه وسلم، وهي توقيف (لأن الإجماع توقيف، والتوقيف لا يكون إلا من الرسول صلى الله عليه وسلم). ويبدو من مصطلح ابن بركة أنه يعبر عن السنة المتواترة بالسنة التي قد اجتمع عليها، إذ ما تواتر من العمليات وبعض الأقوال عن النبي صلى الله عليه هو القدر المجمع عليه من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وبلغ الكل علمها.

– **سنة مختلف فيها**، ولم يبلغ الكل علمها، وهي التي يقع التنازع بين الناس في صحتها)، وهي المعروفة بأخبار الآحاد ("الأحاديث/الروايات" كما هو مصطلح المدرسة الجابرية كما ظهر من الاستقراء)، وهي التي لم يبلغ الكل علمها، لذا فهو يقول إن (الصحيح منها ما أيده العمل أو وقع عليه الإجماع لذلك)[١٥١].

---

١٥٠ المرجع السابق ج١ ص٢٨٠.

١٥١ المرجع السابق ج١ ص ٥٤٧.

الجرح والتعديل

الجرح والتعديل أو علم الرجال من العلوم التي نشأت في أكناف مدرسة أهل الحديث، ويرجع بعض الباحثين نشأته الأولى إلى عصر التابعين، روى مسلم عن ابن سيرين قال: (لم يكونوا يسألون عن الإسناد؛ فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم. فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)[١٥٢].

موضوع الجرح والتعديل

يبحث الجرح والتعديل معرفة أحوال الرواة تعديلاً وتجريحاً، وقد اشتغل بهذا العلم عدد من كبار المحدثين كشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، ويحيى بن سعيد القطان (ت ١٩٨هـ)، وعبدالرحمن بن مهدي (ت ١٩٨هـ)، ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ)، وعلي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤٢هـ) الذي يعد من أكبر المنظرين لهذه المدرسة، ومحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، ومحمد بن يحيى الذهلي (ت ٢٥٨هـ)، ومسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، وأبي زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ)، وأبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، ومحمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) وغيرهم.

وأما دوافع هذا العمل الضخم الذي فاق التصورات وعُد من العلوم التي تميز بها المسلمون بها دون غيرهم من الأمم[١٥٣]؛ فيرجعها الكثير من الباحثين إلى:

---

١٥٢ صحيح مسلم ج١ ص ١٥.

١٥٣ المنهج المقترح في فهم المصطلح ص ٣٥، حاتم بن عارف العوني.

١ . الرغبة في التوثق من حال الرواة من العدالة والضبط لما يروون خشية الكذب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد عبر عن هذا الصحابي الجليل ابن عباس عندما قال: (إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف)[١٥٤] ، ويروى أيضاً عن ابن سيرين قوله: (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)[١٥٥] .

٢ . ضبط تواريخ ولادة ووفاة الرواة وأوطانهم وأنسابهم حتى يتسنى معرفة المرسل والموقوف والمتصل وغير المتصل من الأسانيد، وكذا معرفة الناسخ من المنسوخ.

وقد ألفت في هذا العلم مصنفات كثيرة منها: "التاريخ الكبير" لمحمد بن إسماعيل البخاري، و"الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم الرازي، و"الكنى والأسماء" لمسلم بن الحجاج، و"العلل ومعرفة الرجال" لأحمد بن حنبل، و"تاريخ ابن معين" برواية الدوري وغيرها كثير.

الجرح والتعديل بين القبول والتحفظ

يعد علم الجرح والتعديل أو علم الرجال من الفروع المهمة في منظومة علم الحديث، وقد رأى كثير من الباحثين والأكاديميين أن الحكم على الأحاديث والروايات لدى المحدثين يعتمد في معظمه على منهج الجرح والتعديل (=الإسناد)، لذا فالفقه الناشئ عند مدرسة أهل الحديث يعتمد بالدرجة الأولى على الإسناد الروائي.

---

١٥٤ صحيح مسلم ج١ ص ١٣ .

١٥٥ المرجع السابق ج١ ص ١٤ .

ونستطيع القول كذلك إنه بناء متكامل أنتجته عقلية أهل الحديث، وهم النواة الصلبة للدول والحكومات المتعاقبة التي حكمت العالم الإسلامي لقرون طويلة (أمويين، عباسيين، عثمانيين)، وهذا الانفراد بتقعيد هذا المنهج من قبل مدرسة أهل الحديث كما أن له إيجابياته؛ فإن له سلبياته أيضاً، فقد أدت الرغبة لدى أهل الحديث في تهميش وإقصاء المدارس الإسلامية الأخرى إلى إضاعة التنوع والثراء الفكري الموجود لديها، كما أسهم ذلك أيضاً في عدم إجراء مراجعات للتصورات الذاتية من خلال البحث الحر والنظر والحوار، مما جعل كثيراً من المفاهيم والتصورات غير المنضبطة تعيش لمئات السنين.

والمشكلة أن القضية لم تأخذ بعداً علمياً فحسب؛ بل تدخلت السياسة فيها كثيراً، فالمدارس الإسلامية الأخرى كانت لها مواقف سياسية معارضة للسلطات القائمة آنذاك، مما جعلها عرضة للملاحقة والمطاردة على الصعيدين: السياسي والعلمي، ومع اكتمال منظومة التدوين الروائي كانت الكثير من المدارس الإسلامية المعارضة للحكومات آنذاك قد صنفت ضمن الفرق المبتدعة الخارجة عن النطاق الإسلامي "الرسمي"، فعمرو بن عبيد المعتزلي لم يشفع له زهده وورعه فهو (عمرو بن عبيد الضال، عمرو بن عبيد المبتدع)[١٥٦]. وعلماء الإباضية تم تجاهل أئمتهم كأبي عبيدة والربيع بن حبيب في كتب الجرح والتعديل، ورغم أن بعض الباحثين يرى أنهم قد ذكروا عرضاً في بعضها، إلا أن آخرين يرون أنهم ليسوا أئمة الإباضية، فهناك تشابه

---

١٥٦ تاريخ مدينة دمشق ج٤١ ص٢٨٢ ، علي بن الحسن بن عساكر.

في الأسماء بينهم وبين غيرهم[١٥٧] ، ومن ذُكِروا وتُرِجم لهم - وما أقلهم - : إما أن لا يذكر انتماؤهم أو يتم التحذير منهم رغم الاعتراف بصدقهم وأمانتهم، ومن هؤلاء :

١ . أبو نوح صالح الدهان : قال عنه علي بن المديني : (ضعيف يرى رأي الأباضية)[١٥٨] ، فضعفه لا لأجل روايته، بل لأجل انتمائه السياسي والفقهي، فقد كانوا ينظرون إليه على أنه (كان يرضى بقول الخوارج ؛ وذلك للزومه جابر بن زيد)[١٥٩] .

٢ . الوليد بن كثير : قال عنه أبو داود : (ثقة إلا أنه إباضي)[١٦٠] .

٣ . داود بن الحصين : (قال النسائي ليس به بأس، وقال ابن عدي صالح الحديث إذا روى عنه ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال كان يذهب مذهب الشراة، وكل من ترك حديثه على الإطلاق وهم ؛ لأنه لم يكن بداعية)[١٦١] .

وكان أحمد بن حنبل إمام هذه المدرسة بلا منازع يحرّم على أتباعه الأخذ من أصحاب أبي حنيفة حيث يقول عنهم : (أصحاب أبي حنيفة ليس ينبغي أن يروى عنهم شيء)[١٦٢] ، بل إن أبا حنيفة نفسه وهو الفقيه المعروف عد من الضعفاء والمتروكين، فقد قال عنه سفيان الثوري إنه (ليس بثقة، وقال يحيى بن معين : لا يكتب حديثه وقال مرة أخرى : هو أنبل من أن يكذب، وقال النسائي : ليس بالقوي في الحديث وهو كثير الغلط والخطأ على قلة روايته، وقال النضر بن شميل هو متروك الحديث، وقال ابن

---

١٥٧ راجع في ذلك كتاب "رواية الحديث عند الإباضية"، صالح بن أحمد البوسعيدي .

١٥٨ تهذيب التهذيب ج٤ ص٣٤٠ ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

١٥٩ الكامل في ضعفاء الرجال ج٤ ص٧١ ، عبدالله بن عدي .

١٦٠ تهذيب التهذيب ج١١ ص١٣٠ ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

١٦١ المرجع السابق ج٣ ص١٥٧ .

١٦٢ ضعفاء العقيلي ج١ص٢٣ ، محمد بن عمر العقيلي .

عدي عامة ما يرويه غلط وتصحيف وزيادات، وله أحاديث صالحة)[١٦٣]، وكل ذلك لأنه (ليس من أهل الحديث)[١٦٤]، وبعضهم كنعيم بن حماد شيخ البخاري الذي (وثقه أحمد ووثقه يحيى)[١٦٥] كان (يضع الحديث في تقوية السنة وحكايات مزورة في ثلب أبي حنيفة كلها كذب)[١٦٦] وهذا غيض من فيض، والأمثلة على ذلك تزخر بها كتب الجرح والتعديل[١٦٧].

المراجعات

رغم تفرد مدرسة أهل الحديث بوضع مناهج الجرح والتعديل (=الإسناد) إلا أنه كتب لها الذيوع والانتشار بين المدارس الإسلامية الأخرى كمدارس الرأي بفعل عوامل سياسية وعلمية[١٦٨]، وأما ما قدمته المدارس الأخرى فقد طوته أيادي النسيان، وصار من تراث الماضي، فمثلاً ما قاله الجاحظ (ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤونة، ولكن أكثر الروايات مجردة، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان)[١٦٩] قد ضاع أدراج الرياح مقابل كلام يحيى

---

١٦٣ الضعفاء والمتروكين ج٣ ص١٦٣، أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي.

١٦٤ المرجع السابق ج٣ ص ١٦٣.

١٦٥ المرجع السابق ج٣ ص١٦٤.

١٦٦ المرجع السابق ج٣ ص ١٦٤.

١٦٧ انظر "قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث ص ٤٠–٤٤، زكريا بن خليفة المحرمي.

١٦٨ انظر "السلطة في الإسلام" عبدالجواد ياسين. و"إعمال العقل" لؤي صافي، و" القواعد الأصولية والفقهية وضوابطها" رضوان السيد.

١٦٩ الحيوان ج١ ص ١٦٦، عمرو بن بحر الجاحظ.

بن سعيد القطان (لا تنظروا إلى الحديث، ولكن انظروا إلى الإسناد فإن صح الإسناد وإلا فلا تغتروا بالحديث إذا لم يصح الإسناد)[١٧٠].

ولكن مع هذا وجدت هناك مراجعات مبكرة جداً لمنهج الجرح والتعديل تجدها (=رغم إهمالها) مبثوثة هنا وهناك، دعونا نستعرضها ونحاول تحليلها:

(١) قال أبو غانم في المدونة: (قلت لأبي المؤرج: إن هؤلاء يقولون ويروون عن عبدالله بن عمر أنه كان يقول: هذا بحر وتحته سبعة أبحر، وتحتها النيران، وكان ينهى عن الوضوء والاغتسال بماء البحر، وكان يقول: لأن أتيمم أحب إليّ من أن أغتسل من ماء البحر.

قال أبو المؤرج: لسنا نأخذ بهذا من حديث ابن عمر، وقد كان أبوه أمير المؤمنين رحمة الله عليه يقول بخلاف هذا القول، ويجيز الوضوء بماء البحر والاغتسال به من الجنابة)[١٧١].

- في هذا النص يؤكد الفقيه الإباضي أبو المؤرج على ضرورة تمحيص ما يروى، حتى ولو كان ثابتاً من جهة الإسناد عن كبار الصحابة كابن عمر، وفي جرأة وصراحة يقول: "لسنا نأخذ بهذا من حديث ابن عمر".

(٢) قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج: هل في الصلاة قنوت؟.

قال: حدثني أبو عبيدة أنه سأل جابر بن زيد عن ذلك فقال: الصلاة كلها قنوت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً﴾ الزمر ٩ فالصلاة كلها قنوت.

---

١٧٠ سير أعلام النبلاء ج٩ ص ١٨٨، محمد بن أحمد الذهبي.

١٧١ المدونة الصغرى ج١ ص ١٣٥– ١٣٦، بشر بن غانم الخراساني.

قلت: يا أبا الشعثاء؛ ليس عن هذا أسألك، ولكن إنما أسألك عن الذي يفعل هؤلاء بعد الركوع، يدعون ويهللون وهم قيام.

قال: هذا أمر محدث لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة)[١٧٢]. يؤكد الإمام جابر في هذا النص على مبدأ حماية السنن العملية من أن تطغى عليها مرويات الآحاد" هذا أمر محدث لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة"، وهو موقف جنّب المدرسة الجابرية الكثير من الدخيل في عالم الرواية.

(٣) قال الإمام جابر بن زيد: (كيف يمسح الرجل على خفيه والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء؟! والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم)[١٧٣].

- ينتقد الإمام جابر في هذا النص مبدأ قبول الرواية المخالفة للدلالات القرآنية.

(٤) قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج وأبا سعيد عبدالله بن عبدالعزيز، وأخبرني محبوب عن الربيع: عن قول الناس أفطر الحاجم والمحجوم.

قالوا جميعاً: إنما يكره ذلك للصائم مخافة أن يضعف، فإن لم يخف ضعفاً فليحتجم إن شاء)[١٧٤].

- الربيع وعبدالله بن عبدالعزيز وأبو المؤرج كلهم يوجهون حديث "أفطر الحاجم والمحجوم" توجيهاً معيناً وهو مخافة أن يضعف الصائم، وهو توجيه لم يذكر في متن الرواية، لكن أوجبه النظر في الدلالات الكلية الثاوية في نصوص الكتاب والسنة (لأن السنة في الصيام إنما نهوا عن الطعام والشراب وغشيان النساء، والحجامة ليس

---

١٧٢ المدونة الصغرى ج١ ص ٦٧.

١٧٣ كتاب الترتيب، مسند الربيع (١٢٥).

١٧٤ المدونة الصغرى ج١ ص ١٦٤، بشر بن غانم الخراساني.

بشيء من ذلك، إنما يمنع منها مخافة الضعف، فإن احتجم فقد تم صومه بهذا نأخذ وعليه نعتمد وهو قول أبي عبيدة والعامة من فقهائنا)[١٧٥] .

(٥) جاء في الديوان المعروض : (قلت : إن قومنا وبعضهم يقولون ويروون عن علي أنه قال : لا يقضي رمضان في العشرة؟

قال : أساءوا الرواية، ولقد كان علي لعمري يقول ذلك على غير ما قالوا ، إنما قال علي ذلك لئلا يؤخروا رمضان إلى العشرة، كذلك حدث عنه الحسن وإنما دعاه إلى ذلك لئلا يؤخر رمضان إلى العشرة، فهم يروون الرواية ولا يعرفون وجهها ولا معانيها ، والسنة أن رمضان فرض من الله، والعشرة صيامها تطوعاً فلا ينبغي لأحد أن يدع الفرض ويتطوع ، وليس صوم العشرة حتماً ، ولكن أيام الصوم فيها متضاعف، وأن العمل فيها مضعف إن شاء الله.

فهذا كله قولنا فبه نأخذ وعليه نعتمد وهو قول أبي عبيدة والعامة من فقهائنا)[١٧٦] .

• ينتقد أبو المؤرج ظاهرة الرواية التي لا تتقيد بفقه كليات الدين وثوابته اليقينية، وعاب على أقوام " يروون الرواية ولا يعرفون وجهها ولا معانيها" ، وعد ذلك من باب إساءة الرواية لا من إتقانها ؛ لأن (السنة أن رمضان فرض من الله، والعشرة صيامها تطوعاً فلا ينبغي لأحد أن يدع الفرض ويتطوع ، وليس صوم العشرة حتماً) والمقصود بالعشرة هنا الأيام الأولى من ذي الحجة.

---

١٧٥ الديوان المعروض (كتاب الصيام ص ٤٦) .

١٧٦ المرجع السابق ص ٤٧ . السائل هو أبو غانم الخراساني كما يظهر .

(٦) جاء في الديوان المعروض: (وقال قوم: لا يصام آخر يوم من شعبان، ورووا فيه حديثاً والله أعلم به: قالوا: إن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "لئن أفطر يوماً من رمضان أحبّ إليّ من أن أصوم آخر يوم من شعبان".

ولسنا نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول هذا، لأن صوم رمضان فريضة افترضها الله على النبي عليه الصلاة والسلام ولم يحرم عليه صوم شعبان أو آخر يوم منه.

حدثنا هارون بن اليماني في هذا الحديث أنه قال: حديث مقلوب، إنما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "لئن أصوم آخر من شعبان أحبّ إليّ من أن أفطر يوماً من رمضان")[177].

- يكرر أبو المؤرج انتقاده لظاهرة الرواية التي لا تتقيد بفقه كليات الدين وثوابته اليقينية، وينفي فيه أن ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم ما يخالف ذلك.

(٧) قال أبو غانم في المدونة: (سألت ابن عبدالعزيز: عن الدرهم بالدرهمين يداً بيد، وعن الرواية التي يروي هؤلاء عن النبي عليه السلام أن الدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، وهل هذه الرواية ثابتة أم لا؟ .

قال لي: ما كان يداً بيد فلا بأس بالزيادة فيه، و قد بلغنا عن البراء بن عازب أنه سأل النبي عليه السلام، وكان يشتري الذهب بالفضة، قال: يا نبي الله إنا نشري هذا التبر ونستزيد فيه. فقال النبي عليه السلام: "ما كان يداً بيد فلا بأس به، وإنما الربا في النظرة"، غير أن أبا سعيد الخدري لقي ابن عباس فقال: "يا ابن عباس صحبت النبي عليه السلام ما لم نصحبه وقرأت من القرآن ما لم نقرأه".

---

١٧٧ المرجع السابق ص ٢٨.

قال: ما قرأت إلا نحو ما قرأتم، وما أنا بأقدم من صحبة رسول الله منكم.
قال: فما الذي رواه الناس عنك في الصرف؟.
قال: فقال ابن عباس: حدثني أسامة بن زيد أن النبي عليه السلام قال: "لا بأس بالذهب والفضة اثنان بواحد يداً بيد، وإنما الربا في النظرة".
قال ابن عبدالعزيز: الرواية في ذلك تكثر منا ومنهم.
قلت: إن هؤلاء يقولون ويروون عن ابن عباس أنه رجع عن قوله هذا وقال الذهب بالذهب والفضة بالفضة مثلاً بمثل لا زيادة فيه ولا نقصان.
قال: في شهادتهم لك أن ابن عباس قاله كفاية على عدل ما في يدك، ولا يصدقوا في ادعائهم رجوع ابن عباس لموضوع النكير منهم لعيبهم هذا القول ورفضهم)[١٧٨].
هذا النص عن عبدالله بن عبدالعزيز يناقش فيه مسألة التفاضل في الجنس الواحد "عن الدرهم بالدرهمين يداً بيد"، ويسأل بشر بن غانم الخراساني ابن عبدالعزيز عن الرواية التي تروى في منع ذلك.
وهذه الرواية هي ما تداوله بعض الصحابة في منع ذلك، مثاله ما روي من بعد من طريق أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مِثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الوَرِق بالوَرِق إلا مِثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائباً بناجز)[١٧٩].
وقد أجاب ابن عبدالعزيز بما يعارض هذه الرواية مما رواه الناس عن (البراء بن عازب أنه سأل النبي عليه السلام، وكان يشتري الذهب بالفضة، قال: يا نبي الله إنا نشري

---

١٧٨ المدونة الصغرى ج٢ ص ١٨٢–١٨٣، بشر بن غانم الخراساني.
١٧٩ البخاري (٢٠٦٨)، مسلم (١٥٨٤).

هذا التبر ونستزيد فيه. فقال النبي عليه السلام: "ما كان يداً بيد فلا بأس به، وإنما الربا في النظرة")[١٨٠]، وبما روي كذلك عن ابن عباس (قال حدثني أسامة بن زيد أن النبي عليه السلام قال: "لا بأس بالذهب والفضة اثنان بواحد يداً بيد، وإنما الربا في النظرة").

ثم أعقب ذلك قوله: (الرواية في ذلك تكثر منا ومنهم)، وفيه إشارة واضحة إلى ما يعتري النقل الآحادي من التضارب والتعارض وما يولد ذلك من تزايد الحذف والبتر والزيادة والرواية بالمعنى وغيرها من العوارض الداخلية والخارجية الناشئة عن الطبيعة البشرية، لذا كان من اللازم إحاطة هذه المنطقة بسياج من الرد إلى الأصول الكلية والقواعد التشريعية التي تولدت عنها هذه الفروع.

وعبارة ابن عبدالعزيز (الرواية في ذلك تكثر منا ومنهم)، هي عبارة تنم عن فهم للحقول والبيئات المعرفية التي نشأت فيها الرواية، والتي لا تخرج عن نطاق الطبيعة الإنسانية بما تمثله من الخطأ والوهم والنسيان، بل والتعبير عن الفهم من خلال الرواية (=الرواية بالمعنى)، وضرب ابن عبدالعزيز على ذلك مثالاً بما يروونه من تراجع ابن عباس عن رأيه السابق في جواز بيع التفاضل إذا كان يداً بيد، فقال (في شهادتهم لك أن ابن عباس قاله كفاية على عدل ما في يدك، ولا يصدقوا في ادعائهم رجوع ابن عباس لموضوع النكير منهم لعيبهم هذا القول ورفضهم).

---

١٨٠ روى البخاري (١٩٥٥) عن أبي المنهال يقول: سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصرف فقال: (إن كان يداً بيد فلا بأس، وإن كان نساء فلا يصلح).

تطلع نحو المستقبل

مع بدايات النهضة الإسلامية المعاصرة والرغبة في رجوع الأمة لمكانتها اللائقة بها ؛ بدأت معها مراجعات للمناهج والأفكار التي تسببت في إعطاب عجلة التسارع الزمني للأمة، وقدمت في ذلك دراسات وبحوث بدأت بسيطة وخجولة ثم ترقت ونمت لتقدم مشروعات على درجة عالية من الرقي، والغريب أن هذه المراجعات تتم في الأجواء التي يهيمن عليها فكر مدرسة أهل الحديث، ولكن يبدو أن الإخفاقات المتتالية للقصور في أي منهج مؤذن بضرورة مراجعته، وقد ذكرت قبل عدة سنين في سلسلة عن المدرسة الإصلاحية أن سبب العداء (لهذه المدرسة محاولتها الجريئة لإعادة قراءة كثير من النصوص دون الوصاية السلفية عليها، بعد أن أدرك رواد المدرسة الإصلاحية أن واقع التخلف له جذور عميقة ضاربة في القدم، تغلغلت في جسد الأمة حتى أنهكتها فلم تستطع مجابهة الأفكار الوافدة التي أخذت تعمل عملها في هذا الجسم المنهك)[١٨١] .

وقد نوقشت الكثير من نظريات الجرح والتعديل –التي تشكل أحد أعمدة النظرية الحديثية– في العقود الأخيرة من قبل عدد من العلماء والباحثين المتخصصين، وقد تعددت وتنوعت اطروحاتهم حول القضية، لكنها بدايات نحو إعادة الصياغة للكثير من المناهج السائدة، والمجال هنا لا يتسع لتتبعها وذكرها جميعاً، لكن نقتصر على خمسة أمثلة :

١ . محمد الغزالي : مفكر صاحب قلم سيال وحس أدبي راق وعقل واع ذكي، عرف بجرأته في الجهر بما يحسبه صواباً، ألف في عام ١٩٨٩م كتاب (السنة النبوية بين أهل

---

١٨١ معالم للزمن القادم ص ١٠٢، خالد الوهيبي.

الفقه وأهل الحديث) أثار ضجة عارمة في حينها، وألفت كتب ورسائل كثيرة في الرد عليه، وقد بين الغزالي سبب تأليفه للكتاب بقوله (وقد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن كثيري النظر في الأحاديث. يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة، ولا زلت أحذر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل، وحديثهم عن الإسلام جريء، واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشئون الحياة)، وأكد مراراً وتكراراً في الكتاب (أنه ليس لروايات الآحاد أن تشغب على المحفوظ من كتاب الله وسنة رسوله، أو أن تعرض حقائق الدين للتهم والريب)، وضرب عشرات الأمثلة على أن (تلاوة قليلة للقرآن الكريم، وقراءة كثيرة للأحاديث، لا تعطيان صورة دقيقة للإسلام بل يمكن القول بأن ذلك يشبه سوء التغذية، إذ لابد من توازن العناصر التي تكون الجسم والعقل على سواء).

وعلى ضوء ذلك ناقش قضايا كثيرة كفقه الدعوة والجهاد وموضوعات الجبر والحرية الإنسانية وعلاقة المرأة بالمسجد والنقاب وآداب الطعام وآداب المسكن وبعض من أحاديث الفتن والملاحم وغيرها من القضايا.

ولخص رسالة الكتاب بأن (كل ما نحرص نحن عليه شد الانتباه الى ألفاظ القرآن ومعانيه، فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها، مستغرقون في شئون أخرى تعجزهم عن تشرب الوحي!! والفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما، جمعوا كل ما جاء في شأنها من الكتاب والسنة، وحاكموا المظنون الى المقطوع، وأحسنوا التنسيق بين شتى الأدلة...

أما اختطاف الحكم من حديث عابر، والإعراض عما ورد في الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء...وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثقون

للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضى وطمأنينة، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار كما تقدم مواد البناء للمهندس الذي يبني الدار، ويرفع الشرفات، والواقع أن كلا الفريقين يحتاج الى الآخر، فلا فقه بلا سنة ولا سنة بلا فقه، وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون)[١٨٢] .

٢ . عبدالجواد ياسين: مستشار قضائي له عدة مؤلفات أهمها "السلطة في الإسلام"، وهذا الكتاب من أهم وأبرز الإصدارات التي خرجت في السنوات الأخيرة، وطرح المؤلف في هذا الكتاب قد أذهل الكثيرين لقوته وعمقه وقدرته الكبيرة على النقد والتحليل، وإبراز نقاط القوة والضعف في منظومة الفكر.

يقدم المؤلف طرحاً جديداً متكاملاً لجدليات النص والتأريخ، وتأثير كل منهما على الآخر موضحاً أن (أصول الخلل في تأريخ الأمة الإسلامية ترجع إلى بدايات سابقة على الحقبة الغربية بأمد غير قصير)

يدور الكتاب في ثلاثة محاور وهي:

أ–إشكالية عملية التدوين للنص الحديثي وتداخلها مع جدليات التاريخ مما أوجد ظاهرة (التنصيص السياسي).

ب– منهج التعامل مع الرواية الحديثية عند المحدثين ماله وما عليه، وقد انتقد بشدة من خلال عشرات الأمثلة منهج المحدثين في التعامل مع الرواية الحديثية قائلاً: (ونحن نعجب من هذا الموقف الحنبلي المتعصب، ونرى فيه ضرباً من السذاجة الفكرية وضيق الأفق، ونأسف شديد الأسف لأن أصحابه بالذات ودون غيرهم هم الذين كتبوا علم الحديث ودونوا السنة)، وأن (المنهج التقليدي لعلم الحديث بطابعه الكمي وأدواته

---

١٨٢ ما بين قوسين في الفقرة الخاصة بالشيخ محمد الغزالي من كتاب (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث).

الإسنادية، قد سمح للكثير من الأقاويل والأفعال التي لم تصدر يقيناً عن النبي صلى الله عليه وسلم أن تدخل في نطاق السنة، التي صارت مصطلحاً مرادفاً للأحاديث المجموعة في الكتب)[١٨٣].

ج- تأثير السلطة في بنية النص والعقل.

وقد لخص رسالة الكتاب عندما قال: (ومن هنا فإن حديثنا عن عدم ضرورة أخبار الآحاد لقيام الدين في حده الأدنى، ينبغي أن يفهم في إطار التفرقة بين الضروري والنافع، وليس في إطار التفرقة بين المقبول كله والمردود كله، لأن من أخبار الآحاد ما يمكن قبوله وفق الشرطين التاليين:

أولا: ثبوت الخبر بمقاييس المنهج النقدي التاريخي الشامل، الذي يتجاوز كما أسلفنا منهج علم الحديث الكلاسيكي ذي الطابع الإسنادي، إلى آفاق أوسع تقوم على محاكمة الخبر من متنه إلى القرآن والتاريخ والعقل الكلي.

ثانياً: خضوع النص، بعد ثبوته وفق هذا المنهج، لهيمنة الأحكام القرآنية، باعتبارها أصول الدين الثابتة ثبوتاً قطعياً، ولذلك فإن الترجمة النهائية لحديثنا هذا، ليست رداً للسنة في جملتها، كما قد تفهم بعض العقول المتوجسة الموسوسة، ولكنها في الحقيقة رد عن السنة أن يدخل فيها ما ليس منها).

٣. لؤي صافي: أستاذ جامعي درَّس في ماليزيا والولايات المتحدة، له عدة مؤلفات منها "العقيدة والسياسة" و"إعمال العقل"، وهذا الأخير خصص فيه المؤلف فصلاً للحديث عن "الرؤية القرآنية والمنهجية النصوصية" قرر فيه أن (الرؤية القرآنية تتحدد في القواعد العامة والمقاصد الكلية المستمدة من الكتاب، والمنتظمة وفق أنساق تحقق

---

١٨٣ ما بين قوسين في الفقرة الخاصة بعبدالجواد ياسين من كتاب (السلطة في الإسلام).

ترابطها الداخلي) ومن خلال قراءة في التراث الفقهي للصحابة وجد أنهم (لم يقبلوا الحديث المرفوع إلى رسول الله على عواهنه؛ لأن صحابياً رواه، بل نظروا إلى الرواية من خلال الرؤية القرآنية التي اكتسبوها من استبطان معاني كتاب الله الكريم، وعرضوها على نسق المبادئ والمقاصد التي تشكل ثوابت هذه الرؤية، ولم يترددوا في رد الحديث أو تأويله عند تعارضه مع المبادئ القرآنية الثابتة) وخلص من ذلك إلى (ضرورة ربط نصوص الحديث بأنساق القواعد القرآنية الكلية والمبادئ القرآنية العامة، أي فهمها وفقاً للرؤية القرآنية المتحددة بناء على هذه القواعد، وتأويل الأحاديث حال تضاربها مع الرؤية القرآنية)[١٨٤].

٤. الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: مفتي سلطنة عمان، وعضو بارز في مجمع الفقه الإسلامي، بصماته واضحة على الأجيال التي نشأت منذ السبعينيات في عمان، له عدة مؤلفات منها "جواهر التفسير" و"الحق الدامغ" و"زكاة الأنعام" و"شرح غاية المراد" و"إعادة صياغة الأمة"، وهذا الأخير عبارة عن عدة محاضرات ألقاها الشيخ في عدة مناسبات تصب في هذا المصب، فيها يقول الشيخ بوضوح بأنه (إذا جئنا إلى قضية التعديل والتجريح، نجد هذه القضية شيبت بالكثير، فلربما كان تجريح أحد من الرواة بسبب موقف سياسي ما كان يتفق مع السياسة التي كانت متغلبة ومتسلطة في ذلكم العصر، ولربما كان ذلك بسبب عدم اتفاق في قضية من القضايا مع جمهور المحدثين، بحيث كان لهذا الراوي موقف معين، وكانت العصبية تدعو إلى أن يعتبر مجروحاً ترفض روايته ولا تقبل، فإذن قضية التعديل والتجريح يجب أن تكون مجردة من العصبيات المذهبية والأهواء)، ورأى أنه (مما يؤسف أن الكثير من المحدثين والنقاد

---

١٨٤ ما بين قوسين في الفقرة الخاصة بلؤي صافي من كتاب (إعمال العقل).

نظروا إلى جانب السند وتجاهلوا جانب المتن، مع أنه لا بد من أن ينقد الحديث من جانب المتن، وهذا الذي فعله الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فقد كانوا كثيراً ما ينقدون الروايات حتى ولو جاءت عن الثقات من الصحابة)[١٨٥]، وقد أكد على هذه المعاني في فتاواه المتداولة بين الناس، فعندما سئل عن أحاديث المسح على الخفين قال: (فروايتهما لا تتجاوز أن تكون من الروايات الآحادية التي لا تقوى على معارضة القرآن، كيف وقد استقر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحرز من الروايات التي يحدث بها الصحابة أنفسهم– مع نزاهتهم وقرب عهدهم به صلى الله عليه وسلم– عندما يشتمون منها ما يخالف ظواهر القرآن، كما صنع عمر رضي الله عنه بحديث فاطمة بنت قيس، وكما صنعت عائشة بحديث ابن عمر رضي الله عنهم أجمعين في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، وكما صنع ابن عباس رضي الله عنهما بحديث الحكم بن عمر الغفاري في تحريم ذوات الناب من السباع والمخالب من الطير، وهكذا كانوا رضي الله عنهم يزنون الروايات التي يتلقاها بعضهم من بعض — مع أمانتهم جميعاً وولاية بعضهم بعضاً– بموازين الكتاب)[١٨٦].

٥ . طه جابر العلواني: أكاديمي عراقي معروف، ترأس في فترة من الفترات المعهد العالمي للفكر الإسلامي في ولاية "فيرجينيا" الأمريكية، له العديد من المؤلفات، منها كتاب "مقاصد الشريعة" و"إصلاح الفكر الإسلامي" وتحقيق كتاب "المحصول في علم الأصول" للفخر الرازي.

---

١٨٥ ما بين قوسين في الفقرة الخاصة بالشيخ الخليلي من كتاب (إعادة صياغة الأمة).

١٨٦ الفتاوى (الكتاب الأول) ص ٢٧، أحمد بن حمد الخليلي.

وفي كتاب "مقاصد الشريعة" يقدم مجموعة من المحددات المعرفية منها أن علاقة القرآن بالسنة تتحدد في أن(السنة والسيرة تبدوان تطبيقاً عملياً للقرآن في مقاصده العليا الحاكمة، تتكامل السنة معه في وحدة بنائية تقرأ وتفهم في ضوئها آلاف الأحاديث الصحيحة والأفعال والتصرفات النبوية الثابتة، التي أدخلتها القراءات الجزئية المعضاة ولا تزال في دوائر "مختلف الحديث" و"مشكل الآثار" ونحو ذلك، ولم تستطع قواعد الجرح والتعديل وموازين الأسانيد والمتون أن توقف ذلك الجدل الذي دار)[١٨٧] .

٦ . الشيخ سعيد بن مبروك القنوبي : وهو فقيه إباضي اشتغل بدراسة مجموعات الأحاديث المدونة لدى مختلف المدارس الإسلامية، له العديد من المؤلفات منها : "السيف الحاد" و"الطوفان الجارف" و"القول المعتبر"، يرى (أن قواعد مصطلح الحديث تحتاج إلى مزيد من البحث والتحرير، ولا سيما فيما يتعلق بزيادة الثقة وتعارض الوصل والإرسال والرفع والوقف وألفاظ الجرح والتعديل ومعرفة مصطلح العلماء المتقدمين في ذلك)[١٨٨] ، وعاب على الدراسات والمباحث الحديثية قلة اعتنائها بملاحظة علل المتون، فرأى أن (الأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ولم أطلع إلى الآن على من ألف فيها كتاباً جامعاً، وإنها لجديرة بذلك لشدة خطرها وعظم ضررها، إذ إن أكثر المشتغلين بالحديث لا يعتنون إلا بالنظر في الإسناد، فإذا صح السند حكموا بصحة الحديث من غير أن ينظروا في متنه إلا في القليل النادر)[١٨٩] .

---

١٨٧ ما بين قوسين في الفقرة الخاصة بالعلواني من كتاب (مقاصد الشريعة).

١٨٨ الطوفان الجارف ج٣ ص ٣١٧ ، سعيد بن مبروك القنوبي.

١٨٩ المرجع السابق ج٣ ص ٣٠٢ .

قواعد عامة

بعد أن قدمنا بعضاً من انتقادات فقهاء المدرسة الجابرية لقواعد منهج الجرح والتعديل (=الإسناد) سنطرح –إن شاء الله تعالى– محاولة منا في استخراج بعض من معالم منهج التعامل الكلي مع الرواية الذي برز بقوة لدى عموم فقهاء المدونة (=المدرسة الجابرية).

(١) لا بد أن تكون الرواية عن الثقات الأثبات العدول العارفين بحقائق ما يروون

وهذه قاعدة متفق عليها من حيث الإجمال، لكننا نرى أن منهج الجرج والتعديل أغفل بدرجة كبيرة قاعدة فقه الراوي، فاستجاز الرواية عن مئات بل آلاف الرواة من العامة وأشباههم، معتمداً في ذلك على العدالة فحسب؛ مما تسبب في تسريب الكثير من الأوهام والأخطاء في الروايات، روى الخطيب البغدادي عن (محمد بن أحمد بن جامع الرازي قال: سمعت أبا زرعة وقال له رجل: يا أبا زرعة، أليس يقال حديث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف حديث. قال: ومن قال ذا؟ قلقل الله أنيابه، هذا قول الزنادقة، ومن يحصي حديث رسول الله، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشرة ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه. فقال له الرجل: يا أبا زرعة، هؤلاء أين كانوا وسمعوا منه؟ قال: أهل المدينة، وأهل مكة ومن بينهما والأعراب، ومن شهد معه حجة الوداع، كل رآه وسمع منه يعرفه)[١٩٠]، وتحت هذا الشعار تم قبول رواية كل أحد، وكأن المسألة كانت نهماً للبحث عن كل ما هب ودب من عجائب وغرائب الأخبار حتى من عامة الناس والأعراب، بينما كان فقهاء الصحابة

---

١٩٠ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ج٢ ص٢٩٣، الخطيب البغدادي.

والتابعين يتحفظون كثيراً على روايات عوام الناس الذين لقوا النبي صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه مجرد أقوال ثم رجعوا إلى أقوامهم، وقد (كان سعيد بن المسيب يقول: الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين)[١٩١] ، و(عن موسى قال: أتيت أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، فقلت: أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قد بقي قوم من الأعراب فأما من أصحابه فأنا آخر من بقي)[١٩٢] .

لذا يقول علي بن أبي طالب عن رواية رواها معقل بن سنان الأشجعي (لا يقبل قول أعرابي من أشجع على كتاب الله)[١٩٣] ، وقال عمرو بن دينار (حدثني ابن شهاب عن يزيد بن الأصم أن النبي صلى الله عليه وسلم نكح ميمونة وهي خالته وهو حلال. قال عمرو: فقلت للزهري: وما يدري يزيد بن الأصم، أعرابي بوال، أتجعله مثل ابن عباس؟)[١٩٤] . ونحن نتحفظ على ألفاظ "بوال" و"أعرابي" ولا نرى فيها الشاهد على الفكرة، لكن الشاهد أن هناك تحفظاً على روايات غير الفقهاء حتى على من رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ولقوه، ولا نرى ذلك قادحاً في الصلاح والاستقامة، فكم من أناس يُسألون الدعاء لصلاحهم ولا تقبل لهم رواية واحدة لقلة فقههم.

ونحن نجد أن مسند الإمام الربيع بن حبيب والمدونة وآثار الربيع وغيرها من المصنفات قد بنيت على رواية الفقهاء العارفين بما يروون، وهؤلاء الفقهاء الثقات العارفون بالروايات ومواضعها في منظومة الحياة نصوا بأنفسهم على أن الخطأ يعتريهم في

---

١٩١ الكفاية في علم الرواية ج١ ص٥٠ ، الخطيب البغدادي.

١٩٢ عمدة القاري ج١٦ ص١٦٩، بدر الدين محمود العيني.

١٩٣ السنن الكبرى للبيهقي (١٤٢٠٢)، سنن سعيد بن منصور (٩٣١).

١٩٤ شرح معاني الآثار ج٢ ص ٢٦٩ ، أبو جعفر الطحاوي.

الرواية، قال الإمام أبو عبيدة مسلم في رسالته عن الزكاة التي وجهها إلى أتباعه بالمغرب (فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ في رواية أو خبر أو غير ذلك فمن نفسي، استغفر الله من جميع ما ليس هو له رضى)[١٩٥] هذا ما يقوله الفقهاء في حق أنفسهم؛ فكيف الحال بمن هم دونهم؟!.

وروى الإمام الربيع (١٦٧): أبو عبيدة بن جابر بن زيد قال: (يُروَى عن عبدالله بن مسعود ليلة الجن في إجازة النبي صلى الله عليه وسلم له أن يتوضأ بالنبيذ؛ قد سمعت جملة من الصحابة يقولون ما حضر ابن مسعود تلك الليلة والذي رُفِعَ عنه كذب، والله أعلم بالغيب) في هذه الرواية يتضح جانب النظر في إسناد الرواية ونقلتها والقرائن المحيطة بها، والعناية والاهتمام بهذا الجانب.

وتبرز هنا مسألة هامة وهي الرواية عن غير المنتمين للمدرسة الفقهية المتجانسة، لا سيما بعد أن افترق المسلمون إلى فئات سياسية متعادية وظهرت مقالات لدى بعضها لم تقبل لدى البعض الآخر والعكس بالعكس، ومن خلال سبر نصوص فقهاء المدرسة الجابرية يتضح أن لديهم تحفظاً من الرواية بإطلاق عن الآخرين، تجد ذلك من خلال تآليفهم الفقهية والحديثية، وفي ثنايا عباراتهم، ومن ذلك:

– قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج: هل في الصلاة قنوت؟.

قال: حدثني أبو عبيدة أنه سأل جابر بن زيد عن ذلك فقال: الصلاة كلها قنوت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً﴾ الزمر:٩ فالصلاة كلها قنوت.

---

١٩٥ الديوان المعروض (رسالة الشيخ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في الزكاة ص٢).

قلت: يا أبا الشعثاء؛ ليس عن هذا أسألك، ولكن إنما أسألك عن الذي يفعل هؤلاء بعد الركوع، يدعون ويهللون وهم قيام.
قال: هذا أمر محدث لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة)[١٩٦].
وقال الإمام جابر (كيف يمسح الرجل على خفيه والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء؟! والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم)[١٩٧].
والحقيقة أنه ليس هناك تحفظ بمعناه النفسي المعبر عن الصيرورة التاريخية والإرهاصات الظرفية، لكنه عبارة عن جانب موضوعي علمي في قبول الرواية للأسباب التالية:
– عدم التورع عن الكذب والدس في الرواية، وهذا قد ظهر مبكراً في تاريخ الرواية، ففي مقدمة صحيح مسلم (جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس ما لي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع، فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف)[١٩٨].
– تأثير الصراعات السياسية والعقائد المذهبية على رواية الأحاديث، فقد تحول الانقسام السياسي الأول إلى مجال خصب للدس والكذب في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم[١٩٩]، وزاد الطين بلة أن ركب هذه الموجة أناس دخلوا الإسلام وهم

---

١٩٦ المدونة الصغرى ج١ ص ٦٧، بشر بن غانم الخراساني.
١٩٧ الربيع (١٢٥).
١٩٨ مقدمة صحيح مسلم (١/١٣).
١٩٩ انظر "السلطة في الإسلام" ص ٢٣٣–٢٤٨، عبدالجواد ياسين.

يحملون أوزاراً من عقائدهم وموروثاتهم السابقة والتي جاء الإسلام لاجتثاثها من جذورها، فحصل خلط كبير، ودخلت المسلمين على حين غفلة منهم كثير من الروايات الباطلة، فكان لا بد من الحذر والحيطة في أخذ الحديث وتلقيه.

فالرواد الأولون للمدرسة الجابرية لم يمارسوا هذه الصرامة في قبول الأحاديث لأجل الخلاف السياسي، بل لأجل ما جره هذا الخلاف السياسي من تبعات في القول والعمل، ويؤيد هذه الحيطة ما ورد في كتاب الله تعالى عن أقوام ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ الأعراف:١٦٩ فبين تعالى في هذه الآية أن التعلق بأماني الغفران مؤد بدوره إلى التكالب على الحطام الفاني وتضييع معاني الخوف من الله تعالى، وقال تعالى أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ آل عمران:٢٣ ثم بين تعالى سبب هذا الإعراض عن حكمه ومنهجه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ آل عمران:٢٤، فتضييع العمل أو التهوين من قيمته من شأنه أن يلقي بظلاله الكئيبة على تلقي الرواية وأدائها، ولعل هذا يفسر تكالب آلاف الكذابين والدجالين لاختلاق الروايات ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وللأسف الشديد أن يكون بين هؤلاء بعض ممن حملوا أمانة العلم[٢٠٠].

وهذا كما قلنا لا يعني بالضرورة أنهم تركوا مرويات من عداهم، فأبو المؤرج يقول لتلميذه أبي غانم: (قومك يقولون حقاً كثيراً، لم يخالفهم المسلمون فيما أصابوا فيه،

---

٢٠٠ انظر "قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث" ص ٢٠٠–٢٠٢، زكريا بن خليفة المحرمي.

ولكن إنما خالفوهم فيما أخطأوا فيه وكذبوا)[٢٠١] ، فأبو المؤرج يؤكد على أن عند الآخرين الكثير من الخير الذي لا ينبغي إهماله والإعراض عنه، لكنه يؤخذ بما ينسجم مع القواعد الكلية والأصول التشريعية، ولعل هذا المثال يوضح الفكرة بشكل جيد، حيث سأل أبو غانم أبا المؤرج فقال: (أبلغك عن عبدالله بن مسعود أنه قال لشيخ أتاه قد ذكر له أنه تزوج جارية شابة فأشفق أن تبغضه فأتى عبدالله بن مسعود. فقال: إني شيخ كبير فتزوجت فتاة، وأخاف العزل.

فقال له عبدالله بن مسعود: إن الألفة من الله والفرك من الشيطان، فإذا دخلت بإمرأتك فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تطهر وتقوم إلى المسجد وامر إمرأتك أن تقوم خلفك ثم تصلي ركعتين، ولتصليهما معاً، فإذا صليت ركعتين فاجلس وتشهد ثم تحمد الله تعالى وتصلي على سيدنا محمد عليه السلام، وتثني على ربك ثم تقول "اللهم بارك لي في أهلي وبارك لها فيَّ، وارزقها مني وارزقني منها، واجمع بيننا ما جمعتنا على خير، وإذا فرقت بيننا فاجعل فرقتنا على خير".

قال: ففعل الرجل ما أمره به ابن مسعود فعطف عليه امرأته ورزق ودها، ولم ير شيئاً مما كان يتخوف منه.

قال أبو المؤرج: لم تبلغني هذه الرواية ولم نسمعها قبل يومي هذا، ولست استنكر من هذا الحديث شيئاً والله أعلم)[٢٠٢].

وكذلك فإنهم رووا عمن كان مقارباً لهم في توجهاته الفكرية[٢٠٣] (=يثقون في أدائه للرواية) كالحسن البصري الصديق الحميم للإمام جابر[٢٠٤]، وإبراهيم النخعي الذي

---

٢٠١ المدونة الصغرى ج١ ص٣٨، بشر بن غانم الخراساني.

٢٠٢ المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٣– ٢٢٤.

يشـيد بفقهـه عبـدالله بـن عبـدالعزيز ويفضـل آراءه أحيانـاً علـى آراء أبـي عبيـدة[٢٠٥]، وسـعيد بـن جـبير[٢٠٦] الـذي يجعـل أبـو المؤرج مـن بعـض آرائـه مقدمـة علـى آراء بعـض الصحابـة الكبار كعلي بـن أبـي طالـب حين قـال: (لـيس فيمـا قـال علـي في هـذا شـيء، والأمر عندنا على ما وصفت لك عن النبي عليه الصلاة والسلام وابن عباس وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير)[٢٠٧].

في المقابل رووا عن بعض الذين خاضوا في الفتن والصراعات وكانت لهم فيها مواقف غير محمـودة كمـروان بـن الحكـم ومعاويـة بـن أبـي سـفيان، وهـذه الروايـات كمـا في مسند الربيع:

— أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغـني عـن معاويـة بـن أبـي سـفيان قـال وهـو علـى المنبر: (أيها الناس إنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معط لما منع الله، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، من يرد به خيرا يفقهه في الدين) ثم قال: سمعت من رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم هذه الكلمات على هذه الأعواد يعني المنبر[٢٠٨].

— أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن معاوية بن أبي سفيان حين قدم من مكة ورقي المنبر فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

٢٠٣ الدعوة والتعليم عند الإباضية (محاضرة)، أحمد بن سعود السيابي.

٢٠٤ انظر كتاب الترتيب، آثار الربيع بن حبيب في الحجة على مخالفيه (٥٣). و"الديوان المعروض، كتاب الصيام ص ٤٦".

٢٠٥ المدونة الصغرى ج١ ص ٣٤٧ –٣٤٨، بشر بن غانم الخراساني.

٢٠٦ الديوان المعروض، كتاب الصيام ص ٤٢.

٢٠٧ المرجع السابق ص ٤٦.

٢٠٨ الربيع (٢٧).

يقول لهذا اليوم يوم عاشوراء (لم يكتب الله عليكم صومه وأنا صائمه فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر ولكن في صيامه ثواب عظيم وأجر كريم)[٢٠٩].

– أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن معاوية بن أبي سفيان قال وهو على المنبر عام حج، فتناول قصة من شعر في يد حرسي فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذت مثل هذه نساؤهم)[٢١٠].

– أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن عروة بن الزبير قال: دخلت على مروان بن الحكم، قال: فتذاكرنا ما كان من نقض الوضوء، قال: قال مروان: من مس ذكره فليتوضأ. قال: قلت له: ما أعلم ذلك. فقال مروان: أخبرتني بسرة بنت صفوان أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا مس أحدكم ذكره فليتوضأ).[٢١١]

ولو جئنا نقرأ هذه الروايات لوجدنا أنها لا تخرج عن إطارين اثنين:

- أنهم كانوا يروون هذه الأحاديث بمحضر من الصحابة الذين عاشوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وخبروا سنته وحديثه، فلو وقع منهم تلاعب لأنكروا عليهم ذلك، وهذا هو المعهود عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فعن أنس بن مالك قال: صلى معاوية بالمدينة صلاة فجهر فيها بالقراءة، فقرأ فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [مطلع كل سور القرآن عدا التوبة] لأم القرآن، ولم يقرأ بها للسورة التي بعدها حتى قضى تلك القراءة، ولم يكبر حين يهوي حتى قضى تلك الصلاة، فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين

---

٢٠٩ الربيع (٣١٣).

٢١٠ الربيع (٧٤٧).

٢١١ الربيع (١١٨).

من كل مكان: "يا معاوية أسرقت الصلاة أم نسيت؟!". فلما صلى بعد ذلك قرأ ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للسورة التي بعد أم القرآن وكبر حين يهوي ساجداً[٢١٢].

- أن ما يروونه لم ينفردوا به عن غيرهم، فحديث صوم يوم عاشوراء رواه أيضاً ابن عباس والسيدة عائشة[٢١٣]، وحديث نقض الصوم من مس الذكر رواه أيضاً ابن عباس[٢١٤].

(٢) لا بد أن يكون الحديث منسجماً مع دلالات الكتاب العزيز والسنة.

وتحت هذا البند تندرج بنود ومحددات منها:

١. لا بد للرواية من أصل من الكتاب أو السنة.

أ- جاء في الديوان المعروض في سؤال أبي غانم لأبي المؤرج: (قلت: إن أناساً من قومنا يروون عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أفطر الحاجم والمحجوم؟ قال: ليس فيما قال علي في هذا شيء، والأمر عندنا على ما وصفت لك عن النبي عليه الصلاة والسلام وابن عباس وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير، لأن السنة في الصيام إنما نهوا عن الطعام والشراب وغشيان النساء، والحجامة ليس بشيء من ذلك، إنما يمنع منها مخافة الضعف، فإن احتجم فقد تم صومه بهذا نأخذ وعليه نعتمد وهو قول أبي عبيدة والعامة من فقهائنا)[٢١٥].

---

٢١٢ المستدرك للحاكم (٨٥١)، السنن الصغرى للنسائي (٣٩٨)، سنن الدارقطني (٣٣).

٢١٣ الربيع (٣١١)، (٣١٢).

٢١٤ الربيع (١١٦).

٢١٥ الديوان المعروض (كتاب الصيام ص ٤٦).

فالسؤال كان عن حديث أفطر الحاجم والمحجوم[٢١٦] ، فكان الجواب عدم اعتبار الحجامة من جملة المفطرات؛ (لأن السنة في الصيام إنما نهوا عن الطعام والشراب وغشيان النساء ، والحجامة ليس بشيء من ذلك، إنما يمنع منها مخافة الضعف، فإن احتجم فقد تم صومه بهذا نأخذ وعليه نعتمد وهو قول أبي عبيدة والعامة من فقهائنا) .
والسنة التي عناها أبو المؤرج هي جملة المعاني الثاوية في مجموع النصوص الثابتة في الكتاب والسنة، والتي تستخلص من خلال النظر ، وإنما عبر عنها بالسنة لأنها مما مورس عملياً وكانت سنة ماضية للحياة .
ب- سئل الربيع بن حبيب عن لحوم الحمر الأهلية (قال : كان جابر لا يرى بلحومها وألبانها بأساً ، وقال إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر أن يشرعوا في كراعهم ولم يحرم لحومها)[٢١٧] ، وعن الربيع أيضاً قال : (ونهى رسول الله عليه السلام عن لحوم الحمر الأهلية وعن كل ذي ناب من السباع ، وأما الحمر الأهلية فبلغنا أنها كانت حمولتهم يومئذ ؛ فخافوا أن يأكلوها ولا تبقى معهم حمولة، وكان أبو عبيدة رحمه الله يتأول هذه الآية ﴿قُل لاّ أَجِدُ فِى مَآ أُوْحِىَ إِلَىّ مُحَرّماً عَلَىَ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ الأنعام:١٤٥)[٢١٨] .
وهذا الموقف من جابر بن زيد وأبي عبيدة والربيع في هذه المسألة يدل على أنهم (لم يقبلوا الحديث المرفوع إلى رسول الله على عواهنه؛ لأن صحابياً رواه، بل نظروا إلى الرواية من خلال الرؤية القرآنية التي اكتسبوها من استبطان معاني كتاب الله الكريم،

---

٢١٦ ابن حبان (٣٥٣٢)، الترمذي (٧٧٤)، أبو داود (٢٣٦٦).
٢١٧ الديوان المعروض (من قول قتادة ج٣ ص٢٩).
٢١٨ المرجع السابق (من قول قتادة ج٤ ص٥).

وعرضوها على نسق المبادئ والمقاصد التي تشكل ثوابت هذه الرؤية، ولم يترددوا في رد الحديث أو تأويله عند تعارضه مع المبادئ القرآنية الثابتة)[٢١٩].

ومما يظهر من كلام أبي عبيدة مسلم أن المحرمات المطعومة بأعيانها وردت في قوله تعالى: ﴿قُل لاّ أَجِدُ فِى مَآ أُوْحِيَ إِلَيّ مُحَرّماً عَلَىَ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾ الأنعام:١٤٥، فأصول المحرمات المطعومة محصورة في هذه الآية الكريمة، فتحريم الخمر مثلاً لأنها ﴿رِجْسٌ مّنْ عَمَلِ الشّيْطَانِ﴾ المائدة:٩٠ والرجس محرم بنص هذه الآية، والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع من أصناف الميتة، والميتة محرمة بنص هذه الآية، فلم يخرج شيء من المحرمات المطعومة الأخرى التي ذكرها الكتاب العزيز عن دلالات هذه الآية، وما لم يذكر في الآية فهو محكوم بقول الله تعالى ﴿وَيُحِلّ لَهُمُ الطّيّبَاتِ وَيُحَرّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ الأعراف:١٥٧، فعندما يأتي الحديث ينبغي أن يحمل على هذه الكليات، فرأى أن منع أكل الحمر الأهلية يوم خيبر كان لأجل أنها كانت حمولتهم، واستدل بالآية الكريمة[٢٢٠].

٢. لا بد من حياطة الرواية وفهمها في ضوء القواعد الكلية والأصول التشريعية لاكتشاف أي خلل فيها (=العلة) وتحديد موقعها في البناء التشريعي.

---

٢١٩ إعمال العقل ص ١٢٨-١٢٩، لؤي صافي.

٢٢٠ روى البخاري (٥٤٤٤) من طريق الزهري عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ثعلبة الخشني قال: (نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع). قال الزهري: "ولم أسمعه حتى أتيت الشام".

جاء في الديوان المعروض: (قلت: إن قومنا وبعضهم يقولون ويروون عن علي أنه قال: لا يقضي رمضان في العشرة؟.

قال: أساءوا الرواية، ولقد كان علي لعمري يقول ذلك على غير ما قالوا، إنما قال علي ذلك لئلا يؤخروا رمضان إلى العشرة، كذلك حدث عنه الحسن، وإنما دعاه إلى ذلك لئلا يؤخر رمضان إلى العشرة، فهم يروون الرواية ولا يعرفون وجهها ولا معانيها، والسنة أن رمضان فرض من الله، والعشرة صيامها تطوعاً فلا ينبغي لأحد أن يدع الفرض ويتطوع، وليس صوم العشرة حتماً، ولكن أيام الصوم فيها متضاعف، وأن العمل فيها مضعف إن شاء الله.

فهذا كله قولنا فبه نأخذ وعليه نعتمد وهو قول أبي عبيدة والعامة من فقهائنا)[٢٢١].

فأبو المؤرج ينتقد من (يروون الرواية ولا يعرفون وجهها ولا معانيها)، فما روي عن علي بن أبي طالب من أنه لا يقضى رمضان في العشرة لا يصح، لأن (السنة أن رمضان فرض من الله، والعشرة صيامها تطوعاً فلا ينبغي لأحد أن يدع الفرض ويتطوع، وليس صوم العشرة حتماً).

٣. لا بد من تمييز الأحاديث والروايات التي جرى عليها العمل من غيرها، فـ(الصحيح منها ما أيده العمل أو وقع عليه الإجماع لذلك)[٢٢٢]، فالظهور المتأخر للروايات وعدم قيام عمل عليها مؤذن بضرورة الفحص والتمحيص الدقيق والعرض على الأصول، (فلذلك تجب الأسانيد والبحث عن صحتها ثم التنازع في تأويلها إذا

---

٢٢١ الديوان المعروض (كتاب الصيام ص ٤٧).

٢٢٢ كتاب الجامع ج١ ص ٥٤٧، عبدالله بن محمد بن بركة.

صحت بنقلها، فإذا اختلفوا في حكمها كان مرجعهم إلى الكتاب)[٢٢٣]، إذ قد تكون من جملة ما نسخ فترك، أو هي من جملة الدس المتأخر الذي يراد به التشويش على الأصول الثابتة، أو هي من جملة التسريبات من الثقافات الأخرى، أو هي نتاج أي عارض من العوارض الإنسانية الأخرى كالخطأ والوهم والنسيان والرواية بالمعنى.

قال أبو غانم في المدونة: (سألت أبا المؤرج: هل في الصلاة قنوت؟.

قال: حدثني أبو عبيدة أنه سأل جابر بن زيد عن ذلك فقال: الصلاة كلها قنوت، قال الله تبارك وتعالى: "أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً" فالصلاة كلها قنوت.

قلت: يا أبا الشعثاء؛ ليس عن هذا أسألك، ولكن إنما أسألك عن الذي يفعل هؤلاء بعد الركوع، يدعون ويهللون وهم قيام.

قال: هذا أمر محدث لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة)[٢٢٤].

و(قال أبو الأشهب جعفر بن حيان: سألت جابر بن زيد عن القنوت. قال: الصلاة كلها قنوت، وأما الذي يصنعون فما أدري ما هو؟!)[٢٢٥].

فقول الإمام جابر "لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة" وقوله "وأما الذي يصنعون فما أدري ما هو" يعبر بصراحة عن ظاهرة الظهور المتأخر للروايات وعدم قيام عمل عليها، وفي مخطوطة "من قول قتادة" من الديوان المعروض لما سئل أحد تلاميذ الإمام الربيع بن حبيب عن (قول أبي معشر عن النخعي أربعة يخفيهن الإمام:

---

٢٢٣ كتاب الجامع ج١ ص ٢٨٠.

٢٢٤ المدونة الصغرى ج١ ص ٦٧، بشر بن غانم الخراساني.

٢٢٥ آثار الربيع ج١ ص ٦١، عبدالملك بن صفرة.

بسم الله الرحمن الرحيم، والاستعاذة، وآمين عند خاتمة فاتحة الكتاب، وربنا ولك الحمد عند رفع رأسه من الركوع.

قال: يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وأما آمين فلا نعرفه، وإن جهر باسم ربنا ولك الحمد حتى يسمع من على يمينه فلا بأس)[٢٢٦]، في هذا النص يقول أحد تلاميذ الربيع إن كلمة "آمين" ذاتها لا يعرفها من أين جاءت!.

وليس ذلك ببدع من الأمر، فحتى بعض علماء المحدثين كان يبني آراءه الفقهية على ذلك، فمالك بن أنس إمام المذهب المالكي يقول (في وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة؛ قال: لا أعرف ذلك في الفريضة)[٢٢٧] فكان يكرهه، فقوله (لا أعرفه) أي لم يكن عليه العمل المستقر المنقول جيلاً بعد جيل، وقد ذكر لليث بن سعد حديث سعيد بن المسيب عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أهلَّ عليه منكم هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره حتى يضحي"[٢٢٨] فقال الليث (قد رُوِيَ هذا والناس على غير هذا)[٢٢٩]، فالليث لم ير في الرواية أية إلزامية له لأن (الناس على غير هذا)، أي أن العمل لم يكن عليه، بل إن مالك بن أنس كان يقول عن حديث أم سلمة في أن من أراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره "ليس من حديثي"، فقد (ذكر عمران بن أنس أنه سأل مالكاً عن حديث أم سلمة هذا فقال: ليس من حديثي. قال: فقلت لجلسائه: قد رواه عنه شعبة وحدث به عنه وهو يقول ليس من حديثي!، فقالوا لي: **إنه إذا لم يأخذ بالحديث قال فيه: ليس من**

---

٢٢٦ الديوان المعروض (من قول قتادة ج١ ص ١٧).

٢٢٧ المدونة الكبرى ج١ ص ٧٤، مالك بن أنس (برواية سحنون بن سعيد عن عبدالرحمن بن القاسم عن مالك)

٢٢٨ مسلم (١٩٧٧)، الترمذي (١٥٢٣)، ابن حبان (٥٩١٦).

٢٢٩ التمهيد ج١٧ ص٢٣٥، يوسف بن عبدالله بن عبدالبر.

حديثي)[٢٣٠]، وهذا على اعتبار أن الرواية وإن وصلت إليه فإنها وفق معطيات أخرى أقوى منها تم تجاوزها وتركها.

وهذا بالضبط ما يمثل نوعاً من المفارقة الجوهرية بين طرق المحدثين في التعامل مع الرواية وطرق المدرسة الجابرية، فالنظرية التي تقوم عليها مدرسة أهل الحديث في عمومها تنادي بأنه (لا تنظروا إلى الحديث، ولكن انظروا إلى الإسناد فإن صح الإسناد وإلا فلا تغتروا بالحديث إذا لم يصح الإسناد)[٢٣١]، و(إذا صح الحديث فهو مذهبي)[٢٣٢]، في حين أن عموم الاستقراء للنصوص عند فقهاء المدرسة الجابرية يؤكد على أنهم كانوا يتحفظون بشدة على الروايات المتأخرة الظهور والتي لم يقم عليها عمل.

ورغم قوة هذه النظريات التي قام عليها الفقه الإباضي القديم؛ صرنا في العهود المتأخرة نستورد دون وعي وبنيات حسنة في الغالب كثيراً من الأحاديث والروايات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ومن ينادي بخلاف ذلك يدمغ بتهمة "إنكار السنة"، ومرد ذلك في نظري إلىأمرين:

– قلة التآليف أو انعدامها في مناهج الأصول والحديث وغيرها التي تعتمد على أسس الحقل المعرفي للمدرسة الإباضية.

– الضغط السياسي الذي جعل من المدرسة الإباضية في مقابل السلطة السياسية (=أمويين، عباسيين، بويهيين، سلاجقة، أغالبة، فاطميين... الخ) باستمرار، وهذا

---

٢٣٠ المرجع السابق ج١٧ ص ٢٣٧.

٢٣١ سير أعلام النبلاء ج٩ ص ١٨٨، محمد بن أحمد الذهبي.

٢٣٢ المرجع السابق ج١٠ ص ٢٥.

ولد من جانبه شعوراً بالضغط الفكري من الأقوى على الأضعف، وهذا بدوره جعل النظريات المتولدة في المحيط السياسي السلطوي تنساح على المنطقة الإباضية وتشكل حضوراً متعاظماً فيها.

٤ . صحة السند والمتن لا تعني بالضرورة حيزاً واسعاً في البناء التشريعي :

فإن الرواية قد تصح سنداً ومتناً لكن قد تلزم حيزاً تشريعياً محدوداً تفرضه الأصول الكلية والقواعد التشريعية الثاوية في نصوص الكتاب والسنة، وبعبارة أخرى فإن صحة الرواية غير فقه الرواية، وأفضل الأمثلة على ذلك ما رووه بأنفسهم ثم بينوا كيفية التعامل معه بالشكل المطلوب.

أ– روى الإمام الربيع (٨٩): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه). قال الربيع: قال أبو عبيدة: ذلك ترغيب من النبي صلى الله عليه وسلم في نيل الثواب الجزيل في ذكر الله.

يرى الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة أن التسمية مندوبة وليست فرضاً مع مجئ الحديث عنه صلى الله عليه وسلم بلفظ (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه).

ومرد هذا الرأي فيما يظهر أنه نظر إلى أن فرائض الوضوء وأركانه الأساسية ثابتة بالكتاب العزيز ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ المائدة:٦ (وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم المضمضة والاستنشاق)[٢٣٣] ومسح الأذنين من

---

٢٣٣ أصول الدينونة الصافية ص ٩٢، عمروس بن فتح.

خلال الممارسة العملية، قال أبو غانم الخراساني (حدثني الربيع: أنه سأل أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة عن الوضوء للصلاة، قال: تبدأ فتغسل كفيك، ثم تستنجي، ثم تمضمض فاك، ثم تستنشق بالماء، وتغسل وجهك وذراعيك إلى المرفقين، وتمسح برأسك وأذنيك ظاهرهما وباطنهما، وتغسل رجليك إلى الكعبين)[٢٣٤].

ب- روى الإمام الربيع (١٥٥): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليهرقه وليغسله سبع مرات أولاهن وأخراهن بالتراب) قال الربيع: قال ضمام بن السائب: يكفي من ذلك ثلاث مرات.

وعند الربيع (١٥٦): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليهرقه وليغسله سبع مرات) قال جابر: وفي الثلاث كفاية إن شاء الله.

وقال أبو غانم في المدونة: (قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَآءَ﴾ النساء ٤٣: يعني أو جامعتم النساء.

وسألته: أيتوضأ الرجل من الإناء الذي ولغ فيه الكلب أو السبع؟.

قال: ليغسله، ثم ليتوضأ فيه، ولا يتوضأ فيه حتى يغسله.

قلت: أتوقت في غسله ثلاثاً أو سبعاً كما قال هؤلاء؟.

قال: لا أوقت في ذلك وقتاً دون حسن التنقي والغسل، فإن أنقاه في مرة واحدة فليتوضأ فيه)[٢٣٥].

---

٢٣٤ المدونة الصغرى ج١ ص ١٣، بشر بن غانم الخراساني.

٢٣٥ المرجع السابق ج١ ص ١٧.

هذا الحديث يدل على أن ولوغ الكلب في الإناء يوجب غسله سبع مرات بعضها بالتراب، لكن لماذا اكتفى بعض الفقهاء كجابر بن زيد وضمام بن السائب بثلاث مرات، وبعضهم كأبي المؤرج قالوا إن حسن التنقي والغسل هو المطلوب ولو بمرة واحدة؟.

عالم كابن عبدالبر رفض هذه الأقوال بحجة أنه قد (ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا ما يرد قول هؤلاء، فلا وجه للاشتغال به)[٢٣٦]. لكن هل بالفعل كان كل هؤلاء العلماء على غفلة عن هذه الرواية وهم الذين رووها؟ أم أن هناك نظراً آخر في المسألة؟.

الظاهر من قراءة النصوص الواردة في التطهر من النجاسات أنها جميعاً تهدف إلى تحقيق الطهارة الحسية والمعنوية للفرد والبيئة من حوله

قال الله تعالى: ﴿ وَاللّهُ يُحِبّ الْمُطّهّرِينَ﴾ التوبة:١٠٨.

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ﴾ المدثر:٤.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِى الأرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ الأعراف:٥٦.

وسخر الله سبحانه وتعالى للناس أشياء تنقيهم من النجاسات والأحداث قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السّمَآءِ مَآءً طَهُوراً﴾ الفرقان:٤٨.

وتشريعات الإسلام الثابتة المستقرة من الأمر بالغسل من الجنابة والحيض والنفاس والوضوء للصلاة وغسل النجاسات من البدن والثياب والمرافق المختلفة والاستنجاء بالماء والمنظفات؛ كلها تعطينا دلالة قطعية في أن إزالة النجاسة والتطهر منها أمر لا

---

٢٣٦ التمهيد ج١٨ ص٢٦٩ ، يوسف بن عبدالله بن عبدالبر.

بد منه بأي من الوسائل المعتبرة المؤدية للغرض، وهذا يعني أن الوسائل والطرائق مقصودة لأجل تحقيق هذه الغاية؛ لا أنها مقصودة لذاتها، لذا رأى هؤلاء النفر من العلماء أنه (ليس من شرط غسل النجاسة العدد)[٢٣٧].

ج ـ روى الربيع (٧٢١): أبو عبيدة عن جابر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتنى كلباً لا لزرع ولا لضرع نقص من أجره كل يوم قيراط)، وفي رواية قيراطان، والقيراط في المثل مثل جبل أحد.

وقد روى (أبو عبيدة عن جابر عن الحسن البصري قال: إنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اقتناء الكلب لأنه يروع المسلمين، ولذلك قال بنقص القيراطين من الأجر).

وهذا التوجيه للرواية الذي رواه أبو عبيدة وجابر عن الحسن في سياق يدل على إقراره لم يذكر في الرواية بالطبع، لكنه توجيه توجبه الأصول التشريعية، فالله تعالى أباح لعباده اتخاذ هذه الجوارح التي علموها ودربوها فيما ينفعهم في حياتهم ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ المائدة:٤، فلم يكن من محمل صحيح تحمل عليه سوى الترويع والتخويف الذي يمكن أن تحدثه وهو محرم قطعاً لأنه من الإيذاء قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ

---

٢٣٧ كتاب الإيضاح ج١ص ٨١، عامر بن علي الشماخي. وقال محمد بن جعفر الإزكوي في "الجامع" ج١ ص ٢٧٤: (وقد اختلف الناس في تطهير الإناء من ولوغ الكلب، فقال بعضهم سبع، وقال قوم بخمس، وقال قوم بثلاث، وقال قوم يغسل كما يغسل غيره).

﴿بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ الأحزاب:٤٨ ، وقال صلى الله عليه وسلم: (من روع مسلماً روعه الله يوم القيامة، ومن أفشى سر أخيه أفشى الله سره يوم القيامة على رؤوس الخلائق)[٢٣٨] .

مقارنة بين منهجين

عرضنا فيما سبق أبرز معالم المنهج الحديثي عند فقهاء المدرسة الجابرية، وهو منهج مورس قبل اكتمال منظومة الجرح والتعديل، وقد لاحظنا من خلال التتبع أن:

١ . الحكم على الرواة ليس من خلال العدالة والضبط فحسب (=مع التنبيه على أهمية ذلك بالطبع)، لكن يضاف إلى ذلك شرط الفقه والقدرة على تمييز ما يروى[٢٣٩] ، قال الإمام أبو عبيدة: (لا ينبغي أن تأخذ العلم من مبتدع لأنه يدعو إلى بدعته، ولا من سفيه يدعو إلى سفهه، ولا ممن يكذب وإن كان يصدق في فتواه، ولا ممن لا يفرز مذهبه من مذهب غيره)[٢٤٠] ، فنبه الإمام أبو عبيدة على ضرورة أن يكون الراوي عدلاً ، وممن "يفرز مذهبه من مذهب غيره" أي أن يكون فقيهاً بما يروي حتى يجنب الفقه القائم على الأصول المستقرة ما يعكر صفوه من مرويات غير منضبطة بضابط الفقه، والتي عبر عنها هنا بالمذهب.

٢ . أن الحكم على الرواية يعتمد في الجانب الأكبر منه على النظر في المتن، ثم بالدرجة الثانية على السند ، وهنا تكمن مفارقة أخرى بين معالم المنهج الحديثي عند فقهاء المدرسة الجابرية ومنهج الجرح والتعديل عند مدرسة أهل الحديث، فمن خلال تأمل

---

٢٣٨ الربيع (٧٢٠).

٢٣٩ الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وفقهه ص ٣٦٦ ، مبارك بن عبدالله الراشدي.

٢٤٠ دراسات عن الإباضية ص ١٢٧ ، عمرو خليفة النامي. نقلاً عن مسائل أبو عبيدة ص ٢٤ .

الجوانب النظرية والتطبيقية لمنهج الجرح والتعديل عند مدرسة أهل الحديث يتبين أنه (في غالبه الأغلب منصب على الجانب الإسنادي، ولم يكن ينظر في المتن إلا في القليل النادر)[٢٤١].

ومن خلال النصوص التي استخرجناها من تراث المدرسة الجابرية وعرضناها في المباحث السابقة نخلص إلى مقاربة مفادها أن:

– الجم الغفير والغالبية العظمى من القواعد الحديثية لديهم تركز على النظر في المتن وتحديد موقع الرواية في البنية التشريعية.

– الأقل من القواعد الحديثية لديهم للنظر في الجوانب الإسنادية وسلاسل الرواة.

كتب الجرح والتعديل

يتساءل الكثير من الباحثين وطلاب العلم عن عدم وجود كتب في أوصاف الرواة وأحوالهم (=الجرح والتعديل) في المذهب الإباضي كما هو الحال عند مدرسة أهل الحديث ومدرسة آل البيت، وإذا استثنينا القليل من كتب السير والطبقات في المذهب الإباضي فإنه لا توجد لديهم كتب في أوصاف الرواة وأحوالهم (=الجرح والتعديل).

وبعد دراسة لهذا التساؤل المطروح منذ عدة سنوات توصلت إلى الآتي:

١ . أن الرواة في المذهب كانوا قلة لا يتعدون العشرات وهم في غالبيتهم من الفقهاء الثقات الذين يقتدى بهم، وقلة الرواة عندهم ناشئة عن أمور موضوعية تتعلق بضوابط الرواية وتلقيها.

---

٢٤١ السلطة في الإسلام ص٢٨٥، عبدالجواد ياسين.

٢ . أن الرواية الحديثية لم تتضخم لديهم، فمسند الإمام الربيع على سبيل المثال يحوي معظم أبواب الشريعة وعدد أحاديثه (٧٥٤) حديثاً، ومدونة أبي غانم الخراساني تحوي (١٤٠) حديثاً[٢٤٢]، وهذا المنهج مورس من قبل هؤلاء العلماء عن وعي كامل بأبعاده وخلفياته، وفي هذا يقول الإمام الربيع: (بلغنا أن عدة ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف حديث، منها تسعمائة في الأصول والباقي في الآداب والأخبار)[٢٤٣]، ويروي الفسوي: (حدثنا أبو عمر حفص بن عمر حدثنا زياد بن الربيع اليحمدي حدثنا صالح يعني الدهان قال: ما سمعت جابراً يعني ابن زيد قط يقول قال رسول الله، وصبيان ها هنا يقولون قال رسول الله في الساعة عشرين مرة، وما علمت جابراً روى عن رسول الله أكثر من خمسة عشر أو ستة عشر حديثاً أو نحو ذلك)[٢٤٤]، والظاهر أن تقييد العدد بـ ١٥ أو ١٦ حديثاً ليس مقصوداً، أو أن السياق كان عن باب معين، لكن الشاهد أن ظاهرة الإكثار من الرواية كانت محط قلق فقهاء المدرسة الجابرية كما عبر عنها أبو نوح صالح الدهان تلميذ جابر بن زيد، ومرد هذا القلق هو (صبيان ها هنا يقولون: قال رسول الله في الساعة عشرين مرة)، بينما كان الفقهاء أمثال جابر بن زيد لا يروون إلا أقل القليل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين عاصروا الجم الغفير من جيل الصحابة.

---

٢٤٢ رواية الحديث عند الإباضية ص١١١، صالح بن أحمد البوسعيدي.

٢٤٣ كتاب الترتيب، مسند الربيع ص ٣٢٨.

٢٤٤ المعرفة والتاريخ ج٢ ص٩، يعقوب بن سفيان الفسوي.

وهذا الإقلال من الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس معيباً ولا يدل على ضعف علمي بحال من الأحوال، بل هو المنهج الذي سار عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الاستقرار السياسي.

وهذا الإقلال في نظري مرده إلى أمرين:

أولاً: الخشية من اختلاط التطبيق بالتشريع، وخاصة في عملية الرواية التي تتم من غير الفقهاء العارفين بظروف وملابسات الرواية، فتأتي آليات الاقتطاع والحذف والبتر والرواية بالمعنى، لتقدم للأجيال نصاً على أنه نص تشريعي، في حين أنه نص تطبيقي (=واقعة حال لا تتعداها، أو تطبيق لنصوص تشريعية أخرى). ومن أمثلة ذلك كثير من المرويات التي صنفت تحت باب الطب النبوي، فكثير منها ليس تشريعاً، إنما هي تعبير عن جملة المعارف الموجودة في ذلك العصر، وإنما جاءت تطبيقاً لأصل تشريعي وهو وجوب التداوي[٢٤٥] ومنها قول الله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة:١٩٥ وقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ النساء:٢٩، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)[٢٤٦].

وهذا أمر جعل الكثير من فقهاء الصحابة يتعاملون بحذر مع روايات غير الفقهاء منهم، ويمكن للقارئ استقراء ذلك من تعامل أمثال ابن عباس والسيدة عائشة وعمر بن

---

٢٤٥ حول هذه المسألة انظر كتاب "الطب النبوي الوقائي" محمود الحاج قاسم. وكتاب "مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية" محمد سليمان الأشقر.

٢٤٦ البخاري (٥٣٥٤)، السنن الكبرى للنسائي (٧٥٥٥)، ابن ماجه (٣٤٣٩).

الخطاب وغيرهم مع مرويات من كان غير فقيه منهم، وكل ذلك مدون في الصحاح والسنن.

ومثال ذلك ما جاء عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الشؤم في الدار والمرأة والفرس)، لكن السيدة عائشة رضي الله عنها اعترضت على ذلك وبينت أن رواية أبي هريرة مجردة عن الملابسات التي قيلت فيها، لذا جاءت الرواية مخالفة للأصول العامة الثابتة بالاستقراء الكلي لمجموع النصوص الصحيحة الثابتة.

ففي رواية مكحول عند الطيالسي (١٥٣٧) أنه قيل لعائشة أم المؤمنين إن أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثم الشؤم في ثلاث في الدار والمرأة والفرس)، فقالت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه سلم يقول: (قاتل الله اليهود يقولون: إن الشوم في ثلاث في الدار والمرأة والفرس). فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله[٢٤٧].

ثانياً: الخشية من طمر الدلالات القرآنية بروايات هي في حقيقتها تعامل زمني معها، في حين أن دلالات القرآن الكريم على تلك القضايا دلالات منطلقة عبر الزمان والمكان، وهو ما يعبر عنه عبدالجواد ياسين بخاصية الاكتناز أي وجود اكتناز هائل للنص القرآني يستثار عند احتكاك النص القرآني بالواقع، ولذلك كانت نصائح الفاروق عمر إلى البعوث التي يرسلها إلى الأمصار بأن يقلوا من الرواية ولا يشغلوا الناس عن القرآن، اعتماداً على ما استقر عليه العمل من السنن المعروفة بدلاً من إحداث مرويات مجتزأة عن سياقاتها وملابساتها.

---

٢٤٧ كتاب الجامع ج١ ص ٥٤٧–٥٤٨، عبدالله بن محمد بن بركة.

روى ابن ماجه (٢٨) والحاكم في المستدرك (٣٤٧) والدارمي في السنن (٢٨٠) عن قرظة بن كعب (بعث عمر بن الخطاب رهطاً من الأنصار إلى الكوفة، فبعثني معهم فجعل يمشي معنا حتى أتى صرار – وصرار ماء في طريق المدينة– فجعل ينفض الغبار عن رجليه ثم قال: إنكم تأتون الكوفة فتأتون قوماً لهم أزيز بالقرآن فيأتونكم، فيقولون قدم أصحاب محمد قدم أصحاب محمد، فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث، فاعلموا أن أسبغ الوضوء ثلاث وثنتان تجزيان، ثم قال: إنكم تأتون الكوفة فتأتون قوماً لهم أزيز بالقرآن، فيقولون قدم أصحاب محمد قدم أصحاب محمد، فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم فيه.

قال قرظة: وإني كنت لأجلس في القوم فيذكرون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإني لمن أحفظهم له، فإذا ذكرت وصية عمر سكتُّ).

ويرى عبدالجواد ياسين أن (علم الحديث التقليدي كان يواجه بالفعل معضلة عسيرة، تتمثل في هذا الكم الهائل من الروايات الواجب فحصها، وهذا العدد الغفير من الرواة الواجب وزنهم بالجرح والتعديل، ولكن هذه المعضلة بغير شك، كانت تحكمية إلى حد كبير، بمعنى أنه كان بالواسع تلافيها من حيث الابتداء. لقد صنع أهل الحديث المشكلة بأيديهم، ثم راحوا يجهدون أنفسهم في وضع الحلول لها. وذلك أن عملية جمع الحديث وتدوينه لم تكتف بالمتواتر المستفيض أو المشهور الشائع كما كان ينبغي، بل راحت تفتش في ضرب عجيب من المبالغة والنهم، وبقدر واضح من التصنع والافتعال عن كل خبر تشتم فيه رائحة النسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم. الأمر الذي فتح الباب واسعاً أمام سيل جارف من الروايات والأخبار، كان بعضها

صحيحاً بغير شك، ولكنها صنعت بغير شك كذلك هذه المشكلة التي اخترع لحلها علم الحديث)[٢٤٨].

تطبيقات عملية

بعد أن ذكرنا عدداً من القواعد الحديثية عند عموم فقهاء المدرسة الجابرية، سوف نقدم أمثلة عملية، نحاول فيها تطبيق بعض القواعد التي قمنا باستخراجها من النصوص المأثورة عنهم.

- المثال الأول: روى الربيع: (٥١٠): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي مسعود قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك؟ فسكت حتى نسينا أنه سأله فقال: (قولوا اللهم صل على نبينا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم).

قال الربيع: قال أبو عبيدة: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته هكذا علمناه".

وهذا الحديث رواه أيضاً: البخاري (٤٥١٩)، ومسلم (٤٠٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٢٠٨)، والترمذي (٤٨٣)، وأبو داود (٩٧٦) وغيرهم.

هذه الرواية كثيراً ما يتداولها شراح الأحاديث في باب صفة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويرون فيها الصيغة المفضلة أو الصحيحة –كما هو تعبير بعضهم–

---

٢٤٨ السلطة في الإسلام ص٢٣٧، عبدالجواد ياسين.

للصلاة على النبي عليه السلام، وللتعامل مع هذه المسألة دعونا نستحضر بعضاً من القواعد التي استخرجناها من تراث المدرسة الجابرية:

- قاعدة ١: (لا بد من تمييز الأحاديث والروايات التي جرى عليها العمل من غيرها، فـ"الصحيح منها ما أيده العمل أو وقع عليه الإجماع لذلك"[٢٤٩]، فالظهور المتأخر للروايات وعدم قيام عمل عليها مؤذن بضرورة الفحص والتمحيص الدقيق والعرض على الأصول، "فلذلك تجب الأسانيد والبحث عن صحتها ثم التنازع في تأويلها إذا صحت بنقلها، فإذا اختلفوا في حكمها كان مرجعهم إلى الكتاب"[٢٥٠]، إذ قد تكون من جملة ما نسخ فترك، أو هي من جملة الدس المتأخر الذي يراد به التشويش على الأصول الثابتة، أو هي من جملة التسريبات من الثقافات الأخرى، أو هي نتاج أي عارض من العوارض الإنسانية الأخرى كالخطأ والوهم والنسيان والرواية بالمعنى)، وقد ناقشنا هذه القاعدة وضربنا عليها الأمثلة، والآن دعونا نعطي تصوراً لهذه المسألة بناء على ما قلناه:

هذه الصيغة الواردة في الحديث (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد) لم يجر عليها عمل، والصيغ المتداولة عملياً للصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام الواردة إذا ذكر هي "عليه السلام" و "صلى الله عليه وسلم" أو "عليه الصلاة والسلام" كما هو صنيع علماء المدرسة الجابرية في مسند الربيع ومدونة أبي غانم وآثار الربيع والديوان المعروف وكافة تآليفهم الأخرى، وهو الذي درج عليه المسلمون منذ عهود الصحابة

---

٢٤٩ كتاب الجامع ج١ ص ٥٤٧، عبدالله بن محمد بن بركة.

٢٥٠ المرجع السابق ج١ ص ٢٨٠،.

والتابعين متى ما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام، والتآليف الحديثية والفقهية التي دونت كلامهم تشهد بهذا.

وكذلك الحال بالنسبة لذكر النبي صلى الله عليه وسلم في تشهد الصلاة، فإن علماء المدرسة الجابرية الذين تولوا عملية التدوين الروائي في المذهب لم يطالبوا أحداً بذلك؛ أخذاً بما دلت عليه السنة العملية في عدم مطالبة الناس بذلك في صلاتهم، إذ أن الصلاة عبارة عن أفعال وأقوال توقيفية لا مجال للزيادة عليها، قال أبو غانم في المدونة: (التشهد أن تقول حين تجلس بعد كل ركعتين: "التحيات لله والصلوات الطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله".

ثم تدعو بعد كمال الرابعة وبعد هذا التشهد بما بدا لك وبما يصلح لك أن تدعو به.

قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: فهذا تشهد عبدالله بن مسعود)[٢٥١].

وهذه الكلمات كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على تبليغها وتعليمها للناس (قال الربيع وأبو المؤرج: بلغنا عن عبدالله بن مسعود أنه كان يعلم أصحابه هذه الكلمات من التشهد كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وكان ابن مسعود يقول: "علمنيهن النبي عليه الصلاة والسلام")[٢٥٢].

– قاعدة ٢: (صحة السند والمتن لا تعني بالضرورة حيزاً واسعاً في البناء التشريعي: فإن الرواية قد تصح سنداً ومتناً لكن قد تلزم حيزاً تشريعياً محدوداً تفرضه الأصول

---

٢٥١ المدونة الصغرى ج١ ص ٣١، بشر بن غانم الخراساني.

٢٥٢ المرجع السابق ج١ ص ٣٢.

الكلية والقواعد التشريعية الثاوية في نصوص الكتاب والسنة، وبعبارة أخرى فإن صحة الرواية غير فقه الرواية).

والسؤال الآن: ما هي الأصول التشريعية التي نبني عليها فهمنا للصلاة على (آل محمد)؟ وهل هو شعار على المسلم أن يلتزم به كي يكون مطبقاً للسنة بحذافيرها؟.

نبدأ بالإجابة على هذا التساؤل بالطريقة المتبعة عند الفقهاء بالتعريف اللغوي للمصطلحات:

– فالصلاة: هي مطلق الدعاء وهي (من الله رحمة، ومن الخلق كلهم دعاء؛ لأن الاستغفار من الملائكة دعاء أيضاً كما صرح به الإمام أبو سعيد رضي الله عنه في معتبره)[٢٥٣].

– والآل: هم آل الرجل أي أهله أو عياله وآله أيضاً أتباعه[٢٥٤].

وقد أخبرنا الله تعالى أنه وملائكته يصلون على النبي ﴿إِنّ اللّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النّبِيّ﴾ الأحزاب:٥٦ وأمرنا بالاقتداء ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ صَلّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً﴾ الأحزاب:٥٦.

فصلاة الله على عباده هي إسباغه لرحمته عليهم ولطفه بهم، وهم ممن وفوا بالقول والعمل، قال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنّكُمْ بِشَيْءٍ مّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثّمَرَاتِ وَبَشّرِ الصّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنّا للّهِ وَإِنّـآ إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ﴿١٥٦﴾ أُولَـَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مّن رّبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـَئِكَ هُمُ

٢٥٣ مشارق أنوار العقول ج١ص ٨٢–٨٣ (بتصرف)، عبدالله بن حميد السالمي.

٢٥٤ لسان العرب ج١١ ص ٣٩.

﴿الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة:١٥٥-١٥٧ ، وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ الأحزاب:٤٣ .

لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : (اللهم صل على آل فلان) ، فلما أتاه ابن أبي أوفى بصدقته قال : (اللهم صل على آل أبي أوفى)[٢٥٥] .

وكذا الحال في الصلاة على (آل محمد) وهم الموفون بالقول والعمل من أزواجه أو ذريته أو أتباعه على اختلاف الآراء في ذلك.

فالصلاة على آل أبي أوفى أو غيرهم مثلها مثل الصلاة على (آل محمد) ، فالصلاة على عموم المؤمنين الموفين بالقول والعمل ، فليست هناك ميزة خاصة (لآل محمد) على عموم المؤمنين تجعلهم يقترنون بالنبي صلى الله عليه وسلم في طبيعة تعبر عن وراثة النبوة ، وقد نبه القرآن الكريم على هذه القضية بالذات ، قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب:٤٠ .

فالحديث الوارد هو عبارة عن واقعة حال تعبر عن الصلاة على عموم المؤمنين الموفين، وكما رأينا فإن الصلاة على آل محمد مَثلُها مَثَلُ لما كان الناس يأتون بصدقاتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول لهم : (اللهم صل على آل فلان) ، فلما أتاه ابن أبي أوفى بصدقته قال : (اللهم صل على آل أبي أوفى) .

ومفهوم (الآل) قُدِم في التراث الروائي لدى مدرستي أهل الحديث وآل البيت متشبعاً بصراعات التاريخ بكل إيحاءاته وانفعالاته ، وصور على أنه مفهوم ديني مقدس يقترن بوراثة النبوة ، وعندما نسبر النصوص الثابتة المستقرة من الكتاب والسنة نجد أننا

---

٢٥٥ البخاري (١٤٢٦) ، مسلم (١٠٧٨) .

غير مطالبين بأن نُدخل في دائرة الإيمان أناساً بأعيانهم عاشوا في كنف النبي صلى الله عليه وسلم، فالإيمان مرتبط في هذ الموضع بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نفى القرآن الكريم أية صلة بينه وبين أحد غيره في وراثة النبوة ومتعلقاتها ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب:٤٠، فما يسمونه بالصلاة البتراء– وهي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقط دون اتباعها بالصلاة على الآل – هو في حقيقته اتهام صريح للقرآن الكريم بالبتر والتقصير الذي طالبنا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ الأحزاب:٥٦، فالقرآن الكريم اقتصرت مطالبته لنا بالصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم دون ذكر الآل أو غيرهم.

وفي رأينا أن أي طرح فقهي يعلي من شأن هذا المفهوم فوق ما ذكرنا هو طرح لم يستطع أن يستوعب كليات الدين وقواعده، ويصب في الوقت ذاته في خانة المنظومات الفكرية التي تعلي من شأن هذا المفهوم التاريخي.

- المثال الثاني: روى الربيع (٣٨٤): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الشرب قائماً، ويروى أنه شرب من زمزم قائماً. قال ابن عباس: المرجع فيه إلى كتاب الله وهو قوله (كلوا واشربوا) فهذه الآية تبيح الأكل والشرب على أي حال إلا في موضع خصه النهي من النبي صلى الله عليه وسلم.

والحديث أيضاً رواه مسلم (٢٠٢٤) (٢٠٢٧).

وروى مسلم (٢٠٢٦) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يشربن أحد منكم قائماً فمن نسي فليستقئ).

كيف نتعامل مع هذه الروايات، هل هي ثابتة وصحيحة؟ وهل نجعل هذا النهي محكاً يقاس به دين الإنسان واستقامته؟ وما هي مكانة هذه الروايات في بناء صرح الإيمان في آداب الأكل والشرب؟.

دعونا نطبق بعض القواعد التي استخرجناها:

قاعدة ١: (صحة السند والمتن لا تعني بالضرورة حيزاً واسعاً في البناء التشريعي: فإن الرواية قد تصح سنداً ومتناً لكن قد تلزم حيزاً تشريعياً محدوداً تفرضه الأصول الكلية والقواعد التشريعية الثاوية في نصوص الكتاب والسنة، وبعبارة أخرى فإن صحة الرواية غير فقه الرواية).

قاعدة ٢: (لا بد من حياطة الرواية وفهمها في ضوء القواعد الكلية والأصول التشريعية لاكتشاف أي خلل فيها "=العلة" وتحديد موقعها في البناء التشريعي).

في هذا الحديث يرى ابن عباس أن (المرجع فيه إلى كتاب الله، وهو قوله (كلوا واشربوا) فهذه الآية تبيح الأكل والشرب على أي حال إلا في موضع خصه النهي من النبي صلى الله عليه وسلم) وهو رأي علي بن أبي طالب[٢٥٦].

والظاهر أن عبدالله بن عباس وعلي بن أبي طالب عولا على مجموعة من المقدمات النصية من الكتاب والسنة شكلت القواعد الكلية والأصول التشريعية في هذا الباب، من ذلك:

---

٢٥٦ البخاري (٥٢٩٣).

١ . قول الله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم:٧ فلا بد من شكر النعم بشكر المنعم سبحانه وتعالى ومن ذلك الدعاء والتسمية.

٢ . قول الله تعالى : ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المؤمنون:٥١ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الأعراف:١٥٧ ، أكل الحلال الطيب المباح والبعد عن الحرام والخبيث.

٣ . قول الله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف:٣١ ، النهي عن الإسراف والتبذير.

هذه هي الخطوط العريضة أو القواعد العامة التي تحكم آداب الأكل والشرب، فأين يمكن أن نضع مثل هذه الروايات في البنية الكلية لهذه القواعد؟.

الذي يظهر من هذا الاستقراء لنصوص الشريعة أن هذه الروايات ترجع إلى الأمور التحسينية؛ أي الهيئة الأفضل والأحسن، الهيئة التي قد تكون هي غالب وضعية الإنسان، فالإنسان يتناول الطعام والشراب غالباً أثناء جلوسه سواء كان على كرسي أو على الأرض، فهي الهيئة التي تسترخي وتستريح فيها أعضاء الإنسان، فلا تتعلق المسألة بشئ من أمور الدين التي يمكن أن يخالفها الإنسان، ولذلك قال فقهاء الصحابة أمثال ابن عباس وعلي بن أبي طالب أنه يشرب واقفا أو جالساً أو متكئاً، واعتمدوا على الإطلاق في قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف:٣١ ، بل إن ابن عباس يرى أن النهي جاء مخصوصاً في حادثة معينة لأجل اعتبارات ظرفية (فهذه الآية تبيح الأكل والشرب على أي حال إلا في

موضع خصه النهي من النبي صلى الله عليه وسلم) فنقلها الرواة على أنه نهي من النبي صلى الله عليه وسلم عن ذات الشرب واقفاً، ونفس الكلام عن علي بن أبي طالب أنه (قام فشرب فضله وهو قائم ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قياماً، وإن النبي صلى الله عليه وسلم صنع مثل ما صنعت). وذهب بعض من أهل العلم إلى أن الشرب واقفاً من المكروهات فحسب، والمكروه يمكن أن يرتفع لأدنى ضرورة، والشرب واقفاً ليس أمراً تتعلق به استقامة الإنسان أو تدينه، إنما هو من الأمور التحسينية التكميلية.

- قاعدة ٣: (لا بد للرواية من أصل من الكتاب أو السنة)[٢٥٧].
- قاعدة ٤: (لا بد من تمييز الأحاديث والروايات التي جرى عليها العمل من غيرها.

فـ"الصحيح منها ما أيده العمل أو وقع عليه الإجماع لذلك"[٢٥٨]، فالظهور المتأخر للروايات وعدم قيام عمل عليها مؤذن بضرورة الفحص والتمحيص الدقيق والعرض

---

٢٥٧ قال الشاطبي في الموافقات ج٣ ص ١٥– ٢٥: (كل دليل شرعي إما أن يكون قطعياً أو ظنياً:

– فإن كان قطعياً فلا إشكال في اعتباره كأدلة وجوب الطهارة من الحدث والصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتماع الكلمة والعدل وأشباه ذلك....

– وأما الثاني وهو الظني الراجع إلى أصل قطعي، فإعماله أيضاً ظاهر، وعليه عامة أخبار الآحاد فإنها بيان للكتاب لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ومثل ذلك ما جاء في الأحاديث من صفة الطهارة الصغرى والكبرى والصلاة والحج وغير ذلك مما هو بيان لنص الكتاب وكذلك ما جاء من الأحاديث في النهي عن جملة من البيوع والربا وغيره من حيث هي راجعة إلى قوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) وقوله تعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) إلى سائر أنواع البيانات المنقولة بالآحاد أو التواتر، إلا أن دلالتها ظنية، ومنه أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام "لا ضرر ولا ضرار" فإنه داخل تحت أصل قطعي في هذا المعنى، فإن الضرر والضرار مبثوث منعه في الشريعة كلها في وقائع جزئيات وقواعد كليات كقوله تعالى (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) (ولا تضاروهن).....

– وأما الثالث وهو الظني المعارض لأصل قطعي ولا يشهد له أصل قطعي فمردود بلا إشكال.

– وأما الرابع وهو الظني الذي لا يشهد له أصل قطعي ولا يعارض أصلاً قطعياً فهو في محل النظر).

٢٥٨ كتاب الجامع ج١ ص ٥٤٧، عبدالله بن محمد بن بركة

على الأصول، "فلذلك تجب الأسانيد والبحث عن صحتها ثم التنازع في تأويلها إذا صحت بنقلها، فإذا اختلفوا في حكمها كان مرجعهم إلى الكتاب"[٢٥٩]).

يبقى الشق الأخير من الرواية (ومن نسي فليستقي) عند مسلم، فهذه لا يمكن أن تقبل، إذ ليس لها أصل تشريعي تستند إليه[٢٦٠]، والنبي صلى الله عليه وسلم شرب من ماء زمزم قائماً وما تقيأ، وورد عن كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أنهم شربوا قياماً وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة[٢٦١]، فالعمل لم يكن عليها، فلا تقبل لمخالفتها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولكونها لا تستند إلى أصل تشريعي.

ويمكننا القول في خاتمة هذا القسم:

١. إن السنة تعبر عن الثابت المستقر من الشرع، وروايات الآحاد أو أحاديث الآحاد تقبل أو ترد أو تأول بناء على عرضها على القواعد والأصول التشريعية الثاوية في الكتاب والسنة، فالسنة تعبير عن المعاني والدلالات الثاوية في النصوص، وهذا ما قرره محمد بن محبوب بن الرحيل في "أبواب مختصرة من السنة"، حيث (اعتبر كل ما جاء الشرع بحكمه أنه من السنة، سواء ورد به الكتاب أم الحديث أم كان عن رأي واجتهاد، ما دام الكل مشروعاً بسنة الرسول الموحى إليه، ويذكر أحياناً مسائل ثبتت بالسنة ويؤيدها الإجماع أو القياس)[٢٦٢].

---

٢٥٩ المرجع السابق ج١ ص ٢٨٠.

٢٦٠ نقل ابن حجر العسقلاني في فتح البارئ ج١٠ ص ٨٣ عن القاضي عياض قوله: (لا خلاف بين أهل العلم في أن من شرب قائماً ليس عليه أن يتقيأ).

٢٦١ فتح البارئ ج١٠ ص٨٤، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

٢٦٢ مصادر علم الأصول العمانية ص٩، مصطفى باجو (مخطوط).

٢ . إن قراءة مضامين الروايات والأحاديث وتمحيصها (=النقد الداخلي للرواية أو نقد المتن) شكل المعلم البارز والأولوية المتقدمة في البناء الأصولي والحديثي لدى عموم فقهاء المدرسة الإباضية الأولى (=المدرسة الجابرية).

٣ . إن روايات الفتن والملاحم أو الأشراط المستقبلية للساعة ليست من أبواب الأحكام ولا من أصول العقائد، فـ(الزيدية والإباضية والمعتزلة ظلوا ملتزمين مع اصطلاحهم أن العقائد لا تثبت بأخبار الآحاد إلى حد كبير)[٢٦٣]، بل تعاملوا معها على أنها أخبار ينظر في مدى تطابقها مع الوقائع، (وبمعنى أكثر وضوحاً: إن هذه المسائل المستقبلية، لكي تأخذ دورها إلى ساحة الدائرة الغيبية لدى الإنسان؛ فيجب أن تكون عرية من مصادمة القرآن الكريم أولاً، وأن تكون متوافقة مع حكمة الشارع ومقاصد الشريعة ومكارمها، وأن يكون صدورها عن الشارع صحيحاً)[٢٦٤]، و(لا بد من رد الروايات الصريح باطلها)[٢٦٥] كما يرى ناصر بن أبي نبهان الخروصي.

---

٢٦٣ المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية ص ٢٥٨، عداب محمود الحمش.

٢٦٤ المرجع السابق ص ٢٥٤.

٢٦٥ قاموس الشريعة ج٦ ص ١٢٩، جميل بن خميس السعدي.

القسم الثاني

قراءة في أشراط الساعة

موضوع أشراط الساعة من الموضوعات التي لم تبحث من خلال استحضار رؤية قرآنية تحاكم المفردات الروائية إليها، وإنما اتجه البحث في ثبوت الروايات الواردة في الموضوع، وهذا الأمر بالتحديد أخل بالتوازن في معادلة الفهم، مما سمح للكثير من الروايات المخالفة للدلالات القرآنية بالمرور والهيمنة على منظومة التفكير.

متى الساعة؟

سؤال رددته كثير من العقول في محاولة منها لاكتناه العوالم التي تجهلها، وقد أجاب القرآن عن هذا التساؤل بأن الساعة من أمر الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف:١٨٧ وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ طه:١٥، وقال تعالى ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ الأحزاب:٦٣. وقد دلت آيات الكتاب العزيز على أن الساعة تأتي بغتة[٢٦٦] أي فجأة.

---

٢٦٦ جاء في لسان العرب ج٢ ص ١١: (وباغَتَه مُباغَتةً و بغاتاً: فاجأه. وقوله عز وجل: فأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أي فَجْأَة).

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام:٣١.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف:١٨٧.

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يوسف:١٠٧.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ ولا عَن ظُهُورِهِمْ ولا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ولا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ الأنبياء:٣٨-٤٠.

وقال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ الحج:٥٥.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ الزخرف:٦٦.

والنبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل متى الساعة قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[٢٦٧].

---

٢٦٧ البخاري (٥٠)، مسلم (٨).

أشراط الساعة

جاء ذكر أشراط الساعة في قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ محمد ١٨، (والأشراط جمع شَرَط، وهو العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه، وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة)[٢٦٨].

في هذه الآية أمران:

- أن للساعة أشراطاً
- أن الساعة تأتي بغتة

والسؤال الذي يُطرَح: كيف يتأتى القول بأن للساعة أشراطاً (=علامات) مستقبلية تحدد وبشكل دقيق إلى حد كبير موعد قيامها ثم تأتي مفاجئة، لا سيما وأن المنظومة الروائية قد جاء فيها الكثير مما يدل على تحديد قريب جداً لوقت قيام الساعة مثل:

- ما رواه أحمد (٢٣٤٧٦) وأبو داود (٤٢٤٤) وابن أبي شيبة (٣٧١١٣) وعبدالرزاق (٢٠٧١١) ونعيم بن حماد في الفتن (١٣١٠) وغيرهم من طريق حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الدجال ثم عيسى، ثم لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة).

- ما رواه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (.....فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم

---

٢٦٨ التحرير والتنوير ج٢٦ ص ٨٧، محمد الطاهر بن عاشور.

فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة).

– ما رواه ابن أبي شيبة (٣٧٦٠٠) عن عبد الله بن عمرو قال: (يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة).

– (والمتحصل من الأحاديث المشهورة في مصادر السنة أن مدة حكمه "=المهدي" قليلة وأنه يخرج في زمنه أو بعده الدجال فيقتله عيسى بن مريم عليه السلام، وكأن قيادة المسلمين تكون بيد عيسى بعد المهدي عليهما السلام أو يكون هو معه، ثم يخرج يأجوج ومأجوج فينتصر عليهم المسلمون في النهاية أيضاً، ثم تظهر دابة الأرض وبقية أشراط الساعة)[٢٦٩] في تتابع ونسق عجيب وفي مدد زمنية حددتها الروايات بدقة كبيرة ثم تعقبها الساعة بزمن يسير بعد الريح التي تقبض أرواح المؤمنين.

الجواب يكمن في نفس الآية، فالله تعالى يقول عن أشراط الساعة ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ محمد ١٨ (فهذه الآية تثبت أن للساعة أشراطاً ونحن نقول بذلك لكنها مضت وذهبت)[٢٧٠] والأصل (أن "جاء" فعل ماض، و"قد" قبله للتحقيق)[٢٧١]، والدلائل من الكتاب العزيز تدل على هذا المعنى، من ذلك:

---

٢٦٩ تعليق على معجم أحاديث الإمام المهدي ج٢ ص ٢٤٦.

٢٧٠ صحيح شرح العقيدة الطحاوية ص ٥١٥، حسن بن علي السقاف.

٢٧١ المرجع السابق ص ٥١٦.

١ . أن مجئ المسيح عليه السلام وبعثته التي ولت وذهبت عِلْم للساعة[٢٧٢]

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلنا مِنكُم مَّلائِكَةً فِى الأرض يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝٦٦ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف :٥٧– ٦٧ .

يلاحظ أن الآيات لم تتحدث قط عن شئ اسمه عودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان وإنما تحدثت عن بعثته وأنه ﴿عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ . بل إن تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بعودة المسيح ونزوله يصطدم اصطداماً مباشراً مع قوله تعالى من بعد ﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ ، فإن هذه الروايات التي حمل عليها قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ تحدد وبشكل دقيق –إلى حد كبير– زمن قيام الساعة ، في حين أن قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا

٢٧٢ أي يُعلَم به مجيء الساعة (الطبري ج ٢٥ ص٩٠) .

السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ في نفس السياق يحسم المسألة في أن زمن قيام الساعة مباغت ولا يمكن تحديده بهذه الدقة المتناهية التي تصورها هذه الروايات.

قد يتساءل البعض إذا كان الأمر كما تقول فما هو تفسير الآية؟!.

المسألة بسيطة جداً، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير في (إنه) كما يظهر من السياق يعود إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فتكون نفس بعثة عيسى عليه السلام علامة وإشارة على قرب الساعة، والمسيح عليه الصلاة والسلام قد توفاه الله تعالى حاله كحال إخوانه الأنبياء والرسل ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المائدة:١١٧ (وتعلق أهل الحديث بشبهة واهية لتفسير معنى الوفاة، فقالوا: إن المقصود بها هو النوم، واستدلوا لذلك بقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الأنعام:٦٠ وهم بذلك يغالطون أنفسهم، لأن الله تعالى يخبرنا في هذه الآية أنه هو من يتوفانا "يميتنا" بالليل، لأن الغالب على حالات الوفاة الطبيعة أنها تحدث بالليل بسبب السكون والراحة التي تقلل من الشحنات العصبية القادمة من الدماغ مما يؤدي إلى توقف عضلة القلب والرئة عن الحركة، وهذا معلوم من مشاهدات الناس لأكثر حالات الوفاة والتي تحصل غالباً في الليل، ويؤكد الله تعالى على هذا المعنى الواضح الصريح بقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى

الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الزمر:٤٢.

وقد تكرر مصطلح الوفاة بمعنى الموت خمس عشرة مرة في القرآن الكريم، وهي جميعاً تعني الموت فقط لا غير. وهذا ما يؤكده الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يقول: "والوفاة: المنية، وتُوُفِّيَ فلان، وتوفاه الله، إذا قبض نفسَهُ". ولم يذكر أن الوفاة يراد بها النوم، مما يؤكد على أن هذا المصطلح "الوفاة= النوم" مصطلح حادث)[٢٧٣].

٢ . **بعثة محمد صلى الله عليه وسلم**، لأنه ﴿رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب:٤٠ (فقد تحققت بمجيئه أشراط الساعة حيث بعث للناس كافة وليس لأمة بعينها، فليس بينه وبين الساعة نبي آخر، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم "بعثت أنا والساعة كهاتين" وأشار بإصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام[٢٧٤])[٢٧٥].

تحديد وقت الساعة

تحديد وقت قيام الساعة أمر خاض فيه البعض، وهذا الحساب المعارض لصريح الكتاب العزيز الذي ينص في حسم أن الساعة لا تأتي إلا بغتة؛ كان نتيجة لانسياح الروايات المنقولة بنصها وفصها عن الكتب المحرفة لأهل الكتاب، وأكبر دليل على ذلك:

---

٢٧٣ جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث ص٢٣٥–٢٣٦، زكريا بن خليفة المحرمي.

٢٧٤ البخاري (٤٦٥٢)، مسلم (٨٦٧).

٢٧٥ المسيحية و الإسلام والاستشراق ص ٢٨٥، محمد فاروق الزين.

ما رواه البخاري (٥٣٢) في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً. ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين. فقال أهل الكتاب: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً. قال: قال الله عزّ وجل: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا. قال: فهو فضلي أؤتيه من أشاء".

وروى البخاري أيضاً في صحيحه (٥٣٣) عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك، فاستأجر آخرين فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت. فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا. فاستأجر قوماً فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين).

(واستُدِلّ به على أن بقاء هذه الأمة أمة الإسلام يزيد على الألف لأنه يقتضي أن مدة اليهود نظير مدتي النصارى والمسلمين، وقد اتفق أهل النقل على أن مدة اليهود إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من ألفي سنة، ومدة النصارى من ذلك ستمائة)[٢٧٦].

فيكون الحساب كالتالي:

---

٢٧٦ فتح الباري ج ٤ ص٤٤٩، أحمد بن علي بن حجر.

١ . إن مدة عمر اليهود نظير (تساوي) مدتي عمر النصارى والمسلمين مجتمعة. أي أن مدة عمر اليهود = مدة عمر المسلمين + مدة عمر النصارى.

٢ . إن مدة عمر النصارى هي ستمائة سنة وكما جاء بذلك أثر رواه البخاري في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: "فترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستُّمائة سنة".

– ومما سبق يتبين:

أن مدة عمر المسلمين = مدة عمر اليهود – مدة عمر النصارى.

وحيث إن مدة عمر اليهود والنصارى تزيد على ألفي سنة ومدة عمر النصارى هي ستمائة سنة إذن بالطرح الجبري يكون:

عمر أمة اليهود= ٢٠٠٠ –٦٠٠ = ١٤٠٠ سنة تزيد قليلاً. وذكر أهل النقل وكتب التاريخ العام أن هذه الزيادة تزيد عن المائة سنة قليلاً.

إذن عمر أمة اليهود = ١٥٠٠ سنة تزيد قليلاً.

وحيث إن عمر أمة الإسلام = عمر أمة اليهود – عمر النصارى

عمر أمة الإسلام = ١٥٠٠ – ٦٠٠ = ٩٠٠ سنة أو تزيد قليلاً + ٥٠٠ سنة عمر أمة الإسلام = ١٤٠٠ سنة أو تزيد قليلاً.

يقول السيوطي في رسالته المسماة: "الكشف" في بيان خروج المهدي يقول ما نصه: "الذي دلت عليه الآثار أن مدة هذه الأمة تزيد على الألف ولا تبلغ الزيادةُ خمسمائة أصلاً"، مضى من هذا القليل ثلاثون عاماً فنحن الآن في عام ١٤١٧ هـ! نضيف إليها ثلاث عشرة سنة قبل بدء التقويم الهجري، وهي ما بين بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

إلى هجرته. فنحن الآن في سنة ١٤١٧ من الهجرة ولكننا في سنة ١٤٣٠ من البعثة!)[٢٧٧]. يعني لم يبق على قيام قرب الساعة سوى بضع عشرات من السنيين.

– ولم يتبين هؤلاء معارضة هذه الحسابات لكتاب الله تعالى، لكن في غمرة الانبهار ببريق عالم الروايات طمرت الدلالات القرآنية، والانبهار يزول عندما نعلم أن هذه الروايات هي روايات منقولة من الكتب المحرفة لأهل الكتاب.

جاء في إنجيل (متى ٢٠/١–١٦):

(فإن ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه. فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه. ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين.

فقال لهم اذهبوا أنتم أيضاً الى الكرم فاعطيكم ما يحق لكم، فمضوا، وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك.

ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين. فقال لهم لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين. قالوا له لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله. ادع الفعلة واعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً. فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر .فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين. هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر.

---

٢٧٧ عمر أمة الإسلام ص ٤٨–٤٩ (بتصرف)، أمين محمد جمال الدين.

فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب ما ظلمتك.أما اتفقت معي على دينار. فخذ الذي لك واذهب. فإني أريد أن أعطي هذا الاخير مثلك. أو ما يحل لي ان أفعل ما أريد بما لي. أم عينك شريرة لأني أنا صالح. هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون)[٢٧٨].

هل يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم الغيب في أمر الساعة؟

إذا جئنا نقرأ في المنظومة الروائية وحدها سنقرأ الكثير مما روي من إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن غيبيات تتعلق بوقت قيام الساعة، فهناك أخبار عن عودة المسيح و المهدي و الدجال وطلوع الشمس من مغربها وفتح القسطنطينية، وغيرها من الأمور التي ارتبط ظهورها بقرب قيام الساعة، لكن إذا جئنا نقرأ كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فسنجد شيئاً مختلفاً تماماً.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:١٨٧-١٨٨.

---

٢٧٨ قال عداب محمود الحمش في كتابه "علم تخريج الحديث ونقده" ص٢٧٥: (حديث ابن عمر وما يوافقه من حديث أبي موسى يكاد يكون مطابقاً لنص في الإنجيل في هذا الموضوع نفسه)، ثم قال في نفس الصفحة: (فهل هذا الحديث من المرويات عن أهل الكتاب ..؟ الله تعالى أعلم).

في الآية ١٨٧ من سورة الأعراف: يبين الله تعالى أن علم الساعة مما استأثر به ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾، و ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ أي لا يكشف الخفاء عنها إلا الله تعالى، وهي لا تأتي إلا بغتة (=فجأة)، ثم (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لسائليك عن الساعة أيان مرساها لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً)[٢٧٩]، ولو كنت أعلم الغيب أي (لو كنت أعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد لاستكثرت من الخير)[٢٨٠] وما مسني السوء.

هاتان الآيتان فيهما مقدمتان مترابطتان:

– فعند سؤال الناس عن الساعة التي استأثر الله تعالى بعلمها، والتي لا يكشف أمرها إلا هو ولا تأتي الناس إلا بغتة...

– أُمِر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأنه لا يعلم الغيب، والغيب يشمل كل ما غاب عن الإنسان من ماض ومستقبل.

والنتيجة المستخلصة من هاتين المقدمتين:

أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم ما يكون من أمر الغيب من المستقبل، وهذا ينسحب على الروايات المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم التي تتعلق بأشراط الساعة المستقبلية.

وقد يعترض البعض على هذا الكلام ويقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم أمر الغيب إلا ما شاء الله أن يعلمه وهذه الروايات في الإخبار بغيبيات المستقبل داخلة في ذلك.

---

٢٧٩ تفسير الطبري ج٩ ص١٤٢ .

٢٨٠ المرجع السابق ج٩ص ١٤٢ .

وهذا الاعتراض لا يصح لأمور منها:

– أن الآيات القرآنية تتحدث عن وقت قيام الساعة تحديداً وتربط ذلك بعدم معرفة النبي صلى الله عليه وسلم لغيبيات المستقبل، وهذه نتيجة حاسمة في الأمر، فما يكون بعد ذلك من مرويات ينسبها الناس للرسول صلى الله عليه وسلم تخالف هذه الدلالات القرآنية تعتبر خرقاً لهذه الحقيقة القرآنية.

– علمنا يقيناً من هذه الآيات ومن غيرها أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿قُل لاّ يَعْلَمُ مَن فِى السّمَاوات والأرْضِ الْغَيْبَ إلاّ اللّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل:٦٥، وعلمنا كذلك أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس في معرض الحديث عن الساعة وأمرها ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسّنِيَ السّوَءُ إِنْ أَنَاْ إِلاّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فهل عندنا من عالم الروايات في الأخبار المستقبلية من الدليل القطعي في ثبوته ودلالاته حتى نتيقن أن ذلك من الغيب الذي أوحى الله به إلى رسوله الكريم؟!، أم هي مجرد روايات تفردت بها بعض المجموعات الحديثية دون باقي المسلمين ويشوبها ما يشوبها من المطاعن الكثيرة في أسانيدها ومتونها؟!، فإذا لم يكن لدينا علم ويقين من ذلك فنحن إذن ممن قال الله تعالى فيهم ﴿وَمَا يَتّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّ ظَنّاً إَنّ الظّنّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيْئاً إِنّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يونس:٣٦.

وقد تنبه فقهاؤنا القدامى لضرورة التثبت في إثبات الغيبيات بأقوى الأدلة ثبوتاً ودلالة، فقد (أجاد التابعي الكبير الإمام جابر بن زيد حين أحال قضية تكليم النبي صلى الله عليه وسلم للجن إلى عالم الغيب، حيث قال: "يروى عن عبدالله بن مسعود

ليلة الجن في إجازة النبي صلى الله عليه وسلم له أن يتوضأ بالنبيذ . قد سمعت جملة من الصحابة يقولون : ما حضر ابن مسعود تلك الليلة، والذي رفع عنه كذب، والله أعلم بالغيب" فهو يؤكد أن ما نسب إلى ابن مسعود رضي الله عنه غير صحيح ، وفي نفس الوقت يرشد الأمة إلى أن قضية الجن هي من قضايا الغيب التي لا يقطع فيها إلا بالدليل القطعي الذي يمثله النص القطعي المتواتر في ثبوته ودلالته من الكتاب أو السنة المتواترة التي لا يشك في تواترها ، أو النقل القطعي من الواقع والحس والمشاهدة)[٢٨١] .

والغريب في الأمر أن هذا النوع من المرويات ينص في صراحة وجرأة غريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبر صحابته عن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، فعن حذيفة أنه قال : (أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة فما منه شيء إلا قد سألته إلا أني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة)[٢٨٢] ، وعن بريد بن أبي مريم عن أبيه قال : (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأسرينا ليلة، فلما كان في وجه الصبح نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنام ونام الناس معه، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت علينا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤذن فأذن ، ثم صلى الركعتين قبل الفجر ثم أمره فأقام فصلى بالناس، ثم حدثنا بما هو كائن حتى تقوم الساعة)[٢٨٣] ، قال أبو عيسى الترمذي : (وفي الباب عن حذيفة وأبي مريم وأبي زيد بن أخطب والمغيرة بن شعبة وذكروا أن النبي

---

٢٨١ قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث ص١٦٨ ، زكريا بن خليفة المحرمي .

٢٨٢ مسلم (٢٨٩١) .

٢٨٣ السنن الكبرى للنسائي (١٥٨٧) .

صلى الله عليه وسلم حدثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وهذا حديث حسن صحيح)[٢٨٤].

نتساءل: أين موقع الرؤية القرآنية من هذه الروايات؟!.

أقولها وبكل صراحة إنها مغيبة تماماً، بل يمكن القول إنها مما لا يلتفت إليه إلا في القليل النادر، فلا تستغرب أيها القارئ الكريم أن تبقى هذه الروايات حاضرة في الأذهان إلى يومنا هذا، والويل كل الويل لمن يحاول أن يرد الناس إلى فهم ورؤية قرآنية وما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام في سيرته وحياته، بدعوى ثبوت أسانيد هذه الروايات، وهذه الحقائق البسيطة كانت حاضرة في أذهان فقهاء الصحابة، فالسيدة الجليلة عائشة أم المؤمنين تقول: (ومن زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل:٦٥)[٢٨٥]، لكن هذه الحقائق البسيطة غطيت تماماً مع ضغط المرويات التي كانت تتدفق من كل حدب وصوب، حتى صار الحديث عن الدلالات القرآنية المغطاة في نظر الكثيرين ضرباً من الكفر.

ولعل البعض يستدل بقول الله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىَ غَيْبِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ الجن:٢٦-٢٧ لإثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الأحداث المستقبلية وهي من الغيب، فهو ممن ارتضاه الله تعالى من رسله الكرام.

---

٢٨٤ سنن الترمذي ج٤ ص٤٨٤.

٢٨٥ كتاب الترتيب، آثار الربيع بن حبيب في الحجة على مخالفيه (٨٤)، مسلم (١٧٧)، السنن الكبرى للنسائي (١١١٤٧)، الترمذي (٣٠٦٨).

والحقيقة أن الآية تحتاج منا إلى فهم كلي (=محكم) يتجاوز الاقتطاع الجزئي (=المتشابه)، فالسياق العام للآيات ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ الجن:٢٥–٢٨، والآن نتساءل: ما هو الغيب الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه؟، من خلال قراءة كلية للآيات القرآنية نخرج بأن الغيب الذي يوحيه الله تعالى إلى رسله عبارة عن:

– أنباء السابقين من رسل وصالحين وغيرهم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود:٤٩ .

– آيات يؤيد بها المرسلون ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران:٤٩ .

– الغيبيات المتعلقة بالعالم الذي خفي علينا كالملائكة والجن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاطر:١، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ الجن:١ .

– الغيبيات المتعلقة باليوم الآخر كالبعث والحساب والجنة والنار ﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة:١–٣ .

- أحداث مستقبلية ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى الأَرۡضِ وَهُم مِّن بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِن بَعۡدُ وَيَوۡمَئِذٍ يَفۡرَحُ الۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الروم:١-٤ وهذه لا يوجد غيرها في كتاب الله تعالى فيما يتعلق بالإخبار عن أحداث مستقبلية بعينها وبتفاصيلها الرقمية.

فكل هذه الغيبيات التي توحى إلى الرسل ثبتت في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهي ثابتة ثبوتاً يقينياً لا شك فيه، وهي تؤكد القاعدة العامة: أن الغيب لا يعلمه أحد إلا الله، وهذه قاعدة يقينية أدلتها مبثوثة في كتاب الله تعالى، وما يشاء أن يُعلمَه الله تعالى من أمر الغيب أحداً من رسله فلابد لنا أن نثبته بأدلة يقينية في درجة دلالتها وثبوتها، وأن لا نعتمد على أمر الظن فيه، ويدلنا عليه قول الله تعالى من بعد في نفس السياق ﴿إِلاَّ مَنِ ارۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسۡلُكُ مِن بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواۡ رِسَالاَتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَداً﴾ الجن:٢٧-٢٨، (أي فإن الله يسلك أي يرسل للرسول رصداً من بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً، أي ملائكة يحفظون الرسول صلى الله عليه وسلم من إلقاء الشياطين إليه ما يخلط عليه ما أطلعه الله عليه من غيبه)[٢٨٦] وهذا الحفظ للغيب الذي يسلكه الله تعالى في قلب رسله الكرام بملائكة تمنع أي عبث للشياطين حتى يحفظ وحي الله تعالى نقياً صافياً ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواۡ رِسَالاَتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَداً﴾ الجن:٢٨، فإذا

---

٢٨٦ التحرير والتنوير ج٢٩ ص ٢٣٢، محمد الطاهر بن عاشور.

كان أمر الغيب الذي يوحيه الله تعالى يحفظ حفظاً شديداً من العبث والتلاعب؛ فإن هذا يدل على أن أمر الغيب أمر عظيم يجب أن يثبت بأرفع وأقوى الأدلة ثبوتاً ودلالة، فهل روايات آحادية فيها عشرات المطاعن في أسانيدها ومتونها وتفردت بها مجموعات حديثية دون باقي المسلمين ينطبق عليها هذا الوصف بعد أن تداولتها الألسن لعشرات ومئات السنين حتى تم تدوينها؟ تساؤل علينا أن نجيب عليه؛ بعدها سنفهم المسألة جيداً.

ثم لو جئنا نتساءل عن ماهية الغيب الذي تتحدث عنه الآية لوجدنا أنه الرسالات والشرائع التي توحى إلى الأنبياء ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدًا﴾ الجن:٢٨، وهذه الرسالات تحوي في جوهرها الغيب الذي تحدثنا عنه، فلو أخذنا مثالاً على ذلك الرسالة الخاتمة وهي رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتساءلنا ما هو الغيب الذي أوحي إليه صلى الله عليه وسلم وعلمنا يقيناً أنه غيب؛ سنجد أنه ما ذكره الله في كتابه العزيز من آيات يؤيد بها المرسلون وغيبيات متعلقة بالعالم الذي خفي علينا كالملائكة والجن وأنباء السابقين من رسل وصالحين وغيرهم وغيبيات متعلقة باليوم الآخر كالبعث والحساب والجنة والنار وأحداث مستقبلية، وهذه كلها ثابتة بأدلة قطعية في ثبوتها ودلالتها.

نخلص من كل هذه المناقشة:

– أن أمرَ الغيب خطيرٌ جداً؛ ولأجل حفظه جعل الله تعالى رصداً على رسله يحفظونه من تلاعب شياطين الإنس والجن ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴿٢٧﴾

لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾

الجن :٢٧–٢٨ .

– الجميع مقرون بأن النص الروائي الذي تم تدوينه متأخراً بعشرات السنين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قد حصل فيه نوع من الاختراق، وهذا الاختراق قد نختلف في تحديد درجته وماهيته، لكن الجميع يقرون به؛ حتى أولئك الذين يقدسون الأسانيد ويرفضون نقد المتون، فلا نستطيع بحال من الأحوال أن نعتمد عليه في تمثيل الغيب الذي يوحيه الله تعالى إلى رسله.

قراءة في روايات الأشراط المستقبلية للساعة

كتبت في السنوات الماضية عن موضوع الفتن والملاحم المرتبطة بأشراط الساعة، وتناولت بعضاً من إشكالياتها، وقد واصلت في السنوات التي تلتها دراسة هذه المرويات وفق قراءات جديدة تتجاوز الأطر الكلاسيكية التي كان معظمها يدور في فلك الدائرة الأثرية المعتمدة على النظر الإسنادي، لذا لم انتبه إلى كثير من إشكاليات هذه المرويات، والتي تشكل بمجموعها معالم للزمن القادم، لذا كان من الواجب أن نبني حساباتنا المستقبلية بناء على نصوص لا يحوم حولها شك في دلالتها وثبوتها، فمن الانتقادات والطعون التي وجهت إلى مرويات الفتن والملاحم:

١ . **مخالفتها للكثير من الدلالات القرآنية:** فعلى سبيل المثال فإن أكثر تفاصيل هذه الروايات ينص على أن المسيح عليه السلام عند عودته سوف (يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية)[٢٨٧] .

وقد قال شراح الأحاديث إن (عيسى لا يقبل إلا الإسلام، ويؤيده أن عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة وتكون الدعوى واحدة)[٢٨٨] ، فهذه الروايات تدل على أن المسيح عليه السلام يأتي بتشريعات جديدة كنسخ الجزية على المحاربين الكتابيين الثابتة بالقرآن، أي هي رسالة جديدة ونبوة جاءت بتشريعات جديدة، ونصوص القرآن قطعية في أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو آخر النبيين فلا نبي بعده، لا المسيح ولا غيره، والشرع قد تم وكمل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة:٣ ، ومن المعلوم أن من عقائد المسلمين القطعية التي أجمعوا عليها أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء والمرسلين ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب:٤٠ ، فالمجئ الثاني للمسيح خرم صريح لهذه العقيدة، وقد حاول البعض الفرار من إشكال مجئ المسيح بتشريعات جديدة كنسخ الجزية بالقول إن المسيح (ليس بناسخ لحكم الجزية؛ بل نبينا صلى الله عليه وسلم هو المبين للنسخ

---

٢٨٧ رواه البخاري (٢١٠٩) ومسلم (٢١٠٩) وآخرون من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن حجر في الفتح ج٦ ص ٤٦١ : (ووقع للطبراني في الأوسط من طريق أبي صالح عن أبي هريرة "فيكسر الصليب ويقتل الخنزير والقرد" زاد فيه القرد، وإسناده لا بأس به) اهـ، ولا ندري ما هو الذنب الذي جناه القرد حتى يقتل؟!.

٢٨٨ فتح الباريء ج٦ ص٤٩٢ ، أحمد بن علي بن حجر.

بقوله هذا)[٢٨٩]، وهذا الرأي غير مقبول على الإطلاق (لأنه محال أن يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ربه)[٢٩٠].

٢ . **بروز الطابع المثيولوجي الأسطوري**: وهي عبارة عن خوارق العادات والنواميس والسنن الكونية، وهذه الخوارق وردت كثيراً في روايات الفتن والملاحم كروايات المخلص المنتظر وعودة عيسى عليه السلام وظهور الدجال.

والقضية تكمن في أن نظام الكون يسير وفق قوانين وسنن أوجدها الخالق تبارك وتعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ الأحزاب:٦٢، (وتجمع الأوساط العلمية اليوم على أن الطبيعة تتألف من مجموعة من الظواهر تتحدد وفق قوانين يمكن اكتشافها من خلال الملاحظة المنهجية المطردة، وينتاب دارسو العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والفلك والطب انطباع عميق بأن الوجود الطبيعي خاضع لنظام دقيق ومحكم، وأن معرفة ثوابت هذا النظام أو القوانين الطبيعية تعد الخطوة الأولى نحو توظيف الطبيعة لخدمة الحاجات البشرية والأغراض الإنسانية)[٢٩١]، في حين أن كثيراً من الحضارات السابقة التي سبقت الرسالة الخاتمة كانت تجنح إلى تقديم تصور سحري للطبيعة، (فلم تكن تلك الحضارات ترى في الكون نظاماً خاضعاً لإرادة كلية عامة متمثلة بقواعد كلية مطردة، بل ربطت الظواهر الطبيعية بإرادات خاصة متعددة، إرادات أرواح سماوية وآلهة خيرة وشريرة، لذلك لجأ الناس في الحضارات الفرعونية والآشورية والآرامية والكنعانية إلى الكهان والعرافين والسحرة

---

٢٨٩ المرجع السابق ج٦ ص٤٩٢.

٢٩٠ قاموس الشريعة ج٥ ص٢٢٨–٢٢٩، جميل بن خميس السعدي.

٢٩١ إعمال العقل ص ٢١٥، لؤي صافي.

لعلاج الأمراض وتفادي النكبات الطبيعية، بل إن الحضارة الإغريقية التي لاحظت ظاهرة النظام في الحركة الفكرية للعقل البشري وطورت علوم الهندسة والحساب والمنطق وغيرها من العلوم العقلية؛ لم تستطع التحرر كلياً من التصور السحري للطبيعة، فنرى العقل الإغريقي يفسر الظواهر الطبيعية والاجتماعية بردها إلى إرادات الآلهة المتنازعة، ونرى كبار الفلاسفة الإغريق مثل أفلاطون وأرسطو يعتقدون أن الكواكب والنجوم أرواح عاقلة مهيمنة على الوقائع الطبيعية والاجتماعية)[٢٩٢].

و(لقد تمكنت الرسالة الخاتمة من نقل الإنسان من عالم الكهانة والشعوذة إلى عالم البحث العلمي والمعرفي؛ عندما خلصته من التصور السحري للطبيعة وزودته بتصور علمي لها)[٢٩٣].

و(كلنا يعلم كما يبين لنا القرآن الكريم أن الخوارق الطبيعية البائدة لم تكن في يوم من الأيام سبباً لإيمان منكري الكتاب الكريم، كما أنها لن تكون سبباً للاعتقاد بقدرة السحرة والمشعوذين على خرق النظام الطبيعي، فقد بين لنا القرآن الكريم أن المعجزات لم تؤد إلى إيمان الجاحدين بالرسالة والنبوة، بل إلى التشكيك في صدق أحاسيسهم واتهام رسلهم بالسحر:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ الحجر:١٤-١٥

---

٢٩٢ المرجع السابق ص ٢١٥-٢١٦.

٢٩٣ المرجع السابق ص ٢١٤.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الأنعام:٧)[٢٩٤] .

والقرآن الكريم (يبين لنا كذلك أن الرسالة الخاتمة تمثل منعطفاً هاماً في تاريخ الرسالات، ينتهي معه التأييد الإلهي بالمعجزات ويعول بعده على الأسباب، لذلك يرفض القرآن الكريم الاستجابة لطلب المعاندين رؤية الخوارق، ويدعوهم إلى النظر وإعمال العقل في الوحي والكون، ويجعله السبيل الوحيد للإيمان :

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَىَ أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام:٣٧

كذلك يبين الله تعالى أن النصر والهزيمة متعلق بالأسباب، المادية والنفسية سواء، فيطالب المؤمنين بالإعداد

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الأنفال:٦٠

ويعلمنا أنه قادر على إلحاق الهزيمة بالمعاندين، لكنه شاء أن يجعل النصر والهزيمة اختباراً للاستعداد النفسي والمادي للمتصارعين

﴿وَلَوْ يَشَآءُ اللّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد:٤)[٢٩٥] .

ويعترض البعض على خاصية إطراد السنن وثباتها في الموجودات، لأن هذه الصفات في نظرهم لا ترتبط بالموجودات ارتباطاً لازماً، إنما نشأ الارتباط في أذهاننا نتيجة

---

٢٩٤ المرجع السابق ص ٢٣٣ .

٢٩٥ المرجع السابق ص ٢٣٦ .

لتعودنا على رؤية ذلك في حياتنا، لذا فهم لا يسمونها سنناً لكنهم يعبرون عنها بالعادة أو المشاهدة، وأشهر من كتب في ذلك أبو حامد الغزالي في كتابه الشهير "تهافت الفلاسفة"، فقد أورد في سياق "إبطال قولهم باستحالة خرق العادات" قوله: (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا، بل كل شيئين ليس هذا وذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جراً إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه يخلقها على التساوق، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم جراً إلى جميع المقترنات)[٢٩٦]، فأبو حامد الغزالي ينكر صراحة علاقة السببية بين الأشياء ويصر على أنها علاقة اقتران، أي (ليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر)، فلذا في (المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم جراً إلى جميع المقترنات).

ويُرجع الغزالي نفيه للسببية إلى عاملين:

---

٢٩٦ تهافت الفلاسفة ص ٢٢٦، أبو حامد الغزالي.

• أن إثبات السببية يؤدي إلى القول بأن السبب هو الفاعل المؤثر في المُسبَب، في حين أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى، فـ(فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن والتفرق في أجزائه وجعله حُراقاً أو رماداً هو الله تعالى، إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة، فأما النار وهي جماد فلا فعل لها، فما الدليل على أنها الفاعل؟ وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عندها ولا تدل على الحصول بها، وأنه لا علة له سواها)[٢٩٧] .

• أن إثبات السببية يؤدي إلى إنكار الخوارق التي ذكرها القرآن الكريم، فيرى أن أناساً (أنكروا وقوع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في النار مع عدم الاحتراق وبقاء النار ناراً، وزعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار، وذلك يخرجها عن كونها ناراً، أو بقلب ذات إبراهيم عليه السلام ورده حجراً، أو شيئاً لا تؤثر النار فيه، ولا هذا ممكن ولا ذاك ممكن)[٢٩٨] .

وهذه المقدمات التي أصلها الغزالي غير مقبولة، فالقول بإثبات السببية وخصائص الأشياء كاحتراق القطن عند ملامسته النار والشبع عند الأكل والإصابة أو الموت عند السقوط من المرتفعات لا يعني بحال من الأحوال الافتئات على القدرة والمشيئة الإلهية، لأن هذه الخصائص للأشياء ما هي إلا تجلٍ للمشيئة والقدرة الإلهية، فهي مشيئة الله تعالى التي اقتضت بأن يودع في الأشياء هذه الخصائص، فالتخوف من أن يؤدي إثبات السببية إلى القول بأن السبب هو الفاعل المؤثر في المُسبَب هو محض وسوسة لم تع ارتباط الخصائص والأسباب بخالق الأسباب ومسيرها، وقد بينت آيات

---

٢٩٧ المرجع السابق ص ٢٢٦ .

٢٩٨ المرجع السابق ص ٢٢٩ .

الكتاب العزيز أن سنة الله لا تتغير وضرب مثالاً على ذلك بسلوك الكافرين المعاندين ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّىءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ فاطر:٤٢-٤٣ ثم أعقب ذلك الحث على السير في الأرض لاكتشاف سنن الحياة ونواميسها ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ فاطر:٤٤.

(ولا ريب في أن هذه النظرة إلى العالم تضفي عليه صورة سحرية غريبة، لأنها تجعل من الجائز للنار مثلاً أن تحرق أو لا تحرق بنفس النسبة، وفي جميع الأحوال، وكأن الأمر عبث لا يضبطه ضابط! وهذا ما يؤيده الواقع المحسوس، الذي يثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك صفة الإطراد في سنن الله التي تحكم الوجود، وبداهة ندرك أن هذا الإطراد خاضع في الوقت ذاته لمشيئة الله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ الفرقان:٤٥.

وقد أخطأ أولئك المتكلمون، حين ظنوا بأن الإطراد في السنن ينفي المشيئة الإلهية أو يعطلها، وقد سبق أن بينا من قبل، بأن السنن التي تحكم هذا الوجود، ما هي إلا قدر من قدر الله عز وجل، فهو سبحانه الذي قدرها وأراد لها أن تعمل على هذه الصورة

من الإطراد، لكي يستقر أمر الخلق، ويستطيع الإنسان تسخير ما في الكون في شؤون حياته)[٢٩٩].

أما بخصوص تأثير إثبات قانون السببية على الخوارق الواردة في القرآن الكريم؛ فلا ندري ما الذي يجعل المسلم الذي يؤمن بأن الأسباب من عند الله ويؤمن بقدرة الله التي لا يحدها حد؛ أن يتنكر لقطعيات الأخبار التي أخبر الله تعالى بها في كتابه؟!، (لقد كان حرياً بالغزالي أن يكتفي برد الخوارق الطبيعية التي وردت في الكتاب الحكيم إلى العلم الإلهي المحيط والقدرة الربانية المعجزة بدلاً من تقويض مبدأ عقلي لا يستغنى عنه في تفسير الظواهر الطبيعية وفهم العلاقات الاجتماعية)[٣٠٠].

والمعجزة في جوهرها هي آية يريها الله تعالى عباده على يد أنبيائه ورسله ويجريها على بعض عباده الصالحين، وهي تجري على خلاف سنن الحياة المعهودة، والذي أراه أن المعجزة لم تأت لترسيخ خرق سنن الحياة بل لتثبيت ديمومتها، فعبر تاريخ الإنسانية كانت أهواء الناس تجنح باستمرار لإعطاء ما يعبدون من آلهة غير الله تعالى سلطة تسيير الكون وتنظيم شؤونه، فكانت عندهم آلهة للمطر والحب والخصب والجمال والرياح، فكان من أغراض هذه الآيات إثبات أن **سنن الحياة وتغييرها هو بأمر الله وخلقه وتدبيره وتسييره** وليست بيد أولئك الآلهة المزعومة التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، وليس معناه كذلك نفي قانون السببية وإثبات عبثية الكون.

ومن ذلك أن سنن الله تعالى اقتضت أن يكون إنجاب الولد بتلاقي الذكر والأنثى، لكنه سبحانه شاء أن يولد المسيح عليه السلام من غير أب، أي من غير ملاقاة بين الذكر

---

٢٩٩ أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ص٨٠ (بزيادة وتصرف)، أحمد محمد كنعان.

٣٠٠ إعمال العقل ص ٢٢٦، لؤي صافي.

والأنثى كما اقتضت سنته تعالى في بقية خلقه، فكانت آية في خلقه ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ٩١، فحالة المسيح وأمه عليهما السلام هي عبارة عن آية للعالمين وليست ترسيخاً لخرق سنن الحياة، فلا يمكن أن نقبل أن تأتينا إمرأة اليوم وتدعي أنها ولدت من غير أب لمولودها، لأن سنن الحياة تنطبق عليها، لذا فآيات الكتاب العزيز تركز وبشكل لافت للنظر على أن جميع الآيات (=سواء كانت ما يؤيد به الأنبياء والكونية منها) هي من عند الله تعالى حتى يرسخ في الذهن أن الاعتبار هو رجع ذلك كله إلى خالق الكون ومسيره ومدبره ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام ٩٩.

وقد حمل ابن تيمية بشدة على المنكرين للخصائص الذاتية للأشياء فقال (ومن الناس من ينكر القوى والطبائع كما هو قول أبي الحسن ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الأسباب أيضاً، ويقولون: إن الله يفعل عندها لا به، فيقولون: إن الله لا يُشبع بالخبز ولا يروي بالماء ولا يُنبت الزرع بالماء بل يفعل عنده لا به، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح العقل والحس، فإن الله تعالى قال في كتابه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف:٥٧ فأخبرنا أنه ينزل الماء بالسحاب ويخرج الثمر بالماء، وقال تعالى ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ البقرة:١٦٤، وقال ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ق:٩، وقال ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ التوبة:١٤، وقال ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المائدة:١٥-١٦، وقال ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ البقرة:٢٦، ومثل هذا في القرآن كثير، والناس يعلمون بحسهم وعقلهم أن بعض الأشياء سبب لبعض[٣٠١]، كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعد، ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى، وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان كما قال ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الأنبياء:٣٠، وأن الحيوان يروي بشرب الماء لا بالمشي ومثل هذا كثير)[٣٠٢]. (إن نقض الضرورة السببية تضييع للعقل وتمييع لثوابته المبدئية، وبالتالي تضييع للعلوم الطبيعية

---

٣٠١ تسببت الدراسات الحديثة والمدارس النظامية في العقود الأخيرة في ترسيخ وتثبيت قانون السببية والخصائص الذاتية للأشياء في انتظام وتكامل مع أساسيات التصور الإسلامي القائمة على اعتقاد القدرة الإلهية المطلقة، فمناهج الفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات وعلوم الأرض والجغرافيا ساهمت في إخراج جيل مؤمن بربه عارف بحقائق الكون وتجلياته ونظامه بعيداً عن فلسفات عقيمة وجدت في كتب علم الكلام بعيدة كل البعد عن حقائق التصور الإسلامي الكامن في كتاب الله تعالى المسطور (=القرآن) وكتابه المنظور (=الكون).

٣٠٢ كتاب المنطق (كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه) ج٩ ص ٢٨٧-٢٨٨، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية.

والاجتماعية، فلا قوام لهذه العلوم بعد إنكار ملازمة الأشياء لخواصها، ولزوم الأسباب لمسبباتها)[٣٠٣].

أيضاً علينا أن ندرك أن دوائر الغيبيات دوائر مغلقة لا تستطيع العقول البشرية إدراك كنهها، ودوائر الخرافة مجاورة لدائرة الغيب، والحد الفاصل بينهما هو القطع بالوحي الإلهي الذي لا تحوم حوله أدنى ريبة، ولما تم التساهل في أمر إثبات الغيبيات تسربت الخرافة وانتشرت في عوالم الرواية والثقافة الشعبية.

وهذه المرويات التي نحن بصدد دراستها محشوة بكم هائل من هذه المثيولوجيا، فالحياة التي تسير سيرها الطبيعي ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء ٣٣: تنقلب نواميسها وسننها رأساً على عقب، ونسمع أنه (يخرج المهدي وعلى رأسه ملك ينادي: إن هذا هو المهدي فاتبعوه)[٣٠٤] و(يلعب الصبيان بالحيات والذئاب مع الغنم)[٣٠٥]، والدجال (يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت)[٣٠٦] وأنه (يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ويقول للناس أنا ربكم)[٣٠٧]، وكأنه صار المتصرف في هذا

---

٣٠٣ إعمال العقل ص ٢٢٨، لؤي صافي.

٣٠٤ رواه الطبراني في مسند الشاميين (٩٣٧) من طريق عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٣٠٥ رواه ابن حبان (٦٨٢١) والطيالسي (٢٥٧٥) وأحمد (٩٢٥٩) وعبدالرزاق (٢٠٨٤٥) من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا النص موجود أيضاً في سفر أشيعيا! الإصحاح الحادي عشر: (بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفخه شفتيه، ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه. فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل، والمسن معاً وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدابة ترعيان تربض أولادهما معاً والأسد كالبقر يأكل تبناً)!.

٣٠٦ رواه مسلم (٢٩٣٧) والترمذي (٢٢٤٠) من طريق النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٣٠٧ رواه أحمد (٢٠١٦٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٩١٨) من طريق جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الكون، ولا ندري لم كل هذا الانقلاب الكوني الهائل؟!. وإذا لم نع أن منطقتي الغيب والخرافة متجاورتان ولا يفصل بينهما إلا حاجز الوحي الإلهي القطعي لا مجرد روايات محتاجة إلى إثبات صحتها، فسوف تنساح الخرافات وتتداخل مع منطقة الغيب.

ومن واقع الاستقراء الكلي لكتاب الله عز وجل نجد أن السنن والنواميس الكونية ثابتة لا تتبدل إلى أن يأذن الله تعالى بانهيار النظام الكوني وقيام الساعة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ الفتح:٢٣. في حين أن جزءاً لا يستهان به من مرويات الفتن والملاحم يصر على خرق عظيم وهائل للنواميس الكونية دون إعطاء أسباب مقنعة لذلك.

٣. تفاعل هذه المرويات مع أحداث زمن تدوينها.

وهذا ينبئ بقدر كبير من الشكوك في كونها ردوداً لاحقة للفتن لا تنبؤات بها كما يظن الكثيرون، وهذا لا يتيسر إدراكه إلا بقراءة تلك النصوص على ضوء الحقائق التاريخية الثابتة.

على سبيل المثال؛ في كثير من روايات المهدي المنتظر تجد أن مفردات عصر التدوين ظاهرة على سطحها ممتزجة مع مكوناتها، وهذه الروايات بتلك المفردات صنفت من بعد على أنها تنبؤات بأحداث آخر الزمان. ويبدو أن إغفال بعد الزمن بمحاوره العديدة في النظريات الحديثية أدى إلى عدم الانتباه إلى الإرهاصات التاريخية لظهور هذه المرويات التي تكونت بفعل لهيب التاريخ وصراعاته العنيفة.

وكذلك ما يروى (إن المهدي والسفياني وكلباً يقتتلون في بيت المقدس حين يستقيله الناس، فيؤتى بالسفياني أسيراً، فيأمر به...)[٣٠٨] ... فالرواية تنقلنا إلى مشهد

---

٣٠٨ الفتن لنعيم بن حماد (١٠٠٨).

درامي في القرن الثاني الهجري، حيث الصراع على أشده بين العلويين والأمويين، وهذا الصراع قد تعدى النطاق العسكري إلى النطاق الإعلامي بالتنصيص السياسي في رواية الحديث كما يسميها المستشار عبدالجواد ياسين، والملاحظ كذلك أن المهدي ليس وحده في الساحة، فهناك روايات السفياني المنتظر والقحطاني المنتظر وهي موجودة في الصحاح والسنن، وهذا وحده كاف لإعطائنا البعد السياسي التأريخي لهذا اللون من المرويات.

ولنا الحق في أن نتساءل: هل تصلح مثل هذه المرويات لوصف أحداث آخر الزمان، والتي تفترض وجوداً للصراع الأموي العلوي يستمر إلى آخر الزمان ؟!. وكان من آثار انتشار روايات المهدي تأسيس نظريات الغيبة والانتظار، المؤدية بدورها إلى السلبية تجاه قضايا الأمة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بواجب العدل والسعي للحياة الإسلامية النظيفة، واختلفت درجات هذا التأثير بقدر تحكيم هذه الروايات في واقع الفكر، وأحد المدارس الأثرية التي عمها تيار المهدي ظلت قروناً طويلة تعاني من داء السلبية والانتظار حتى نفضت يدها منها، وبدأت بالالتفاف حول تلك النظريات بالقول بالنيابة العامة التي تطورت من بعد إلى ولاية الفقيه، ثم المطالبة بعدها بالشورى ورفض كل النظريات المتولدة من إرهاصات القول بنظرية المهدي المنتظر أو الغائب[٣٠٩].

٤ . المفردات والتراكيب الواردة فيها لا تصلح إطلاقاً لوصف أحداث آخر الزمان .

---

٣٠٩ انظر كتاب "تطور الفكر السياسي الشيعي"، أحمد الكاتب. وانظر كذلك كتاب "نظريات الحكم في الفقه الشيعي"، محسن كديور. وكتاب "الفكر الإسلامي المعاصر في إيران"، محد رضا وصفي.

فهي تصور لنا أحداث آخر الزمان وفق منظور عصر التدوين، فأدوات الحرب هي السيف والرمح والخيل، والجيوش تحاصر أسوار المدن، والناس يقتسمون الغنائم في أرض المعركة (فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان..)[٣١٠] و (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق)[٣١١]، وهذا طبعاً على اعتبار بقاء الروم خصماً تاريخياً للمسلمين إلى قيام الساعة، وهذا ما تنفيه الحقائق التاريخية الثابتة التي تؤكد ذهاب دولة الروم منذ أواخر عهد السلاجقة واندحار دولتهم تماماً أمام العثمانيين بفتح آخر معاقلهم وهي القسطنطينية، ولم تقم الساعة ولم يظهر الدجال!.

ولم أستطع حتى الآن أن أدفع هذا الاعتراض القوي على مرويات الفتن والملاحم، وقبل عدة سنوات استمعت إلى محاضرة، ذكر فيها المحاضر أن هذا الاعتراض يمكن دفعه بافتراض حدوث حرب كونية هائلة تؤدي إلى فناء الحضارة المعاصرة ورجوع البشرية إلى البدائية، بحيث تكون أدواتها ما جاء ذكره في مرويات الفتن والملاحم .ومع هذا الافتراض الأنيق لم أجده مقنعاً لأمور منها:

– أنه افتراض لا دليل عليه من العقل ولا من النقل، بل إن دلائل العقل ترفضه، ففقدان منجزات حضارية بسبب حروب مدمرة لا يمكن على الإطلاق أن يلغي العقليات التي توصلت إلى هذه المنجزات، والتي تستطيع بوجود خامات بسيطة صنع الوسائل والوسائط في أبسط صورها وأشكالها دون الحاجة والرجوع إلى منجزات منذ آلاف السنين.

---

٣١٠ رواه مسلم (٢٨٩٧) من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٣١١ رواه مسلم (٢٨٩٧) من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

– اكتشفت من بعد أن هذا الافتراض هو افتراض (هوليوودي)، طرحته عقلية بعض مخرجي أفلام الإثارة في (هوليوود) مدينة صناعة السينما الأمريكية، والذين حاولوا في أفلامهم كالمخرج والممثل (ميل جيبسون)[٣١٢] في مجموعته (mad max) أن يوجدوا نفس الحل لما جاء من أخبار الفتن والملاحم عندهم في العهدين القديم والجديد، المشحونين بهذه المثيولوجيات الأسطورية!.

٥ . النزعة الإسرائيلية واضحة عليها بدرجة مخيفة للغاية:

لدرجة أنني أخشى أن أصدم الكثيرين بقولي إن كثيراً منها عبارة عن نقل مكشوف وصريح من كتب اليهود والنصارى. وهذا التسرب جاء نتيجة للتفاعل والامتزاج ثم الانبهار بين أهل هذه الديانات والمسلمين، والسياسة الدولية التي انتهجتها القوى العالمية الكبرى أصبحت تسيرها النبؤات التوراتية كحتمية معركة هيرمجيدون والمجئ الثاني للمسيح عليه السلام، بحيث تحولت هذه القضايا من قضايا لاهوتية بحتة إلى مرتكزات سياسية يتم بموجبها القفز على كافة المعايير البراجماتية والاستراتيجيات الجيوسياسية[٣١٣].

وأكتفي لبيان هذه الحقيقة الرهيبة أن أقارن بين نصوص عن مسلمة أهل الكتاب رووا عن كتبهم، وبين روايات من عرف بالرواية عنهم من المسلمين، وأيضاً مرويات من بعض كتب الحديث ومثيلاتها من أسفار أهل الكتاب.

---

٣١٢ ممثل استرالي الأصل اتجه للعمل في (هوليوود)، وهو ينطلق من منطلقات الأدبيات الكاثوليكية، وقد قام مؤخراً بإخراج فيلم (آلام المسيح) معتمداً في ذلك على الروايات الإنجيلية.

٣١٣ انظر كتاب "الدين في القرار الأمريكي"، محمد السماك.

• روى مسلم (٢٨٩٧) بسنده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل...).

والرواية التي تقابلها من طريق كعب الأحبار –الذي أكثر أبو هريرة الرواية عنه كما هو معلوم– موقوفة عليه عند نعيم بن حماد في الفتن: (يأتيهم الخبر وهم يقسمون غنائمهم أن الدجال قد خرج وإنما هو كذب، فخذوا ما استطعتم فإنكم تمكثون ست سنين ثم يخرج في السابعة ....)[٣١٤].

• روى مسلم (٢٩٣٧) وغيره من طريق النواس بن سمعان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (..فبينما هم كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة).

---

٣١٤ الفتن (١٤٦٥).

– ومن طريق كعب الأحبار موقوفاً عليه ولم يسنده عند نعيم بن حماد في الفتن: (ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام عند المنارة التي عند باب دمشق الشرقي، وهو شاب أحمر معه ملكان قد لزم مناكبهما، لا يجد نفسه ولا ريحه كافر إلا مات، وذلك أن نفسه يبلغ مد بصره، فيدرك نفسه الدجال فيذوب ذوبان الشمع فيموت، ويسير ابن مريم إلى من في بيت المقدس من المسلمين فيخبرهم بقتله، ويصلي وراء أميرهم صلاة واحدة، ثم يصلي لهم ابن مريم، وهي الملحمة وسلم بقية النصارى، ويقيم عيسى ويبشرهم بدرجاتهم في الجنة)[٣١٥].

– ويقول بولس (=شاؤول سابقاً) في رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي، الإصحاح الثاني المدونة في العهد الجديد: (أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا، والآن تعلمون ما يحجز حتى يستعلن في وقته، لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يرفع من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ سيستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه).

– وفي إنجيل متى، الإصحاح الرابع والعشرين:

(وفيما هو جالس على جبل الزيتون (= أي السيد المسيح عليه السلام) تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين: قل لنا ما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر، فأجاب يسوع وقال لهم: انظروا لا يضلكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمي، قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين، وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب، انظروا لا ترتاعوا، لأنه لا بد أن تكون هذه كلها، ولكن ليس المنتهى بعد، لأنه تقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن....).

---

٣١٥ الفتن (١٥٩٩).

وقصة فكرة عودة المسيح عليه السلام تبدأ منذ وقت مبكر، عندما اعتنق بولس اليهودية في طرطوس وكان يسمى في الأصل شاؤول، ثم عندما كبر هاجر إلى فلسطين ووجد عملاً ضمن قوة الشرطة اليهودية التابعة لكبير الكهنة، ثم تحول من بعد إلى ديانة المسيح.

وقصة تحول بولس من اليهودية إلى ديانة المسيح يرويها بنفسه حيث يقول في (رسالة بولس إلى غلاطية ١/١): (بولس الذي صار رسولاً ليس من قِبل البشر ولا من قِبل أي شخص، ولكن من قبل عيسى ومن قبل الله الأب الذي أحياه من الأموات).

فبولس من هذا النص يعلن أنه لا يستمد سلطته من صحابة عيسى، ولا من عيسى الذي في الأرض، بل يستمدها من عيسى، أي بعد موته (لاحظوا هنا بدايات وصف الله تعالى بالأبوة)، وقد استطاع بولس الرسول –كما كان يسمي نفسه– إدخال معتقدات خطيرة في النصرانية منها:

– عقيدة المخلص أو المنقذ: أي هبوط المخلص ليفتدي خطايا العالم قبل النهاية التي أوشكت أن تقع، وهذا التفسير البولسي للمجيء الأول للمسيح كان بمعزل عن حواريي المسيح الذين صب عليهم بولس جام غضبه ووصفهم بأنهم (رسل كذبة وشياطين) و(إخوة مزيفين) رسالة بولس إلى أهل كورنثوس (١١/١٣، ٢٦).

ومنذ ذلك التاريخ أزيح المسيح الحقيقي ليحل محله عيسى المثيولوجي الذي بموته على الصليب صار كفارة لخطايا العالم –كما يزعمون–، يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (٢/٢١): (لو كانت الاستقامة باتباع الشريعة، لكان موت عيسى بلا جدوى)، ويقول في أعمال الرسل (١٣/٣٨–٣٩): (ليكن معلوماً لديكم يا إخواني أنه بواسطة هذا الرجل تم إعلان المغفرة لخطاياكم).

وكان لدى بولس هاجس قوي بنهاية العالم، يقول في رسالته الأولى أهل كورنثوس (٧/٢٩، ٣١): (أقول لكم يا إخواني إن الزمن قصير وأن العالم بشكله الحالي قارب نهايته)، وهذا الهاجس مرده إلى ما ورد في سفر دانيال من العهد القديم (٧/١٣-١٤): (وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض).

وعبر عنه بولس بقوله في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي (٤/١٧): (ثم نحن الأحياء والباقون سنلتقي معاً في السحاب ملاقاة الرب في الجو)، ومقصده بالرب هنا عيسى عليه السلام -تعالى الله عما يشركون-، وهذا ما مهد لأن تسري عقيدة المجئ الثاني للمسيح عند المسيحيين في مختلف الأسفار من بعد، فورد في إنجيل متى (٢٤/٤-٦): (وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين: قل لنا ما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر، فأجاب يسوع وقال لهم: انظروا لا يضلكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمي، قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين، وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب، انظروا لا ترتاعوا، لأنه لا بد أن تكون هذه كلها، ولكن ليس المنتهى بعد، لأنه تقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن....)[٣١٦].

وكذلك الحال بالنسبة إلى فكرة المخلص أو المهدي المنتظر فإنها من جملة الأفكار الإسرائيلية التي انتقلت إلى المسلمين، ولا تزال آثار هذه الصنعة بادية على روايات المدارس الأثرية، لا سيما وأن كعب الأحبار الذي روى عنه بعض الصحابة يظهر في

---

٣١٦ ملخص من كتاب (المسيحية والإسلام والاستشراق)، محمد فاروق الزين.

الصورة واضحاً يروى نفس ما ينسب إلى أولئك الصحابة من الروايات المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

• (إن القائم من ولد علي عليه السلام، له غيبة كغيبة يوسف، ورجعة كرجعة عيسى بن مريم)[٣١٧].

• (المهدي يبعث بقتال الروم، يعطى فقه عشرة، يستخرج تابوت السكينة من غار بأنطاكية فيه التوراة التي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل الله عز وجل على عيسى عليه السلام، يحكم بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم)[٣١٨].

• (إنما سمي المهدي لأنه يهدي لأمر خفي، قال ويستخرج التوراة والإنجيل من أرض يقال لها أنطاكية)[٣١٩].

قال محمد (= ابن سيرين): (ونبئت أن عبدالله بن سلام قال: إن أدركني وليس في قوة فاحملوني على سريري حتى تضعوه بين الصفين (=أي في معارك المنتظر)، قال محمد: ونبئت أن كعباً كان يقول: لله ذبيحين مضى أحدهما وبقي الآخر)[٣٢٠].

• قال كعب: إن فيها لشجرة هي في كتاب الله مجلس ثلاثة آلاف، فمن علق فيها سلاحه أو ربط فيها فرسه فهو عند الله من أفضل الشهداء، قال كعب: تفتح عمورية قبل نيقية، ونيقية قبل القسطنطينية، والقسطنطينية قبل رومية)[٣٢١].

---

٣١٧ رواه النعماني عن كعب الأحبار ، وأيضاً في إثبات الهداة وبحار الأنوار. معجم أحاديث الإمام المهدي ج١ ص٢٦٦.

٣١٨ رواه عن كعب الأحبار نعيم بن حماد في الفتن (١٠٢٢).

٣١٩ رواه عن كعب الأحبار عبد الرزاق في المصنف (٢٠٧٧٢) ونعيم بن حماد في الفتن (١٠٢٣).

٣٢٠ رواه عن كعب الأحبار نعيم بن حماد في الفتن (٢٠٨١٣).

وهذه رواية أخرى، لكن يرويها هذه المرة عبدالله بن سلام -وكان يهودياً فأسلم-: (ويستخرجون منها حلي بيت المقدس والتابوت الذي فيه السكينة، ومائدة بني إسرائيل، ورضراضة الألواح، وعصا موسى، ومنبر سليمان، وقفيزين من المن الذي أنزل على بني إسرائيل أشد بياضاً من اللبن ....قال حذيفة: قال عبد الله بن سلام: والذي بعثك بالحق إن صفة هذه المدينة بالتوراة طولها ألف ميل، وهي تسمى في الإنجيل فرعاً أو قرعاً طولها ألف ميل وعرضها خمسمائة ميل.......)[٣٢٢].

● (يخرج المهدي وهو ابن أربعين سنة، كأنه رجل من بني إسرائيل)[٣٢٣].

● (على يدي المهدي يظهر تابوت السكينة من بحيرة الطبرية حتى تحمل فتوضع بين يديه ببيت المقدس، فإذا نظرت إليه اليهود أسلمت إلا قليلاً منهم، ثم يموت المهدي)[٣٢٤].

● (إني لأجد المهدي مكتوبا في أسفار الأنبياء ما في علمه ظلم ولا عنت)[٣٢٥].

وأجرى الكاتب الشيعي سعيد أيوب مقارنة بين روايات المهدي المنتظر في بعض مجموعات الأحاديث وبين مثيلاتها في كتب أهل الكتاب، فقال: (جاء في مصادر الإسلام أن منهج المهدي [يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً].

ويقابل هذه الصفات في سفر الرؤيا [..الذي يقضي ويحارب بالعدل].

وجاء في مصادر الإسلام عن نسل المهدي [...المهدي من عترتي، من ولد فاطمة].

---

٣٢١ رواه عن كعب الأحبار نعيم بن حماد في الفتن (١٣٤٣).

٣٢٢ رواه الطبري والطبراني وابن عدي وابن ومردويه، معجم أحاديث الإمام المهدي، ج١ ص ٣٥٥– ٣٦٢.

٣٢٣ رواه نعيم بن حماد في الفتن (١٠٦٧) عن عبدالله بن الحارث.

٣٢٤ رواه نعيم بن حمادفي الفتن (١٠٥٠) عن سليمان بن عيسى ولم يسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

٣٢٥ رواه الداني في السنن الواردة في الفتن (٥٨٢)، ونعيم بن حماد في الفتن (١٠٣٤) عن كعب الأحبار.

ويقابل هذه الصفات في سفر الرؤيا [إمرأة متسربلة بالشمس والقمر، تحت رجليها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً ... ولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد])[٣٢٦] .

ثم يمضي سعيد أيوب في تفسير نبوءات سفر الرؤيا فيقول: (قال الرائي في العهد الجديد المتداول: [... وإذا بحصان أبيض يسمى راكبه الأمين الصادق الذي يقضي ويحارب بالعدل..] وكما ذكرنا أن مهمة المهدي المنتظر في الإسلام كما حددها النبي صلى الله عليه وسلم هي [...يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً..] ، ثم أشار سفر الرؤيا إلى المهدي المنتظر في أماكن أخر خلال عملياته الحربية، ولكن بعد تغطية اسمه بصفات أخرى مثل الحمل، الخروف، الفارس، فمثلاً يقول الرائي: [...ثم رأيت حملاً واقفاً على جبل صهيون!! ...]، فالحمل هنا يشير إلى المهدي المنتظر وجبل صهيون، والمعروف في جميع مصادر أهل الكتاب ومصادر الإسلام أن المهدي المنتظر ستكون قيادته عند قتال المسيح الدجال مقرها القدس، ثم يشير سفر الرؤيا مرة أخرى إلى المهدي باسم الفارس: [... وقتل السيف الخارج من فم الفارس جميع الباقين...])[٣٢٧] .

وبالطبع فإن ما يراه سعيد أيوب من تماثل بين روايات بعض المجموعات الحديثية وبين روايات سفر الرؤيا ليس من بقايا الوحي كما يظن؛ بقدر ما هو نتاج توظيف تلك النبوءات التوراتية والإنجيلية في الصراع السياسي الذي احتدم بين مختلف الأطياف السياسية، ويمكن إدراك ذلك من خلال قراءة تلك النصوص في إطارها التاريخي، أما

---

٣٢٦ عقيدة المسيح الدجال في الأديان ص ٩٩–١٠٠، سعيد أيوب.

٣٢٧ المرجع السابق ص ١٢٧–١٢٨.

بإغفال البعد الزمني والاكتفاء بالنظر الإسنادي فيمكن أن نصدق أن الجمل يلج في سم الخياط!. وللإنصاف فإن بعض المحدثين نبهوا على أن بعض ما يرويه بعض الصحابة هو ما تسرب إليهم من مسلمة أهل الكتاب مثل:

– قول البخاري عن حديث التربة في صحيح مسلم (وروى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"خلق الله التربة يوم السبت" وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب[٣٢٨] وهو أصح)[٣٢٩].

---

٣٢٨ كعب بن ماتع الحميري أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار، أدرك الجاهلية وأسلم في أيام أبي بكر، وقيل في أيام عمر، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً، وعن عمر وصهيب وعائشة، وعنه ابن امرأته تبيع الحميري ومعاوية وأبو هريرة وابن عباس ومالك بن أبي عامر الأصبحي وعطاء بن أبي رباح وآخرون، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام، وقال كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفي بها سنة ثنتين وثلاثين في خلافة عثمان. (تهذيب التهذيب ج٨ ص ٣٩٣ بتصرف). وقد روى أبو هريرة عنه كثيراً، روى الربيع (٢٨٢): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة قال: "خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان فيما حدثته أن قلت له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم عليه السلام، وفيه تاب الله عليه، وفيه أهبط من السماء إلى الأرض، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مسيخة ليلة الجمعة حتى تطلع الشمس إشفاقاً من الساعة إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه).

قال كعب: في كل سنة يوم؟.

فقلت بل في كل جمعة يوم.

فقرأ كعب التوراة، فقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال جابر: هي آخر ساعة يوم الجمعة، وكذلك بلغني عن عبدالله بن سلام".

٣٢٩ التاريخ الكبير ج١ ص٤١٣، محمد بن إسماعيل البخاري.

– وقول ابن كثير عن الحديث الذي رواه أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً" (ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه والله أعلم، ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه)[٣٣٠]. لكن يعاب عليهم أنهم لم يستطيعوا تحويل هذه اللمحات الفردية إلى منهج راسخ يستطيع أن يقي الأمة شر تسرب الإسرائيليات إلى فكرها، و(لو أن علم مقاييس نقد المتون أخذ من اهتمام العلماء القدر الذي أخذته علوم الإسناد وسادت قواعد منهجية معرفية قرآنية لدراسة مثل هذه القضايا، هل احتاج العلماء إلى كل تلك التأويلات؟ ربما لم يحتاجوا إلى ذلك في إطارها ولربما تجنبنا كثيراً من عوامل القلق والبلبلة الفكرية ومداخل الاختراق الثقافي، فالقرآن المجيد قد اشتمل على المنهجية المعرفية الكاملة، والشريعة التامة، وبه كمل الدين كله، والقرآن قد نسخ التجربة الإسرائيلية كلها، وما يظن أنه مشترك في رسالات الأنبياء قد طهر ونقي واسترجع، وأعاده القرآن الكريم بمحكم آياته صدقاً وعدلاً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء بالصدق وصدق به، وتضافرت آيات الكتاب الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على دعوة المسلمين إلى مخالفتهم حتى في الأمور اليسيرة وفي خصال الفطرة والهيئات، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في ذلك أكثر من أن تحصى.

---

٣٣٠ تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٦، إسماعيل بن عمر بن كثير.

وأمرت البشرية كلها بابتغاء الإسلام وحده، وأعلن أنه لن يقبل منها غيره ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين﴾آل عمران:٨٥، وبالتالي فلم تعد هناك أية حاجة إلى نقل تراث الكذبة من هؤلاء، أو التحديث عنهم، أو نقل افتراءاتهم على الله وأنبيائه وشرائعه)[٣٣١].

٦. **كثير من هذه الروايات يعطل الطاقات ويرسخ قيم الاستبداد والظلم في النفوس**، وهذه قيم جاء الإسلام بتعاليمه ليستأصلها وما تقرره هذه الروايات – وبخاصة روايات المهدي المنتظر – يصب لصالح الانتظار السلبي وقيام الفرد المطلق (السوبرمان) بقضية الإصلاح، في حين أننا نجد آيات الكتاب العزيز تنوط قضية الإصلاح بالأمة جميعاً، لذا جاءها الخطاب القرآني متوجهاً إليها بصيغة الجمع في كثير من آيات الكتاب العزيز.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ النساء:٥٩.

وقال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الحج:٧٧.

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران:١٠٤.

كما أن روايات المهدي المنتظر –على سبيل المثال– تقدم دلالات تقضي على أصول قرآنية بأكملها كالشورى وحق الأمة في اختيار ممثليها ومسئوليها.

قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى:٣٨.

---

٣٣١ لا إكراه في الدين ص ٣١–٣٢، طه جابر العلواني.

قال تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ آل عمران:١٥٩ .

وجاءت السنة النبوية كاشفة ومبينة لهذه المعاني والدلالات التي أصلتها النصوص القرآنية . في المقابل نجد أن روايات المهدي المنتظر تصر على أن المنتظر يملك حقاً إلهياً يمكنه من سلب إرادة الأمة والتحكم فيها دون مشورتها ، بل إن من الروايات الواردة في هذه القضية ما يشير صراحة إلى هذا الاستبداد الديكتاتوري المطلق للمبعوث الإلهي[٣٣٢] حسب زعم تلك الروايات ، فمن تلك الروايات المنسوبة إلى آل البيت العلوي :

• من روايات محمد الباقر : (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سار في أمته بالمن ، كان يتألف الناس ، والقائم يسير بالقتل ، بذاك أمر في الكتاب الذي معه أن يسير بالقتل ولا يستتيب أحداً ، ويل لمن ناواه)[٣٣٣] . ولا ندري ما هو هذا الكتاب الذي يأمره بسفك الدماء بهذا الشكل؟! .

• من روايات محمد الباقر : (لو يعلم الناس ما يصنع القائم إذا خرج لأحب أكثرهم ألا يروه مما يقتل الناس ، أما إنه لا يبدأ إلا بقريش ، فلا يأخذ منها إلا السيف ، حتى يقول كثير من الناس ليس هذا من آل محمد ، ولو كان من آل محمد لرحم)[٣٣٤] .

• من روايات محمد الباقر : (لو قام قائمنا بدأ بالذين ينتحلون حبنا فيضرب أعناقهم)[٣٣٥] .

---

٣٣٢ ومما يؤسف له أن يقع العلامة أبو يعقوب الوارجلاني في فخ الدعاية لهذه القضية فيقول في "الدليل والبرهان" ج٢ ص ٢٤ : (فإن كان عن معصوم كان حقاً ، ولا معصوم إلا المهدي وعيسى ابن مريم عليهما السلام) .

٣٣٣ معجم أحاديث الإمام المهدي ج٣ ص ٣٠٣ .

٣٣٤ المرجع السابق ج٣ ص ٣٠٣ .

٣٣٥ المرجع السابق ج٣ ص ٣٠٤ .

• من روايات محمد الباقر: (إذا قام القائم عرض الإيمان على كل ناصب، فإذا دخل فيه بحقيقة وإلا ضرب عنقه أو يؤدي الجزية كما يؤديها اليوم أهل الذمة، ويشد على وسطه الهميان، ويخرجهم من الأمصار إلى السواد)[٣٣٦]. ولاحظوا هنا أن الجزية تفرض على أناس مسلمين لا يلتزمون في الرأي بمنهج آل البيت العلوي (=ناصبي).

• من روايات محمد الباقر: (يقضي القائم بقضايا ينكرها بعض أصحابه ممن قد ضرب قدامه بالسيف وهو قضاء آدم عليه السلام، فيقدمهم ويضرب أعناقهم. ثم يقضي الثانية فينكرها قوم آخرون ممن ضرب قدامه بالسيف وهو قضاء داود عليه السلام، فيقدمهم فيضرب أعناقهم. ثم يقضي الثالثة فينكرها قوم آخرون ممن قد قرب قدامه بالسيف، وهو قضاء إبراهيم عليه السلام، فيقدمهم فيضرب أعناقهم. ثم يقضي الرابعة وهو قضاء محمد صلى الله عليه وآله فلا ينكرها أحد)[٣٣٧].

• من روايات جعفر الصادق: (هذا المهدي هذا المهدي، يقضي بقضاء آل داود لا يسأل عليه بينة)[٣٣٨].

• من روايات جعفر الصادق: (إذا تمنى أحدكم القائم في عافية فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة ويبعث القائم نقمة)[٣٣٩].

• من روايات جعفر الصادق: (فأخبرني عن القائم أيسير بسيرته "=أي علي بن أبي طالب"؟. قال: لا، لأن علياً عليه السلام سار فيهم بالمن لما علم من دولتهم، وإن القائم عليه السلام يسير فيهم بخلاف تلك السيرة لأنه لا دولة لهم)[٣٤٠].

---

٣٣٦ المرجع السابق ج٣ ص ٣٠٨.

٣٣٧ المرجع السابق ج٣ ص٣٠٩.

٣٣٨ المرجع السابق ج٤ ص ١١.

٣٣٩ المرجع السابق ج٤ ص٣٦.

● من روايات جعفر الصادق: (بينا الرجل على رأس القائم يأمره وينهاه إذ قال: أديروه، فيديرونه إلى قدامه، فيأمر بضرب عنقه، فلا يبقى في الخافقين شئ إلا خافه)[٣٤١].

● من روايات جعفر الصادق: (إذا قام القائم من آل محمد صلوات الله عليهم أقام خمسمائة من قريش فضرب أعناقهم، ثم أقام خمسمائة فضرب أعناقهم، ثم خمسمائة أخرى، حتى يفعل ذلك ست مرات، قلت: ويبلغ عدد هؤلاء هذا؟. قال: نعم منهم ومن مواليهم)[٣٤٢]. ولا ندري لِمَ تأخذ هذه الروايات أناساً في آخر الزمان بجرائر آبائهم منذ قرون متطاولة؟ ثم أين هي قريش اليوم، وما هو وزنها الاجتماعي؟ التفسير المقبول والمنطقي أن هذه الروايات هي نتاج للصراع الدائر بين القوى السياسية آنذاك ثم سحب وألقيت عباءته على أحداث آخر الزمان، روى نعيم بن حماد في الفتن (٩٩٩) عن أبي جعفر محمد الباقر في وصف حركة المهدي: (فيظهر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أهل بدر على غير ميعاد قرعاً كقرع الخريف، رهبان بالليل أسد بالنهار، فيفتح الله للمهدي أرض الحجاز، ويستخرج من كان في السجن من بني هاشم)، فالمهدي لا يزال يفكر في بني هاشم المسجونين في سجون بني أمية فيتمنى في آخر الزمان أن يخرجهم!، وتضاف إلى تلك الحبكة رجعة أهل بدر مساندين له في فتح الحجاز والكوفة!.

---

٣٤٠ المرجع السابق ج٤ ص ٣٨.

٣٤١ المرجع السابق ج٤ ص٤١.

٣٤٢ المرجع السابق ج٤ ص ٤٢.

أشراط الساعة عند فقهاء المدرسة الجابرية

لا شك أن كل مسلم يؤمن بأن للساعة أشراطاً تصديقاً لما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاّ السّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنّىَ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾محمد ١٨، وقد ذكرنا فيما مضى أن الذي ينسجم مع ثوابت النصوص القرآنية أن أشراط الساعة ولت وذهبت ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، ومجال بحثنا يكمن في تلك التنبؤات المستقبلية الدقيقة التي جاءت في مجموعات الأحاديث المروية في كتب المحدثين، والتي قلنا إن فيها مخالفات للدلالات القرآنية.

نتساءل ما هو موقف فقهاء المدرسة الجابرية من ذلك الصنف من الروايات؟.

أولاً: **خلت مجموعاتهم الحديثية التي رووها من طرقهم من هذا الصنف من الروايات**[٣٤٣]، فلا توجد لديهم أحاديث عن المهدي المنتظر وعودة المسيح عليه السلام وفتح القسنطينية والسفياني ومعظم تلك التفاصيل الدقيقة فيما يكون وما هو كائن إلى قيام الساعة كما هو الحال في مجموعات الأحاديث الأخرى[٣٤٤].

---

٣٤٣ راجع مسند الربيع، مدونة أبي غانم، آثار الربيع، الديوان المعروض.

٣٤٤ قال المعلقون على معجم أحاديث الإمام المهدي ج٢ ص ١٢٥: (يختلف التصوير الذي تقدمه الأحاديث الواردة في مصادرنا الشيعية عن الدجال وحركته، عن التصوير الذي تقدمه الأحاديث الواردة في المصادر السنية ببعض الأمور، منها:

- خلو أحاديثنا من أكثر العناصر التصويرية المتقدمة.

- أن حركة الدجال فيها ليست حادثاً ابتدائياً، بل هي حركة مضادة لثورة الإمام المهدي الشاملة، وقوام هذه الحركة المضادة اليهود والمنافقون من الداخل الذين يتصفون بدرجة خاصة من العداء للإمام المهدي وأهل البيت عليهم السلام.

- أن الذي يقتل الدجال هو الإمام المهدي وليس عيسى عليهما السلام).

ونستثني من ذلك روايتين:

١ . الربيع (٥٥): أبو عبيدة من طريق ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أراني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما إن يرى من آدم الرجال، له لمة كأحسن ما إن يرى من اللمم قد رجلها وهي تقطر ماء متكئاً على عواتق رجلين يطوف بالكعبة، فسألت من هذا فقيل لي المسيح بن مريم عليهما السلام، ثم إذا أنا برجل جعد قطط أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية، فسألت من هذا فقيل لي المسيح الدجال).

٢ . الربيع (٤٩٥): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات).

هاتان الروايتان تذكران بصراحة الدجال:

- في (١) رؤية منامية
- في (٢) الاستعاذة منه في الدعاء.

لكن لا توجد روايات أخرى عما يكون من تفاصيل صراعات الدجال كما هو الحال في مجموعات الأحاديث الأخرى[٣٤٥].

---

٣٤٥ قال المعلقون على معجم أحاديث الإمام المهدي ج١ ص ٥٥٩: (ورد في نصوص النصارى واليهود وفي عدد من الأحاديث نسبة قتل الدجال إلى المسيح عليه السلام، وورد في عدد آخر من الأحاديث –خاصة عن أهل البيت عليهم السلام– نسبة قتله إلى المهدي عليه السلام، ولعل السبب في ذلك أن عيسى إنما ينزل مصدقاً بالإسلام وبالمهدي عليهما السلام ويعاونه في قتل الدجال، ومهما يكن فينبغي التثبت في الحكم على الأحاديث التي تنسب

وقد وقفنا على أمر فيما يشبه الكشف العلمي أن فقهاء المدرسة الجابرية يأخذون بالأحاديث والروايات التي جرى عليها العمل، فـ(الصحيح منها ما أيده العمل أو وقع عليه الإجماع لذلك)[٣٤٦]، فالظهور المتأخر للروايات وعدم قيام عمل عليها مؤذن بضرورة الفحص والتمحيص الدقيق والعرض على الأصول، (فلذلك تجب الأسانيد والبحث عن صحتها ثم التنازع في تأويلها إذا صحت بنقلها، فإذا اختلفوا في حكمها كان مرجعهم إلى الكتاب)[٣٤٧]، إذ قد تكون من جملة ما نسخ فترك، أو هي من جملة الدس المتأخر الذي يراد به التشويش على الأصول الثابتة، أو هي من جملة التسريبات من الثقافات الأخرى، أو هي نتاج أي عارض من العوارض الإنسانية الأخرى كالخطأ والوهم والنسيان والرواية بالمعنى.

وهذا يشمل حتى الروايات التي يروونها بأنفسهم عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فالصحابة تجري عليهم من العوارض الإنسانية ما تجري على غيرهم، ولقد ضربنا على ذلك الكثير من الأمثلة في الصفحات الماضية.

ولو جئنا نرى أثر قضية الدجال على كتاباتهم فلن نجد لها أي أثر في كتاباتهم الفقهية والعقدية، فلا يوجد لها ذكر في آثار الربيع بن حبيب في الحجة على مخالفيه ولا في روايات أبي سفيان محبوب بن الرحيل عن الربيع ولا في روايات الإمام أفلح عن أبي غانم ولا في الأخبار المقاطيع عن جابر بن زيد، وهي المجموعات الفقهية والعقدية التي تعرضت للكثير من التفصيلات العقدية، وهي في نظري أشبه ما تكون بشروح

قتل الدجال إلى عيسى وتغفل ذكر المهدي عليهما السلام، لأنها قد تكون متأثرة بالإسرائيليات أو النصرانيات، وقد رأيت أن بعضها يروي هذا الأمر صراحة عن أهل الكتاب ولم يسنده إلى النبي صلى "ص").

٣٤٦ كتاب الجامع ج١ ص ٥٤٧، عبدالله بن محمد بن بركة.

٣٤٧ المرجع السابق ج١ ص ٢٨٠.

مختصرة لمسند الربيع، لكنها لم تشر على الإطلاق لما يسمى بالدجال ولا عودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان.

كذلك لا يوجد ذكر لها في مدونة أبي غانم وآثار الربيع (روايات ضمام) والديوان المعروض، وهي أهم الكتب الفقهية التي وصلتنا من تراث المدرسة الجابرية، وكذلك لم نجد لها ذكراً في المصنفات العقدية القديمة في المذهب ككتاب التوحيد[٣٤٨] لعبدالله بن يزيد الفزاري[٣٤٩]، وهو أقدم مصنف إباضي في العقيدة وصلنا حتى الآن، بل قد صرح الفزاري بأن (الإيمان الذي لا يسع الناس جهله: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وما جاء به فهو حق من الموت والبعث والحساب والجنة والنار، فهذا الإيمان الذي لا يسع الناس جهله على حال من الأحوال)[٣٥٠] دون مطالبة الناس باعتقاد أحداث تاريخية تفردت بها بعض المجموعات الحديثية، وكذلك لم يذكرها عمروس بن فتح المساكني تلميذ أبي غانم الخراساني في مصنفه العقدي الفقهي "أصول الدينونة الصافية".

بل إن ما يروى عن بعض منهم فيه إنكار هذه القضايا تعويلاً على فهم سنن الحياة التي استخلصوها من فهمهم لكتاب الله تعالى، فمن ذلك ما قاله القائد المغوار والعلامة

---

٣٤٨ كتاب التوحيد، عبدالله بن يزيد الفزاري (مدرج ضمن رسالة "عبدالله بن يزيد الفزاري..حياته وآثاره"، سعيد بن محمد الفزاري).

٣٤٩ عالم إباضي، عاش في القرن الثالث الهجري وأواخر القرن الثاني، يذهب بعضهم إلى أنه من تلاميذ أبي عبيدة، ويذهب آخرون إلى أنه تتلمذ لتلاميذ أبي عبيدة كعبدالله بن عبدالعزيز، له عدة مؤلفات منها: كتاب التوحيد، وكتاب النهروان وغيرها. (انظر"عبدالله بن يزيد الفزاري حياته وآثاره"، سعيد بن محمد الفزاري).

٣٥٠ كتاب التوحيد ص٦٢، عبدالله بن يزيد الفزاري (مدرج ضمن رسالة "عبدالله بن يزيد الفزاري..حياته وآثاره"، سعيد بن محمد الفزاري).

المجاهد المختار بن عوف السليمي المعروف بأبي حمزة الشاري –وهو من تلاميذ أبي عبيدة– في خطبته بالمدينة المنورة عام ١٢٩هـ في حق أناس يؤمنون بمثل هذه الميثيولوجيات: (لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب، قد قلدوا أمرهم أهراءهم [٣٥١]، وجعلوا دينهم عصبية لحزب لزموه، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم، غياً كان أو رشداً، أو ضلالة أو هدى، ينتظرون الدول في رجعة الموتى...)[٣٥٢]، وقوله في إنكار رجعة الموتى ينسحب على القول بعودة ورجعة المسيح عليه السلام بعد وفاته وأي رجعة للموتى بعد وفاتهم[٣٥٣]، واعتبر ذلك ممن يقول به تعبيراً عن عدم رجوع إلى نظر نافذ في القرآن ولا عقل بالغ في الفقه ولا تفتيش عن حقيقة الصواب.

وقد زاد هذا البيان توضيحاً أبو الحسن البسيوي عندما سئل عمن (زعم أن قبل يوم القيامة بعثاً، يُقتَل بعده من قد مات من الدنيا، ويموت من قد قُتِل، وأن دولتهم

---

٣٥١ كبريات البيوت، ويعني به هنا البيوت الارستقراطية بالمصطلح المعاصر.

٣٥٢ الأغاني ج ٢٣ ص٢٥٥، أبو الفرج الأصفهاني.

٣٥٣ ينسحب كلام أبي حمزة الشاري على قضية رجعة ما يسمى بالمهدي المنتظر أيضاً، وقد شكك البعض في مصداقية هذا الكلام؛ على اعتبار أن فكرة غيبة المهدي المنتظر عند المؤمنين بها كانت بعد عصر أبي حمزة، وهذا الكلام لا يصح على الإطلاق لعدة أسباب أهمها:

– أن فكرة المهدوية تداولها أمثال كعب الأحبار وغيره من مسلمة أهل الكتاب كما تشهد بذلك النصوص المروية عنهم، وهؤلاء كانوا قبل أبي حمزة.

– أن فكرة رجعة المهدي وجدت قبل أبي حمزة عند من اعتبروها من بعد مرتكزاً مهماً من مرتكزاتهم العقدية، فقد قالت جماعة بمهدوية علي بن أبي طالب، ثم قالت بعدها جماعة أخرى بمهدوية محمد بن علي بن أبي طالب (=ابن الحنفية)، ثم قيل إنه ابنه عبدالله بن محمد، ولم تتوقف لديهم ادعاءات المهدية حتى ادعاء غيبة محمد بن الحسن العسكري، وهذا يدل على تجذر الفكرة وتغلغلها منذ وقت مبكر جداً. (انظر كتاب "تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه" ص ١٨٢–١٩٠، أحمد الكاتب).

وظهور أمرهم، وبيان تصديق قولهم بعد ذلك البعث)[٣٥٤]، والنص كما يظهر في الحديث عن عقائد الرجعة التي جاءت بها الكثير من الروايات كرجعة المسيح عليه السلام والمهدي وآل البيت العلوي وأعدائهم، فقال: (قيل له: كاذب؛ مخالف كتاب الله، والإجماع على خلاف قوله، وقال الله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الجاثية:٢٦ مما يدل على تكذيبه، وقال تعالى ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾ آل عمران:١٥٨، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة وإن كادت لتسبقني"[٣٥٥]، ولم يقل مثل صاحب هذه المقالة، ولا عن الصحابة الذين هم الحجة على الناس شيء مما ذكره هذا، وهذا كله كذب ودعوى، ولا يصح لمن قال ذلك، وقوله زور ومخالف للقرآن الكريم)[٣٥٦].

بل إن البسيوي – فيما نقله عنه صاحب لباب الآثار– يقرر في صراحة أكبر عدم صحة هذه الأمور (مسألة: الشيخ أبو الحسن: ما تقول في الدجال، أله صفة أم لا؟

قال: كل الفسقة دجاجلة فلا أدري الذي تصفونه.

قلت له: وكذلك عيسى بن مريم يبعث في آخر الزمان قبل يوم القيامة؟.

قال: لم يصح ذلك عندنا، ولا يكون البعث إلا يوم القيامة والله أعلم)[٣٥٧].

---

٣٥٤ جامع أبي الحسن البسيوي ج١ ص ٩٩، علي بن محمد البسيوي.

٣٥٥ ورد الحديث بهذا اللفظ عند أحمد (٢٢٩٩٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٢٦).

٣٥٦ جامع أبي الحسن البسيوي ج١ ص ٩٩، علي بن محمد البسيوي. وانظر أيضاً نفس المرجع ج١ ص ٢٤٩. ونقل هذا الكلام عن البسيوي عثمان بن أبي عبدالله الأصم في كتاب "النور" ص ٢٤١.

٣٥٧ لباب الآثار ج١ ص ٢٠٣، مهنا بن خلفان البوسعيدي.

أما الرواية (٢) : عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) . ذكر بعض الفقهاء أن هذا الدعاء يقال بعد الفراغ من التشهد قبل السلام لأن (رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن)[٣٥٨] ، فيظهر من سياقها المواظبة من النبي صلى الله عليه وسلم على قول ذلك الدعاء وتعليم أصحابه ذلك، وإذا كان الأمر كذلك من المواظبة والعناية بهذا الدعاء المشتمل على التحذير من فتنة الدجال حتى يدخل في الصلاة فلننظر كيف تعامل معه رواته؟ .

جاء في الديوان المعروض من كلام أحد تلاميذ الإمام الربيع لما : (سئل عن التشهد؟ قال : كان الفقهاء يقولون "التحيات المباركات لله والصلوات الطيبات، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، وسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" .

هذا عن ابن عباس وجابر بن زيد ، وكان يستحب إذا سلم أن يدعو بدعاء ما في كتاب الله "اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، وزين الإيمان في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان" ونحو هذا، فهذا أفضل الدعاء في الصلاة المفروضة)[٣٥٩] .

وقال أبو غانم في المدونة : (التشهد أن تقول حين تجلس بعد كل ركعتين : "التحيات لله والصلوات الطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى

---

٣٥٨ شرح النووي على صحيح مسلم ج٥ ص٨٨.

٣٥٩ الديوان المعروض (من قول قتادة ج١ ص ٢٢).

عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"[٣٦٠].

ثم تدعو بعد كمال الرابعة وبعد هذا التشهد بما بدا لك وبما يصلح لك أن تدعو به.

قال أبو المؤرج: قال أبو عبيدة: فهذا تشهد عبدالله بن مسعود.

قال: وتشهد عبدالله بن عباس: "التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"[٣٦١].

قال ابن عباس: إنما كنا نقول: "السلام عليك أيها النبي" إذ كان فينا حياً، فلما مات النبي عليه الصلاة والسلام؛ قلنا: "السلام على النبي ورحمة الله وبركاته".

قال أبو عبيدة فيما روى عنه أبو المؤرج: إذا قال: "وحده" فقد نفى أن يكون له شريك.

قال الربيع وأبو المؤرج: بلغنا عن عبدالله بن مسعود أنه كان يعلم أصحابه هذه الكلمات من التشهد كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وكان ابن مسعود يقول: "علمنيهن النبي عليه الصلاة والسلام")"[٣٦٢].

---

٣٦٠ في نسخة من مخطوطات المدونة: (التحيات المباركات لله والصلوات الطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله).

٣٦١ في نسخة من مخطوطات المدونة (التحيات المباركة لله والصلوات الطيبات، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته وسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله).

٣٦٢ المدونة الصغرى ج١ ص ٣١– ٣٢، بشر بن غانم الخراساني.

وهذا الدعاء بعد التشهد وقبل السلام قال عنه أبو غانم: (سألت الربيع وأبا المؤرج: هل في الدعاء في الصلاة شيء مؤقت لا يدعو الداعي إلى ما سواه؟.

قال: ليس عندنا في ذلك شيء مؤقت، غير أن أفضل ذلك أن يدعو بما في القرآن مما يجوز له أن يدعو به.

قلت: أيصلح أن يقول في دعائه: "اللهم زوجني واكسني واجملني وأطعمني وارزقني مالاً عظيماً أفعل به المعروف وأصل به الرحم وأتقرب إليك به"، ثم يسهب في الدعاء ويلح في المسألة؟.

قال: يكره ذلك إلا بما ذكر الله في القرآن، ويقول: ﴿رَبَّنَآ آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ البقرة:٢٠١ ونحو ذلك مما في القرآن.

قال أبو المؤرج: ولو أنه بعدما فرغ من التشهد والثناء على الله والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، ثم يسلّم، ثم يدعو بعد التسليم بالذي ذكرت من الأمر الأول لكان حسناً جميلاً)[٣٦٣].

من كل هذه النقول عن فقهاء المدرسة الجابرية يتبين أنهم كانوا يستحبون الدعاء في الصلاة بما في القرآن، ولم يروا في تلك الرواية التي رووها بأنفسهم أية إلزامية في قولها بعد التشهد (=سنة متبعة).

والذي يظهر من جملة قواعدهم في الصلاة أن الصلاة من أولها إلى آخرها من أقوال وأفعال عبارة عن معان قرآنية، فالصلاة (لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)[٣٦٤]، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في تعليمه

---

٣٦٣ المرجع السابق ج١ ص ٦٨.

٣٦٤ رواه مسلم (٥٣٧) من طريق معاوية بن الحكم عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الناس الصلاة وتشريعها لهم يتأول القرآن، فمثلاً (لما نزل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الحاقة:٥٢ قال: اجعلوها في ركوعكم. فلما نزل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىَ﴾ الأعلى:١ قال: اجعلوها في سجودكم)[٣٦٥] ، ويرى فقهاؤنا (أن جميع ما يقال في الصلاة ليس من كلام الآدميين، وإنما هو مستخرج من كلام رب العالمين، وإن كانت غير منتظمة بعضها مع بعض في الكتاب انتظامها في الصلاة ومتباينة في التنكير والتعريف فليس ذلك بضائر لها ولا مخل بمعناها. أما تكبيرة الإحرام ففي سورة العنكبوت ﴿وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت:٤٥، وأما الاستعاذة، ففي سورة النحل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ النحل:٩٨، وأما قراءة القرآن ففي سورة المزمل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ المزمل:٤ وفيها ﴿فَاقْرَؤُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المزمل:٢٠ و﴿فَاقْرَؤُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ المزمل:٢٠ ، وأما الركوع والسجود ففي آخر سورة الحج ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ﴾ الحج:٧٧ وفي آل عمران ﴿يَمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ آل عمران:٤٣، وتسبيح الركوع ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الحاقة:٥٢ ، وفي السجود ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىَ﴾ الأعلى:١، وقول "سمع الله لمن حمده" ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ﴾ آل عمران:١٨١، والمجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى﴾ المجادلة:١، وحمد الله شائع في القرآن، وأما "التحيات المباركات" ففي آخر سورة النور ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَىَ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ النور:٦١، وهذه في صيغة الإفراد، وتلك في صيغة الجمع، وأما

---

٣٦٥ رواه الربيع (٢٣٣) من طريق ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم.

"الصلوات" ففي سورة البقرة ﴿أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ البقرة:١٥٧، وأما لله ﴿الْحَمْدُ للّهِ﴾ الفاتحة:٢ ، وأما "السلام" و"سلام" ففي سورة مريم ما حكى ربنا من قول ابني الخالة: الشهيد وروح الله ذي القول السديد عليهما السلام ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ﴾ مريم:١٥ ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ﴾ مريم:٣٣ ، وإن يكن من أسماء الله تعالى فـ﴿السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ﴾ الحشر:٢٣ في سورة الحشر، و"علينا" في سورة البقرة ﴿وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾ البقرة:٢٨٦ ، وأما "عباد الله" ففي سورة الدخان ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ الدخان:١٨ ، وأما "الصالحين" ففي سورة البقرة ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ البقرة:١٣٠ ، وفي سورة الأنعام ﴿وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأنعام:٨٥ ، وأما "أشهد أن لا إله إلا الله" ففي سورة الأعراف ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ﴾ الأعراف:٧٠ ، وأما "لا شريك له" ففي آخر سورة الأنعام ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ الأنعام:١٦٣ ، وأما "محمد" ففي مواضع منها ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ الفتح:٢٩ في سورة الفتح، وأما "أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" ففي موضعين ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وفي سورة الصف ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف:٩ ، فبهذا يستدل على أن جميع ما يقال في الصلاة خارجة أصوله من كتاب الله تعالى)[٣٦٦]. فالتحذير من شخص اسمه الدجال وفتنته ليست في كتاب الله لا من قريب ولا من بعيد، لذا لم يروا من

---

٣٦٦ بتصرف من جوابات الشيخ يحيى بن خلفان بن جاعد الخروصي، نقلاً عن الناسخ سليمان بن ناصر الخروصي، من مجموعة (محمد بن سالم بن موسى الخروصي).

الناحية الفقهية أن يعملوا بهذه الرواية ويدخلوها ضمن أدعية الصلاة، لذا (قال أصحابنا رحمهم الله: إنما يدعو بما في القرآن)[٣٦٧]، و(عمل أصحابنا من أهل المشرق في زماننا هذا أنهم يزيدون بعد قوله: "وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"؛ صلى الله عليه وسلم، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؛ ثم يسلمون)[٣٦٨].

أما عن تولد الرواية؛ فالذي أراه أن الاحتمال الراجح هو أن أصل الرواية –والله تعالى أعلم– كان تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من عموم الدجالين وما أكثرهم، فأينما يمت ببصرك في كل زمان ومكان ستجدهم حاضرين بكثرة، ومما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله)[٣٦٩] وهؤلاء الدجالون لم ينقطعوا قبل الرسالة الخاتمة من أمثال بولس وغيره، مروراً بمسيلمة الكذاب وأحمد علي قاديان ورشاد خليفة، وهذه الرواية لم نلحظ فيها ما يدل على كونها تنبؤات بأحداث مستقبلية في عالم الغيب بقدر ما لاحظنا فيها ربطاً بين تحولات اجتماعية وبين أمر الساعة، وهذا ما سنفصله في المبحث التالي، فظن ابن عباس –وهو الذي التقى بكعب الأحبار وروى عنه[٣٧٠] –

---

٣٦٧ معارج الآمال ج٨ ص ٢١٥، عبدالله بن حميد السالمي.

٣٦٨ المرجع السابق ج٨ ص ٢١٨. وللمزيد من التفصيل في هذه المسألة انظر: جامع ابن جعفر، جامع ابن بركة، المصنف، بيان الشرع، الضياء، جامع البسيوي، منهاج الطالبين، الإيضاح، قاموس الشريعة، التاج المنظوم، شرح النيل.

٣٦٩ البخاري (٣٤١٣).

٣٧٠ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٣ ص ٤٨٩–٤٩٠: (كعب بن ماتع الحميري اليماني العلامة الحبر الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر رضي الله عنه، فجالس

أنه ذلك الدجال الذي يتحدث عنه كعب فروى الرواية بالمعنى، وهذه الرواية وجدت أيضاً في مجموعات الأحاديث الأخرى من طريق ابن عباس[٣٧١]، مما يقوي هذا الاحتمال الذي نفترضه.

ولا مانع من الاستطراد قليلاً للحديث عن الإسرائيليات، فالرواية الإسرائيلية: (هي رواية أصلها من أهل الكتاب، ووصلت إلى المسلمين على هيئة روايات تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من المسلمين؛ من الصحابة أو التابعين أو غيرهم من العلماء).

نأتي لشرح هذا التعريف:

(الرواية).... لا شك أن هناك قواسم مشتركة بين أتباع الشرائع، إذ إن الدين في أصله واحد من يوم خلق السماوات والأرض، لكن يحصل عبر الزمن انحراف عن أصل الدين فيختلط الحابل بالنابل، فيصبح من غير الممكن التمييز بين أصل الدين والشريعة الإلهية وبين إضافات الناس وتحريفاتهم، والله سبحانه وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز أن أهل الكتاب (يهوداً ونصارى) قد غيروا وبدلوا وحرفوا شرائع الأنبياء –صلى الله عليهم أجمعين–

﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُون﴾ آل عمران:١٨٧

أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية... حدث عنه أبو هريرة ومعاوية وابن عباس، وذلك من قبيل رواية الصحابي عن التابعي وهو نادر عزيز).

٣٧١ مسلم (٥٩٠).

﴿مِنَ الَّذِينَ هادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ المائدة:٤٢ .

لذا فما جاء **بطريق القطع** (=**كالقرآن الكريم**) من عند الله تعالى أنه من شرائع الأنبياء فنجزم أنه من عند الله تعالى وأنه من بقايا الوحي الإلهي كقوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران:٩٣ .

أما ما جاء من طريق ظني وفيه من آثار الصنعة اليهودية والنصرانية وكان يصب في مصلحتهم ودخل فيه المحور الزمني فعلينا أن نحذر كل الحذر أثناء تعاملنا معه.

(الرواية الإسرائيلية)..... هي رواية تلقفها المسلمون من أهل الكتاب وصيغت وفق إسناد المسلمين.

(أهل الكتاب)..... هم اليهود والنصارى، وغلب اسم (الإسرائيليات) على روايات الصنفين؛ لأن الديانتين وجدتا في أوساط بني إسرائيل، وموسى وعيسى عليهما السلام من بني إسرائيل.

(ووصلت إلى المسلمين على هيئة روايات تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من المسلمين من الصحابة أو التابعين أو غيرهم من العلماء)........ انتقال روايات أهل الكتاب للمسلمين كان له أسباب منها :

– الانبهار : وممن يذهب إلى هذا الرأي محمد عابد الجابري في "تكوين العقل العربي" حيث يقول : (ولقد سبق لابن خلدون أن لمس عن قرب بفضل حسه النقدي، ضرورة هذا التمييز الذي نتحدث عنه هنا ؛ التمييز بين المستوى "العالِم" والمستوى "العامي"

في الموروث القديم داخل الفضاء الثقافي العربي الإسلامي. وذلك عندما تعرض لمنهج المفسرين الأوائل للقرآن الذين اعتمدوا "النقل" و "الرواية" والاستعانة في تفاسيرهم بالموروث من الفكر اليهودي الذي كان رائجاً في الجزيرة العربية آنذاك. لقد لاحظ ابن خلدون أن كتب هؤلاء المفسرين " تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود ، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب". وإذن فلقد كان تعامل المفسرين الأوائل مع الموروث اليهودي على نفس المستوى العامي الذي كان رائجاً بين اليهود في الجزيرة العربية آنذاك)[٣٧٢] .

– **المؤامرة** : وهذا الرأي يذهب إليه الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن الإسرائيليات من المعاصرين ، ومن هؤلاء محمد رشيد رضا في (المنار) وحسن السقاف في تعليقاته على كتاب (العلو) للذهبي .

– **الصراع السياسي** : الذي استغل مفردات المثيولوجيا الإسرائيلية لترسيخ الفكرة التي يدعو إليها على هيئة نصوص ينسبها إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من المسلمين من الصحابة أو التابعين أو غيرهم من العلماء .

يتساءل الكثيرون : كيف يمكن التعرف على الرواية الإسرائيلية ، لا سيما وأن الكثيرين يؤكدون دائماً على أن هناك تشابهاً في الشرائع السماوية؟ .

---

٣٧٢ تكوين العقل العربي ص١٨٩ ، محمد عابد الجابري.

ينبغي أن يركز في حس كل مسلم أن أهل الكتاب (=يهوداً ونصارى) قد غيروا وحرفوا أصل الديانة السماوية التي أساسها التوحيد إلى خرافات وأساطير الأمم الوثنية التي احتكوا بها، قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ المائدة:٤١.

لذا فإن **القول بوجود قواسم مشتركة بيننا هي من أصل الوحي الإلهي لا بد فيه من القطع، لوجود تلك المحاذير السابقة**، بالإضافة إلى اختلاط المسلمين بأهل الكتاب من قبل الإسلام في تجمعاتهم في جزيرة العرب كاليمن والحجاز، وكان العرب لا يقرأون كتب أهل الكتاب لأنها كانت مكتوبة بالعبرية واليونانية، فكان أهل الكتاب يفسرونها لهم بالعربية، قال أبو هريرة (كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام)[٣٧٣] وكذلك اختلطوا بهم من بعد أثناء ازدهار عالم الرواية، بالإضافة إلى الصراع السياسي والعامل الزمني المتمثل بتأخر تدوين الروايات، كل ذلك يجعلنا لا نقبل بإثبات القواسم المشتركة بيننا وبين أهل الكتاب إلا بطريق القطع. ومن المؤشرات التي يستدل بها على الرواية الإسرائيلية:

– مخالفة الكتاب العزيز والمتواتر الذي لا شك في تواتره من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه المخالفة تصب لصالح العقائد والتعاليم الإسرائيلية (اليهودية والنصرانية).

– خدمة الرواية لتعاليم أهل الكتاب مما هو من صلب تعاليمهم ومن شعارهم.

---

٣٧٣ البخاري (٤٣١٥).

– النقل الحرفي للرواية بنصها أو معناها من كتب أهل الكتاب، وخاصة في الأخبار وبعض الإنشاءات.

ويرى حسن السقاف (أن الذين جالسوا كعباً ونحوه من الصحابة كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وأنس بن مالك وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص لا يُسلَّم لما هو مروي عنهم من الأحاديث المرفوعة على أنه حقاً من المرفوعات ومن كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل لا بد من سبر ما في الحديث من أفكار، فإن لمسنا أن فيه ما يخالف القرآن أو الأصول والقواعد أو فيه شبه بمنطق الحكايات والأوصاف الإسرائيلية وإن كان في كتب الصحاح رددناه وحكمنا بأنه من الإسرائيليات)[٣٧٤]، بل إن رضاء الله المباركفوري يرى صراحة أن (تسرب الإسرائيليات إلى المسلمين أمر يرجع تاريخه إلى عهد الصحابة)[٣٧٥] لذا حذر ابن مسعود من الرواية عن أهل الكتاب بقوله (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فلن يهدوكم وقد ضلوا، إنما هو كذب يصدقونه أو صدق يكذبونه)[٣٧٦]، وقد (مر ابن مسعود بشيخ يحدث عن التوراة، فلما رآى ابن مسعود سكت. فقال: وبم يحدثكم صاحبكم؟ فقالوا: ذكر أن الله لما خلق السموات والأرض صعد إلى السماء من بيت المقدس ووضع رجله على صخرة بيت المقدس. فاسترجع ابن مسعود رضي الله عنه، ثم قال: اللهم لا كفر بعد إيمان يقولها مرارا ثم قال ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ النساء: ٨٩ ما

---

٣٧٤ مقدمة حسن بن علي السقاف على كتاب "العلو" للذهبي ص ٢٩.

٣٧٥ مقدمة رضاء الله المباركفوري على كتاب "العظمة" لأبي الشيخ الأصبهاني ج١ ص ١٤٠، نقلاً عن مقدمة حسن بن علي السقاف على كتاب "العلو" للذهبي ص ٢٧.

٣٧٦ كتاب الترتيب، آثار الربيع بن حبيب في الحجة على مخالفيه (١٣٨).

أظنه إلا إبليس تمثل في صورته. ثم قال: فهلا أنكرتم عليه، وقلتم كما قال العبد الصالح إبراهيم عليه السلام﴿لَآ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ الأنعام:٧٦ يقول الزائل المنتقل، فإنهم اليهود على دينكم)[٣٧٧].

ومن الجدير بالذكر أن الكثيرين ينقبضون عند الحديث عن هذه القضية، ويرون فيها طعناً في الصحابة كأبي هريرة وعبدالله بن عمرو بن العاص، فمثلاً عند رجوع عبدالله بن عمرو من معركة اليرموك التي دارت ببلاد الشام، جاء معه بحمل زاملتين (=ناقتين) من كتب أهل الكتاب[٣٧٨]، وكان يعتني بها، فيقرأها ويروي للناس ما فيها، ويبدو أن عبدالله بن عمرو بن العاص أدرك من بعد الآثار السلبية للرواية عن أهل الكتاب، فقد قال: (يوشك أن يكون شيطان كان لسليمان بن داود عليه السلام أوثقه في البحر أن يظهر للناس فيحدثهم ويعلمهم التشبيه يزينون أحاديثهم بأحاديث أهل الكتاب في صفتهم ربهم)[٣٧٩]، لكن يبدو أن اللغة التوراتية المثيولوجية ظاهرة حتى في مقام التحذير منهم بالحديث عن شيطان كان لسليمان بن داود عليه السلام أوثقه في البحر يظهر للناس فيحدثهم[٣٨٠]!!، وقد حاول الكثيرون تقديم تفسير لهذه الظاهرة، واختلفت توجهاتهم في ذلك بحسب خلفياتهم الثقافية:

– فالنظرية الشوفينية التآمرية التي مثلتها بعض التيارات الأخبارية كانت جاهزة ومستعدة لدمغ هؤلاء الصحابة بالانحراف والبعد عن الإسلام والكيد له، ومحاولة دفع

---

٣٧٧ المرجع السابق (١٣٩).

٣٧٨ انظر "النكت على ابن الصلاح" ج٢ ص٥٣٢، أحمد بن علي بن حجر.

٣٧٩ كتاب الترتيب، آثار الربيع بن حبيب في الحجة على مخالفيه (١٣٨).

٣٨٠ الشياطين لا تظهر للناس عياناً ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:٢٧، ودورها يقتصر على الوسوسة وتزيين الباطل للناس.

نظرية الحق الإلهي، لكن نسي هؤلاء أن مثل هذه الإسرائيليات هي التي أسست بعض عقائدهم، مما يعني وببساطة أن لهم يداً في إنتاجها وتسويقها.

– هل يمكن القول كذلك بأنهم استندوا في ذلك إلى الروايات التي تذكر أنه (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[٣٨١] ؟، لكن في المقابل كيف يمكن أن يقال ذلك على إطلاقه مع ما جاء من النصوص الكثيرة في كتاب الله العزيز التي تدمغ أهل الكتاب بالتبديل والتحريف للكتب المنزلة عليهم، وهل يمكن التعويل على كتب نصَّ الكتاب العزيز نصاً صريحاً على تحريفها وبطلانها؟.

– وهل يمكن الاعتذار لهم بشيوع مثل تلك الروايات، خاصة وأن العرب قبل الإسلام اختلطوا باليهود كثيراً وسمعوا منهم الشيء الكثير، لكن قد نتساءل ونقول: ما الداعي إلى ذلك؟، وهل شرع الله أو حتى حياة المسلمين تحتاج إلى روايات غنوصية هرمسية كتلك التي عند أهل الكتاب؟!.

– ثم إذا قلنا بأن روايتهم لها كانت على سبيل التعجب منها والاستخفاف بها، لِمَ لمْ يكن ذلك في نطاق محدود؟!، لا أن يُحدّث بها على نطاق واسع، حتى ولو علم أنها مرويات لأهل الكتاب وليست نصوصاً نبوية، فاحتمالات الخلط بينها وبين النصوص النبوية وارد مع اعتبار العامل الزمني، لذا شدد عمر بن الخطاب على أبي هريرة، وهدده إن لم يترك الرواية لينفينه إلى أرض دوس[٣٨٢]، ف(كان عمر رضي الله عنه يقول أقلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزجر غير واحد من الصحابة عن

---

٣٨١ البخاري (٣٢٧٤)، مسلم (٣٠٠٤).

٣٨٢ سير أعلام النبلاء ج٢ ص٦٠١، محمد بن أحمد الذهبي. حيث روى عن: (سعيد بن عبد العزيز عن إسماعيل بن عبيد الله عن السائب بن يزيد سمع عمر يقول لأبي هريرة: "لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس"، وقال لكعب: "لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القردة").

بث الحديث، وهذا مذهب لعمر ولغيره)[383] وهذا التشديد من عمر حتى لا يتسع الخرق على الراقع، وحتى لا تطمر الدلالات القرآنية والثوابت من السنة بروايات هي في حقيقتها وقائع أحوال لها ظروفها وملابساتها التي تحكمها؛ خاصة من رواة ليس لهم كبير فقه ونظر.

هذه كلها احتمالات ونظريات من القديم والحديث نطرحها أمام الباحثين، ليعملوا فيها النظر، وليعطوا هذه القضية الهامة جداً حقها من البحث، مع التنبيه على أننا لا نشكك في نزاهة وصدق هؤلاء النفر من الصحابة، لكننا نجري بحثاً علمياً عن الظروف والملابسات التي ساهمت في الانتشار الكمي الكبير للإسرائيليات.

ومن واقع استقراء روايات فقهاء المدرسة الجابرية عن الصحابة الذين نسبت إليهم رواية الإسرائيليات نجد أنهم تحاشوا الروايات الأسطورية التي تلقاها هؤلاء الصحابة عن أهل الكتاب أو التي نسبت إليهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولنأخذ على سبيل المثال روايات الصحابي أبي هريرة في مسند الربيع، التي يصل عددها إلى (٧٢) حديثاً:

- خلا الجم الغفير منها من المثيولوجيات والمبالغات والإسرائيليات التي عهدت في الروايات التي تنسب إلى الصحابي أبي هريرة، والتي بلغت (خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً)[384] في مجموعات الأحاديث الأخرى.
- وجابر بن زيد وغيره من فقهاء المدرسة الجابرية كانوا يقتدون بفقهاء الصحابة من أمثال ابن عباس والسيدة عائشة وعمر بن الخطاب من مقابلة وعرض حديث أبي

---

٣٨٣ المرجع السابق ج٢ ص ٦٠١.

٣٨٤ تدريب الراوي ج٢ ص٢١٦، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي.

هريرة على الأصول، (فخبر الواحد مقبول على جهة الاجتهاد، وحسن الظن بالراوي كالشهادات، فمتى كثر غلط الراوي، وظهر من السلف التثبت في روايته، كان ذلك مسوغاً للاجتهاد في مقابلته بالقياس وشواهد الأصول)[٣٨٥].

o وبجانب ذلك لا يفوتنا أن نذّكر بأننا نرى أن ظاهرة الإكثار من الرواية التي كانت عند أبي هريرة والتي انتقدها فقهاء الصحابة كعمر بن الخطاب والسيدة عائشة؛ اتخذت من بعد ذريعة لإلصاق كل ما هب ودب من الروايات بأبي هريرة، وأضرب مثالاً على ذلك بالحديث الذي رواه الإمام الربيع (٥٠٦): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يقول ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر**: من يدعني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)، فهذا الحديث لا إشكال في متنه من حيث انسجامه مع القواعد الكلية الثاوية في نصوص الكتاب والسنة، لكن انظروا ماذا حصل له بعد ذلك، فقد روى البخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر** يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له)، فقد تحولت الرواية إلى التجسيم المحض لله تبارك وتعالى، بحيث وُصِف الخالق جلت قدرته بالنزول والطلوع إلى السماء الدنيا في تصوير أقرب إلى أفلام الكارتون، ورغم محاولات بعض العلماء لصرف هذا اللفظ عن ظاهره البشع بتأويله بما يتفق وعقيدة الإسلام القائمة على التنزيه، إلا أن المقارنة بين الروايات المتقدمة (مثل رواية الربيع) والروايات المتأخرة (مثل رواية البخاري

---

٣٨٥ الفصول في الأصول ج٣ ص١٢٩، أحمد بن علي الرازي الجصاص.

ومسلم) تدلنا وبشكل واضح أن هناك من الرواة وليس بالضرورة البخاري ومسلم من حول جملة (**يقول ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر**) إلى (**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر**).

ثانياً : **الخط العام الذي انتهجه جمهور علماء المذهب الإباضي من هذه القضية يتبين من خلال تتبع مؤلفاتهم والتي سكتوا فيها عن الخوض في هذه القضية وأمثالها**[٣٨٦] وأهملوها بالكلية، ولم يلزموا أحداً باعتقادها، عبر عن ذلك مؤلفو ديوان الأشياخ[٣٨٧] عندما سئلوا عن الدجال أحق أم باطل؟ فقالوا (لم يجيء في كتاب الله له شيء يعرف به، وأما الأحاديث والروايات فقد جاءت به، وذلك ما لم يتعبدنا الله فيه بشيء يجب علينا علمه والعمل به؛ إلا البراءة من كل ظالم سمعنا به، ونحن دائنون لله بالبراءة من أهل تلك الصفة، والدجال مما يسعنا جهله أن لا نعلم أنه حق أم باطل، وقولنا فيه قول المسلمين، والدجال من الجبابرة الظالمين إن كان حقاً. وهؤلاء الجبابرة والدجاجلة والمفارقة لهم واجبة، ولا يُدرَى ما يأتي الله به في عصرنا ولا بعدنا، وذلك إلى الله، والناس مختلفون فيهم، فأنكرهم قوم وثبتهم آخرون)[٣٨٨].

---

٣٨٦ انظر على سبيل المثال: سيرة الشيخ أبي المؤثر الصلت بن خميس المدرجة ضمن "السير والجوابات" ج٢ ص ٢٦٩–٣١٩ والتي خصصها للحديث عن أصول المعتقدات في المذهب، جامع ابن جعفر، جامع ابن بركة، بيان الشرع، المصنف، المعتبر، الاستقامة، الاهتداء، كتاب النور، جامع البسيوي، الضياء وغيرها من المصنفات الأولى في المذهب الإباضي.

٣٨٧ هو مؤلَف لمجموعة من علماء المذهب الإباضي بجزيرة جربة التونسية في اثني عشر جزءاً، وقد تم هذا المؤلف في أواخر القرن الخامس الهجري تقريباً (انظر معجم أعلام الإباضية ج٢ ص ٤٢٨ ترجمة ٩١٩).

٣٨٨ قاموس الشريعة ج٦ ص ٣٣٢–٣٣٣، جميل بن خميس السعدي.

ويقرر سلمة بن مسلم العوتبي[٣٨٩] في باب ما يسع الناس جهله (ويسع الوقوف في الأطفال لأنه مما يسع جهله حتى يصح أمرهم، والدجال مختلف فيه ثبته قوم وأنكره آخرون، وهو مما يسع جهله، وقولنا فيه قول المسلمين)[٣٩٠].

ونفس التوجه يسلكه الصائغي[٣٩١] في أرجوزته حين يقول:

والقـــولُ في حقيقـــةِ الـــدجالِ يعلمُــه الـــرحمنُ ذو الجـــلالِ
لأنـــه مـــا نُـــصَ في الكتـــابِ عنـــــه ولا في ســـــنةِ الأوابِ
وواســــعٌ فيمـــا أراه جهلُـــه إن لم يـــبنْ باطلُـــه وعدلُـــه

وصاغ هذه التوجهات علامة القرن الرابع عشر الهجري في عمان نور الدين السالمي في أحد جواباته (وسع السكوت على من قبلنا فلا يضيق علينا)[٣٩٢]، وقال في موضع آخر (وفي اقترانهما في هذه الرؤيا إشارة إلى ما يرويه قومنا أن عيسى عليه السلام ينزل آخر الزمان فيقتل الدجال ويحكم بالشريعة المحمدية، ولم يثبت هذا عند أصحابنا غير أنهم لا يردونه)[٣٩٣]، ويهمنا هنا ما قاله الشيخ السالمي من أن الخط العام في المذهب أن ذلك (لم يثبت هذا عند أصحابنا)، و(وسع السكوت على من قبلنا فلا يضيق علينا)، فالسكوت أو بعبارة أدق التوقف هو عبارة عن موقف سلبي تجاه هذه

---

٣٨٩ عالم مؤرخ، عاش في القرن الرابع الهجري، ولد في محلة "عوتب" من صحار، يعد من العلماء الذين أسهموا في علم الأنساب من خلال كتابه "الأنساب"، له أيضاً كتاب الضياء في الفقه.

٣٩٠ كتاب الضياء ج٢ ص ٢٨١، سلمة بن مسلم العوتبي.

٣٩١ سالم بن سعيد بن علي الصائغي المنحي، فقيه وشاعر عماني، عاش في القرن الثالث عشر الهجري، له مؤلفات عديدة في الفقه وقصائد كثيرة، منها: "المضنون به على غير أهله" في أصول الدين والفقه والآداب الشرعية، و"الإرشاد"، وله أرجوزة نقحها العلامة نور الدين السالمي. (دليل أعلام عمان ص ٧٦).

٣٩٢ جوابات الإمام السالمي ج٦ ص ٢٢٤، عبدالله بن حميد السالمي.

٣٩٣ شرح الجامع الصحيح ج١ ص ٩٢، عبدالله بن حميد السالمي.

الروايات، فالتوقف ناشئ عن شكوك تحوم حول الأمر تجعل العقول تستصعب هضمه واستيعابه. وأما قول الشيخ السالمي (غير أنهم لا يردونه) ففيه نظر:

لأن ذات التوقف عن القضية وإهمالها ناشئ في حقيقته عن شك وريبة في متون هذ الروايات وأسانيدها، فمن البعيد جداً أن ننسب إليهم القول بأنهم لا يردونه، ثم إن هناك من رد مثل هذه الروايات من أصحابنا منهم أبو حمزة الشاري وأبو الحسن البسيوي كما تقدم وناصر بن أبي نبهان الخروصي[٣٩٤] حيث قال: (وفي أخبار قومنا أن الله يبعث المهدي ويخرج الدجال وينزل عيسى من السماء، وكل ذلك في نفسي بعيد من الصواب، ومعي أن الخضر ميت وعيسى كذلك لقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ آل عمران:٥٥، ومن قال هذا غير صحيح ولم يخطِّئ من قال إنه صحيح ولم يدن بصحته فهو سالم، ولا يلزم هنا شيء من الاعتقاد معنا، فاعرف ذلك وبالله التوفيق)[٣٩٥]، وقال في موضع آخر: (فكيف يترك أمة النبي صلى الله عليه وسلم على ضلالهم عند افتراق الصحابة إلى خروج عيسى والمهدي، وكثير من عباد الله يريد أن يعبد الله تعالى بدينه الحق، فيتركه الله بضلاله وصار لا فائدة لبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلا لنفسه ولأصحابه الذين ماتوا قبل وقوع الأحداث الواقعة بينهم، وإن كان الحق معروفاً بدون عيسى والمهدي فما فائدة بعثهما؟، فأينما توجهت في البحث

---

٣٩٤ ناصر بن جاعد بن خميس الخروصي (١١٩٢–١٢٦٢هـ/١٧٧٨–١٨٤٧م) عالم وفقيه عماني، ولد في بلد "العليا" بوادي بني خروص وتوفي في زنجبار، له مؤلفات عديدة منها: كتاب الإخلاص، وكتاب مبتدأ الأسفار، وكتاب التهذيب، وله أجوبة كثير في مختلف المسائل أوردها صاحب قاموس الشريعة. (دليل أعلام عمان ص ١٥٩).

٣٩٥ قاموس الشريعة ج٦ ص ١٤٠–١٤٠، جميل بن خميس السعدي.

تجد هذا غير صحيح)[396] ، والشيخ السالمي نفسه يقول في مؤلَف آخر (اعلم أن نبينا عليه الصلاة والسلام لا نبي معه ولابعده، فما رواه قومنا من نزول عيسى عليه السلام لم يصح عند أصحابنا رحمهم الله تعالى)[397] .

وهذه الثقافة التي أهملت هذه القضايا ولم تعرها التفاتاً ولدت حساً يجعل من أمر الساعة أقرب إلى الإنسان من شراك نعله، ففي عمان في عهد الاحتلال البرتغالي لبعض المدن الساحلية وقبل ظهور دولة الإمام ناصر بن مرشد[398] استطول الناس في إحدى المناطق ليلة من الليالي (فظنوا ذلك بدء الساعة، كلما قاموا وصلوا ما شاء الله ورقدوا ما شاء الله وقاموا وصلوا ما شاء الله وجدوا الليل على حاله، فقال لهم الشيخ صالح بن سعيد الزاملي[399] : انظروا إلى البهائم إن كانت تجتر فليست هذه ليلة الساعة وإن كانت لا تجتر فإنها ليلة الساعة)[400] .

فالحس الذي تولد لدى الجماهير المؤمنة من خلال التفاعل مع كتاب الله تعالى أن الساعة مما استأثر الله تعالى به وأنها تدهم الناس بغتة جعلهم في حال استعداد دائم لقيامها بالعمل الصالح، لم ينتظروا مهدياً ولا مسيحاً ولا دجالاً ولا أي من النبوءات المستقبلية، فبمجرد أن استطولوا ليلة حسبوا أنها الساعة، وهذا الموقف الذي سجله

---

396 تمهيد قواعد الإيمان ج١ ص ١١١، سعيد بن خلفان الخليلي.

397 معارج الآمال ج١ ص ٥٢، عبدالله بن حميد السالمي.

398 أي قبل عام ١٦٢٤م.

399 قاض وزعيم عماني، عاش في القرن الحادي عشر الهجري، من أولاد زامل من الأزد، تولى القضاء في عهد أئمة اليعاربة بنزوى، اجتمع وعلماء عصره وعقدوا البيعة للإمام ناصر بن مرشد اليعربي. (دليل أعلام عمان ص ٩٥).

400 تحفة الأعيان ج١ ص ٤٠١، عبدالله بن حميد السالمي. (توجيه الشيخ الزاملي للناس للنظر في حال البهائم على اعتبار الخبرة والتجربة الإنسانية في استشعار بعض الكائنات بالزلازل والتغيرات الكونية المدمرة).

لنا التأريخ يحق أن يشاد بأهله وبفهمهم وصلاحهم وحسن تعاملهم مع كتاب الله تعالى.

والإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد عندما حضرته الوفاة اشتهى أن يرى صديقه ورفيق دربه الحسن البصري (فلما دخل على أبي الشعثاء وهو مضطجع انكب الحسن عليه وهو يقول: قل لا إله إلا الله. فرفع جابر عينيه وهو يقول: أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار. فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال: أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار، ثم قال: يا أبا سعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيَ إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ الأنعام:١٥٨، فقال الحسن: هذا والله الفقيه العالم)[٤٠١]، فالإمام جابر نبه رفيق دربه الحسن على أن قول (لا إله إلا الله) عند الاحتضار لا ينفع الإنسان ما دام لم يتبعها بالعمل في حياته، وهذا ما يفهم من تلاوته لقول الله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيَ إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ الأنعام:١٥٨، فأثنى الحسن على هذا الفهم العميق الذي صدر من صديقه جابر بن زيد وهو على فراش الموت، وفي هذا الحوار بين جابر والحسن يتبين أن ما روي من بعد في مجموعات الأحاديث الأخرى في تفسير هذه الآية لم يكن حاضراً في ذلك الوقت مثل:

- ما رواه النسائي في السنن الكبرى (١١١٧٦) عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنها تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فيقال لها ارتفعي فاطلعي من

---

٤٠١ كتاب السير ج١ ص ٦٩، أحمد بن سعيد الشماخي.

مغربك فتطلع من مغربها). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل).

● وما رواه الترمذي (٣٠٧٢) وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث إذا خرجن لم ﴿يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ الدجال والدابة وطلوع الشمس من المغرب أو من مغربها).

فآيات الله المذكورة في الآية هي ما تكون التوبة عندها متعذرة، عندما ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ الأنعام:١٥٨ ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ النساء:١٨، ومن هذه الآيات الموت ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الزمر:٤٢. ومنها قيام الساعة، إذ لا ينفع مع قيامها عمل ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام:٣١.

والغريب أن هذه الروايات تحاشت تماماً الآيات الواردة في كتاب الله تعالى كالموت وقيام الساعة واختزلتها في: الدجال والدابة وطلوع الشمس من المغرب، وهي عبارة عن تنبؤات بغيبيات مستقبلية جاءت في سياق مرويات تفردت بها بعض المجموعات الحديثية.

أشراط للساعة أم ربط للإنسان بالساعة؟

هناك طائفة من الأحاديث والروايات لا نرى فيها تنبؤات بأحداث مستقبلية بقدر ما نلحظ فيها ربطاً للناس بالساعة من خلال ملاحظة التغيرات الاجتماعية التي يمكن أن تحصل بفعل حركة الحياة.

لننظر في قول الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىَ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىَ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَىَ وَأَنَّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ﴾ الحج:٥-٧، هذه الآيات تلفت نظر الناس إن كانوا في ريب من البعث إلى أصل خلقهم من طور إلى طور، من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم إلى طفل ثم إلى بلوغ الرشد ثم إلى الهرم ثم إلى الموت، وتقرن الآية فيما يشبه التشبيه حال أطوار خلق الإنسان بحال الأرض الهامدة التي تحيى بالمطر، وهذا الأمر شاهد على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وأن الساعة لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، أي أن (هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس من بدئنا خلقكم في بطون أمهاتكم ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده طفلاً وكهلاً وشيخاً هرماً،

وتنبيهنا لكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث)[٤٠٢] لتعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها .

نلاحظ من هذه الآيات الثلاث :

(١) الربط بين التغييرات الاجتماعية (=الأطوار التي يمر بها الإنسان و إحياء الأرض بالمطر بعد جدبها وجفافها) وبين قيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم .

(٢) وهذا الربط لأجل بعث روح التقوى في النفس لأن الساعة بداية لانهيار النظام الكوني وبعث الناس ومحاسبتهم على ما قدموه في دنياهم، فالحياة متقلبة لا تدوم على حال، فعلى الإنسان أن يكون دائم الصلة بالله تعالى حتى يصل إلى بر الأمان[٤٠٣] .

فعندما سأل سائل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنّ اللّهَ عِندَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأرْحَامِ﴾ لقمان:٣٤)[٤٠٤] .

وفي رواية أخرى : (فأخبرني عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول عن الساعة (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، وهذا الجواب منه صلى الله عليه وسلم هو تعبير عن مضمون الكتاب العزيز في رجع

---

٤٠٢ تفسير الطبري ج١٧ ص١٢٠ .

٤٠٣ هذا التوجيه لهذا الصنف من الروايات من آراء الشيخ خميس بن راشد العدوي .

٤٠٤ البخاري (٤٤٩٩)، مسلم (٨) .

علم الساعة إليه تبارك وتعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف:١٨٧، لكنه أراد أن يوظف الدلالات القرآنية في ربط التحولات والتغيرات الاجتماعية التي يمكن أن تحدث في أي مكان وزمان بأمر الساعة، حتى يركز في الأذهان أنه عند أي تحول وتبدل في الحياة فعلينا أن نتذكر أمر الساعة وأنها أقرب إلينا مما نتصور فنحسن العمل ولا نغتر بكل ما يحدث حولنا من تغيرات، ففي هذا الحديث يوظف النبي صلى الله عليه وسلم الدلالات القرآنية فيربط بين تطاول الرعاة الحفاة في البنيان وولادة الأمة ربتها وبين قيام الساعة، ونحن نعلم أن تطاول الرعاة في البنيان هو عبارة عن تحول اجتماعي حصل قبل عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فالقبائل الجرمانية التي أطاحت بالدول الرومانية الغربية (=روما) كانت قبائل من الرعاة وتحولت من بعد إلى مجتمعات مدنية متحضرة، وبعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم بعدة عقود من الزمن شيد العرب المسلمون – الذين خرجوا من جزيرة العرب وكان كثير منهم يمتهنون الرعي– المدن المتحضرة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ثم بغداد وغرناطة وقرطبة وغيرها من الحواضر المدنية، وفي أيامنا هذه تحولت الجزيرة العربية ذات الطابع الرعوي البدوي في غالبيتها إلى مدن تضاهي لندن وباريس ونيويورك في بنيانها وعمارتها.

ففي كل هذه الأوضاع من التغيرات والتحولات الاجتماعية وما تجره على الناس من حركة دائبة قد تكون سلبية أو إيجابية توجب علينا إدراك أن الساعة آتية فلا نغتر أبداً ولا ننسى أمر الآخرة وما أعده الله سبحانه من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين.

كذلك ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) فقيل: كيف إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[٤٠٥].

فتوسيد الأمر إلى غير أهله عبارة عن فساد إداري معبر عن سلوك اجتماعي قد يسري في أي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، ومن ينظر في صعود وهبوط الحضارات والإمبراطوريات عبر التاريخ يجد أن من أهم أسباب انهيارها وسقوطها هو توسيد الأمر إلى غير أهله، فهو أمر كان قبل عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، فالربط بينه وبين قرب الساعة هو توظيف للدلالات القرآنية في أن التحولات والتغيرات الاجتماعية يجب أن لا تجعل الإنسان يغفل عن أمر الساعة وأنها قريبة منه فعليه أن يستعد للرحيل إلى الآخرة بتحسين العمل.

وسبب توجيهنا لهذه الروايات هذه الوجهة جاء بناء على:

١. أننا لم نلحظ فيها ما يدل على كونها تنبؤات بأحداث مستقبلية في عالم الغيب، بقدر ما لاحظنا فيها ربطاً بين تحولات اجتماعية وبين أمر الساعة.

٢. استحضارنا للرؤية القرآنية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يوظفها في ترسيخ المفاهيم الإيمانية.

---

٤٠٥ البخاري (٥٩).

المعاصرون والأشراط المستقبلية للساعة

مع بدايات النهضة الإسلامية في العصر الحديث بدأت حركة المراجعة للكثير من الأفكار التي عدت مسلمات وفحصها من جديد، وبدأت حركة إحياء للنظر والتفكير في مقابل التعتيم والتقليد الذي ساد القرون المتأخرة وتسبب في إعطاب عجلة التسارع الزمني للأمة.

وموضوع كموضوع الأشراط المستقبلية للساعة كان في قائمة القضايا التي أعيد طرحها وفق رؤية قرآنية ووفق تتبع لسيرة وحياة النبي صلى الله عليه وسلم وروح التشريع الذي جاء به وملاحظة الأبعاد الزمنية التي واكبت تشكل هذه القضايا في ذاكرة الأمة؛ لا سيما وأن الكتاب العزيز خال تماماً من ذكرها، في حين أن المنظومة الروائية تحفل بمجلدات ضخمة منها[٤٠٦].

ومع بدايات طرح هذه القضايا بدأت تحدث الكثير من المعارضة ممن يعدونها من جملة العقائد أو ممن يرون التعويل على قضية السند في الحكم عليها، وفي العموم وجدت محاولات طرحها وفق قواعد الدين وأصوله الثابتة المستقرة (=كتاب ناطق وسنة متبعة) معارضة شديدة، وتم اتهام العلماء والباحثين الذين حاولوا معالجتها بالكفر تارة وبإنكار السنة تارة أخرى وبالعمالة للاستشراق وبالدعوة إلى الاعتزال وغيرها من التهم الجاهزة المعلبة[٤٠٧]، لكن كل ذلك لم يمنع من ظهور العديد من الدراسات الجادة حول هذه القضايا، وفي كل يوم تأخذ منعطفاً جديداً تظهر مدى ما

---

٤٠٦ معجم أحاديث الإمام المهدي عبارة عن خمسة مجلدات من الروايات السنية والشيعية في موضوع المهدي المنتظر والدجال وعودة المسيح وفتح القسطنطينية وغيرها من القضايا.

٤٠٧ راجع في ذلك كتاب "موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية"، الأمين الصادق الأمين.

كانت تعانيه الجماهير من مرارة الإحساس بالخداع والتضليل الذي فجعها في عقلها وتفكيرها وعقيدتها .

وعقلية المثقف المعاصر المرتبط بالدين بطبيعتها القائمة على التعامل مع سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق كانت تنفر باستمرار من أسطوريات الكثير من الأشراط المستقبلية للساعة، ولم تستطع هضمها وإساغتها لمخالفتها أرسخ السنن الكونية، لذا حاول الكثير منهم دراستها من جديد لعله يخرج بنتيجة ما .

ولو حاولنا أن نتتبع بدايات معالجة هذه القضايا فسنجد أن رواد النهضة الإسلامية المعاصرة كانوا أول من تصدى لها ، ثم تتابعت الدراسات في منحنى زمني تصاعدي يعكس مدى النضج الذي يتحقق مع اكتمال الطرح وتماسكه :

١ . فمحمد عبده (يقول إن الإسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن ، ولم يكن يثق إلا بأقل القليل مما روي في الصحاح من أحاديث الفتن)[٤٠٨] .

٢ . ومحمد رشيد رضا يرى أن في (روايات الفتن وأشراط الساعة من المشكلات والتعارض ما ينبغي لك أن تعرفه إجمالاً)[٤٠٩] .

٣ . وأكد على ضرورة البحث في هذا الموضوع سيد قطب عندما قال : (ولا تزال أبواب الفتن والملاحم والأحاديث التي جاءت في أشراط الساعة وما كان ويكون بين يدي

---

٤٠٨ تفسير المنار ج ٩ ص٥٠٦ ، محمد رشيد رضا .

٤٠٩ المرجع السابق ج٩ ص ٤٨٨ .

الساعة، تنتظر باحثاً عالي الهمة، راسخ القدم في العلوم الدينية، عالي الكعب في التأريخ)[٤١٠].

٤. وعبدالجواد ياسين الذي ناقش الكثير من روايات الفتن والأشراط المستقبلية للساعة؛ لاحظ أن هذاللون من الروايات (وهو يتحدث عن آخر الزمان –أي نهاية العالم– يصور لنا الأحداث وكأنها ستقع في القرون الهجرية الأولى، أو في مناخ حضاري لا يتجاوز مناخ تلك القرون بحال من الأحوال، فالحروب ستقع بين المسلمين والروم، إذ ستقوم الساعة كما يروي مسلم مرفوعاً والروم أكثر الناس، وسوف تدرك المعارك بينهم بدابق قرب حلب، ويخرج إليهم جيش من المدينة، وأن هذا الجيش هو الذي سيفتح القسطنطينية، وأنه سيقتسم الغنائم وقد علقت السيوف بالزيتون، حيث ينزل المسيح فيقتل الشيطان بيده ويريهم دمه على حربته)[٤١١]، ورأى أن مثل هذا السياق (يكذبه الواقع التاريخي الملموس)[٤١٢].

والمدرسة الفقهية الإباضية كما أسلفنا خلت مروياتها من الغالبية العظمى من هذا الصنف من الروايات، كما خلا التنظير الفقهي والعقدي عبر تاريخ التشريع الفقهي الإباضي من الاهتمام بهذه القضايا أو السماح لها بالولوج إلى دائرة الاعتقاد أو الهيمنة على دوائر التفكير، لكن بفعل حركة التثاقف بين المدرسة الإباضية والمدارس الإسلامية الأخرى حصل نوع من انتقال بعض هذه القضايا إلى قطاع بسيط من التفكير الإباضي، لكن لم يصل به الأمر إلى إدخالها في دائرة الاعتقاد.

---

٤١٠ الصراع بين الإيمان والمادية ص ١٠٧–١٠٨، أبو الحسن الندوي، نقلاً عن "في ظلال القرآن" ج١٦ ص ١٣، سيد قطب، الطبعة الخامسة.

٤١١ السلطة في الإسلام ص ٣٠٥، عبدالجواد ياسين.

٤١٢ المرجع السابق ص ٣٠٥.

ونجد هذا الأمر في بعض التآليف الإباضية المتأخرة كالدليل والبرهان لأبي يعقوب الوارجلاني[٤١٣] وقناطر الخيرات للجيطالي[٤١٤] ووفاء الضمانة للقطب[٤١٥]، لكن في أواخر القرن الهجري الماضي وبدايات هذا القرن شهدت الساحة الإباضية عودة إلى التحفظ على هذه القضايا جرياً على ما كان عليه الخط الإباضي العام من عدم الاعتناء بها، وممن تحفظوا على بعض هذه القضايا من المتأخرين:

١ . الشيخ بكلي عبدالرحمن عمر الذي قال في الفتاوى: (أما المهدي فما قيل في الدجال فقد حيك مثله فيه من روايات متضاربة أثارت إشكالات يصعب الجمع بينها، اتخذ المهدي ميداناً ركض فيه كثير من ذوي الغايات والمطامع في الملك والسلطان،

---

٤١٣ قال العلامة الوارجلاني في "الدليل والبرهان" ج٢ ص ٣٥: (وقد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المهدي أنه يكون في آخر الزمان، كادت تكون ضرورية، وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد إذ ملئت ظلماً وجوراً)، وقال في نفس الصفحة: (وقد ساغت لعمر بن الخطاب أمور كثيرة، أفلا يسوغ للمهدي مثلها أو أعظم منها)، وقد ذكر عمرو النامي في "دراسات عن الإباضية" ص ١٣١: (أن أول عالم إباضي في شمالي أفريقيا ذكر بعض مجموعات الأحاديث السنية في أعماله هو أبو يعقوب الوارجلاني من القرن السادس للهجرة).
والذي أراه أن القول بالمهدي المنتظر سرى إلى تفكير العلامة الوارجلاني [ت: ٥٧٠ هـ] من خلال الدعاية التي بثتها دولة الموحدين [٥١٨ – ٦٦٨ هـ] التي عاش الوارجلاني في كنفها، فابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية جعل من قضية المهدي المنتظر عقيدة ألزم بها أتباعه وصارت العقيدة الرسمية للدولة. انظر "تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت"، عبدالمجيد النجار.

٤١٤ ذكر الشيخ الجيطالي في قناطر الخيرات ج٣ ص ٥٤٦–٥٤٧ عدداً من الأشراط المستقبلية للساعة مثل: طلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام والدجال وغيرها، وقناطر الخيرات هو اختصار وتلخيص لكتاب "إحياء علوم الدين" للمتكلم والمتصوف الأشعري أبي حامد الغزالي، وقد أورد الشيخ الجيطالي تلك الروايات كما في إحياء علوم الدين دون أن يعقب عليها، وصنيعه في هذا شبيه بصنيع الشيخ اطفيش في وفاء الضمانة.

٤١٥ ذكر الشيخ القطب في "وفاء الضمانة بأداء الأمانة" ج٥–ج٦، عدداً لا يستهان به من روايات المهدي المنتظر والدجال وعودة المسيح عليه السلام دون أن يعلق عليها بشيء كما هو دأبه في معظم أبواب هذا الكتاب.

وكلما مضى أحدهم ولم تحقق الآمال التي نيطت به حاولوا لعب ورقته مع آخر، كما كان أصحاب الرايات السوداء والرايات الصفراءودعوى السفياني قبله. ويبدو لي والله أعلم أنها من دسائس المنظمات السرية التي أسست لهدم الإسلام وإفساده بإدخال الخرافات على تعاليمه ومبادئه، ومن وراء ذلك تثبيط أبنائه عن العمل والأخذ بأسباب القوة اتكالاً على المهدي وانتظار خروجه، فيقعدهم ذلك عن الدفاع عنه وصيانة حماه)[٤١٦].

٢ . الشيخ علي يحيى معمر في الحلقة الأولى من موسوعة "الإباضية في موكب التاريخ"، حيث عد قضية المهدي المنتظر من الخرافات التي تسربت إلى المسلمين[٤١٧].

٣ . الشيخ بيوض إبراهيم، فحين سئل عن عودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان قال: (قد روى أصحاب الحديث في ذلك أحاديث لا نعلم مبلغها من الصحة، وهي في مجموعها لا تفيد علماً يقينياً، والاعتقاد في مثل هذه الأمور الغيبية لا يمكن أن يبنى إلا على أدلة قطعية وأنى لمثل هذه الأدلة في مسألة نزول عيسى، وعليه فجوابنا عن سؤالك هو "الله أعلم"، والسلام عليك أولاً وآخراً، والاشتغال بغير هذا من المهمات الدينية والدنيوية أولى وأحرى؛ لأن البحث فيما سألت عنه لا يأتي بنتيجة مطلقاً مهما طال وامتد، فلا يعدو أن يكون تضييعاً للعمر فيما لا فائدة فيه)[٤١٨].

٤ . الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في محاضرة بعنوان أشراط الساعة، حيث رأى الشيخ أنه (مما يؤسف له مع هذه النصوص القاطعة التي تدل على أن الساعة مما استأثر

---

٤١٦ فتاوى البكري ج٢ ص ٢٤، بكلي عبدالرحمن عمر.

٤١٧ الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الأولى ص ٥)، علي يحيى معمر.

٤١٨ فتاوى الإمام الشيخ بيوض ص ٦٧–٦٨.

الله سبحانه وتعالى بعلمه بجانب النصوص الأخرى الكثيرة كقوله تعالى ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ محمد :١٨ وقوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ لقمان :٣٤ مع هذه النصوص كلها وجد في المسلمين من خاض في تحديد وقت الساعة وخاض في تحديد عمر الدنيا .... وهذه أمور ما كان ينبغي لمن تلا كتاب الله تعالى وآمن به وعرف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخوض فيها)[٤١٩] ، وأن (المسلمين صدقوا قول مسلمة أهل الكتاب، وهؤلاء كانوا مصدر فتنة عظيمة في هذه الأمة، صدقهم المسلمون بما ظهر لهم من كونهم مؤمنين وكونهم مسلمين حقاً وكونهم عابدين ناسكين فغرهم ذلك، وتناقلوا ما تناقلوه مما ورثوه من أهوائهم وضلالاتهم التي كانوا يتناقلونها فيما قبل، فأثر ذلك كله في تفسير القرآن وفي الروايات التي ألصقت برسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبت إليه، مع أنه عليه أفضل الصلاة والسلام براء منها)[٤٢٠] .

وقال عن أشراط الساعة : (من هذه الأشراط ما هو واضح بين بنصوص الكتاب وبنصوص السنة النبوية، ومنها ما يحتاج إلى نظر من حيث ورود تلك الروايات التي دلت عليه، وبعض الأشراط في أمرها شيء من الإشكال الذي يحتاج إلى التدقيق والنظر)[٤٢١] .

أما عن مسألة المهدي المنتظر فقال الشيخ الخليلي (علينا نحن أن نعمل وأن يكون كل واحد منا هادياً مهدياً بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وأن لا ننتظر من يظهر بعد حين،

---

٤١٩ من أشراط الساعة، أحمد بن حمد الخليلي (محاضرة).

٤٢٠ المرجع السابق.

٤٢١ المرجع السابق.

على أن الروايات في المهدي فيها الكثير من الاضطراب كما شرح ذلك العلامة رشيد رضا ، وقدوُضِعَت في المهدي روايات متعددة وادعى الكثير من الناس أنه هو المهدي المنتظر ، ومن الناس من قال إن المهدي من ذرية الحسين بن علي ، ومنهم من قال هو من ذرية الحسن بن علي ، ومنهم من قال هو من ذرية العباس بن عبدالمطلب ، وهذا مما يدل على أن للاتجاه السياسي دخلاً في حبك هذه الروايات)[٤٢٢] .

٥ . الشيخ أحمد بن سعودالسيابي ؛ الذي قال في محاضرة له : (والقول بالمهدي المنتظر ونزول المسيح عيسى عليه السلام قدح في خاتمية النبوة وعصمة هذه الأمة في عدم اجتماعها على ضلال ، فهو قدح فيها أنها كانت على استقامة ، وهي رد لكلام الله تعالى بقوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة:٣ . وقد يقول قائل من الإخوة الإباضية إنها وجدت في بعض تآليف علماء المذهب الإباضي ، نقول إن هذا صحيح ، لكنه عند التأمل نجده تأثراً بما في كتب الآخرين ، فعندما نقول إن المسيح يعود في آخر الزمان فهذا قدح في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه خاتم الأنبياء والمرسلين ، فكيف يعود المسيح وقد قال الله تعالى إنه قد توفي ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المائدة:١١٧ ، وكيف يرجع ويقوم بنشر الإسلام والدين قد كمل والنعمة قد تمت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

---

٤٢٢ المرجع السابق .

لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة:٣ ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها")[٤٢٣] .

٦ . الشيخ سعيد بن خلف الخروصي: حيث أجاب في نظم له حول بعض هذه القضايا:

وإن تأب إلا أن أجيب فهاك ما يخص رسول الله عيسى بن مريما
روى مُسلِم أن النزول محتما حديث من الآحاد لم يك ملزما
لحكم اعتقاد كان من ذاك أضعفا
ولم تأت تخليداً لخضر رواية ولا أثبتته في التلاوة آية
لكل بني الإنسان في العمر غاية يدل لذا في محكم الذكر آية
وما إن جعلنا الخلد من قبلك اعرفا
وما جاء في المهدي ضعيف جميعُه وما كل مروي فنحن سميعُه
وأما الذي قد صح حتماً نطيعُه كما لو رواه الثبت وهو ربيعُه
فهذا الذي يُروى صحيحاً ولا خفا[٤٢٤]

٧ . الشيخ سعيد بن مبروك القنوبي حين قال في محاضرة له: (أحاديث المهدي مكذوبة موضوعة، لم تثبت عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم)[٤٢٥] .

٨ . الشيخ ناصر بن سليمان السابعي: حيث قال في مقال كتبه في سبلة العرب على الانترنت: (وأما سرداب أبي عبيدة فحسب علمي أنه قد أقام خمس دول: دولة الجلندى بن مسعود ، ودولة طالب الحق، ودولة أبي الخطاب المعافري، والدولة

---

٤٢٣ الدعوة والتعليم عند الإباضية، أحمد بن سعود السيابي (محاضرة).

٤٢٤ من جواب مخطوط (بتصرف)، سعيد بن خلف الخروصي.

٤٢٥ في ظلال السنة، سعيد بن مبروك القنوبي (محاضرة).

الرستمية ثم الإمامة الإباضية الثانية إلى زمان الصلت عدا الدعاة والعلماء والمصلحين الذين تخرجوا منه، وعموماً فقد ملأ الدنيا عدلاً بعد أن امتلأت جوراً.

وأما سرداب محمد بن الحسن العسكري فلا أعرف ماذا أنتج للإسلام؟! ، فقد امتلأت الدنيا جوراً في أماكن كثيرة وأزمان متوالية وقرون متطاولة، فلم يملأها سردابه عدلاً إلى الآن، ولا أدري إلى متى؟!)[٤٢٦].

هيرمجيدون وخرافات أخرى

اطلعت في السنوات الأخيرة على مؤلَفين هما (هرمجدون ... آخر بيان يا أمة الإسلام) و(عمر أمة الإسلام)، والكتابان من تأليف أمين محمد جمال الدين وهو حاصل على دراسات عليا في الدعوة والثقافة الإسلامية من الأزهر، وهذه الكتب عبارة عن توليفة من روايات وردت في بعض كتب الحديث عن الفتن والملاحم مع محاولة المؤلف لتفسيرها بما يتفق مع سير الأحداث المعاصرة والادعاء بأنها المقصودة في تلك الروايات. من الملاحظات على الكتابين:

- من جهة المصادر

١ . الكتابان يستقيان معلوماتهما من مصنفات وكتب خفيفة الوزن من الناحية العلمية، ومن أهمها كتاب (الفتن) لنعيم بن حماد شيخ البخاري، وقد اعتمد المؤلف عليه كثيراً في إيراد روايات التنبؤ بالفتن والملاحم، ونعيم بن حماد وإن كان قد وثقه بعضهم إلا أن صالح بن محمد الأسدي قال (كان نعيم يحدث من حفظه وعنده مناكير

---

٤٢٦ (بتصرف) (http://www.omania.net/avb/showthread.php?t=١٢٨٨٣٠)

كثيرة لا يتابع عليها، قال وسمعت يحيى بن معين سئل عنه فقال: ليس في الحديث بشيء ولكنه صاحب سنة.

وقال الآجري عن أبي داود: عند نعيم نحو عشرين حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس لها أصل.

وقال النسائي: نعيم ضعيف، وقال في موضع آخر: ليس بثقة.

وقال أبو علي النيسابوري سمعت النسائي يذكر فضل نعيم بن حماد وتقدمه في العلم والمعرفة والسنن، ثم قيل له في قبول حديثه فقال: قد كثر تفرده عن الأئمة المعروفين بأحاديث كثيرة فصار في حد من لا يحتج به، وذكره ابن حبان في الثقات وقال ربما أخطأ ووهم)[٤٢٧].

بل إن بعضهم اتهمه صراحة بالوضع فقد(ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ربما أخطأ ووهم وقال له ابن عدي قال لنا ابن حماد يعني الدولابي: نعيم يروي عن ابن المبارك، قال النسائي ضعيف، وقال غيره كان يضع الحديث في تقوية السنة وحكايات في ثلب أبي حنيفة كلها كذب)[٤٢٨].

وأما رواياته الغريبة في الفتن والملاحم ؛ فقد أورد ابن حجر أن مسلمة بن قاسم قال عن نعيم بأنه (كان صدوقاً، وهو كثير الخطأ، وله أحاديث منكرة في الملاحم انفرد بها)[٤٢٩]، ورغم انفراد نعيم بن حماد بأحاديث في الفتن والملاحم فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً في قضية الفتن والملاحم، فإن انفرادات البخاري تلميذ نعيم في فتن وملاحم

---

٤٢٧ تهذيب التهذيب ج١٠ ص ٤١٠، أحمد بن علي بن حجر.

٤٢٨ المرجع السابق ج١٠ ص ٤١٠ - ٤١١.

٤٢٩ المرجع السابق ج١٠ ص ٤١٣.

آخر الزمان موجودة أيضاً، وكذلك أيضاً انفرادات مسلم تلميذ البخاري، المشكلة الأكبر تكمن في نوعية هذه الروايات، والذي أراه أن الأهمية الكامنة في أمثال كتاب الفتن لنعيم بن حماد هو إيراده للروايات الأصلية في الفتن والملاحم من طرق مسلمة أهل الكتاب، بينما تتحاشى الكثير من مجموعات الأحاديث الأخرى ذلك؛ وتنسبها مباشرة إلى بعض الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٢ . من الكتب الغريبة التي اعتمد عليها مخطوطات لم يسمع بها أحد تذكر أسماء بأعيانها موجودة في هذا العصر، من ذلك ما ذكره في ص ٢٠ أن هناك مخطوطة في دار (الكتابخانة) بتركيا يقول إنها لشخص اسمه كلدة بن زيد المدني، والمخطوطة بعنوان (أسمى المسالك لأيام المهدي الملك لكل الدنيا بأمر الله المالك)، وفي هذا المخطوط ما رواه أبو هريرة وابن عباس وعلي بن أبي طالب ـ كما يزعم المؤلف ـ (حرب آخر الزمن حرب كونية، المرة الثالثة بعد اثنين كبريين يموت فيهما خلائق كثيرة، الأولى أشعلها رجل كنيته السيد الكبير، وتنادى الدنيا باسم هتللر)!! ، وأن أبا هريرة لما أحس الموت خاف أن يكتم علماً قال لمن حوله: (في نبأ علمته عما هو كائن في حروب آخر الزمن، فقالوا: أخبرنا ولا بأس جزاك الله خيراً فقال:

في عقود الهجرة بعد الألف وثلاثمائة واعقدوا عقوداً يرى ملك الروم أن حرب الدنيا كلها يجب أن تكون، فأراد الله له حرباً، ولم يذهب طويل زمن، عقد وعقد فسلط رجل من بلاد اسمها جرمن له اسم الهر).

هتلر الملقب بالهر من بلاد الجرمن عبارة عن رواية من طريق أبي هريرة....لا تعليق.

- من جهة المنهج العلمي المتبع في الكتابين:

– المؤلف يسرد على القراء الروايات من كتب الحديث دون تبيين عللها في السند والمتن، ثم يأخذ في إسقاطها على الأحداث المعاصرة، وهذا منهج لم يعتبره علماء الأمة الإسلامية.

فمثلاً أحاديث المهدي المنتظر التي عول عليها المؤلف كثيراً:

١ . رأى الدكتور عبدالعليم البستوي أن منها أحاديث صحيحة من حيث السند في كتابه (المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة) ، بينما رد كثيراً منها بسبب ضعف السند في كتابه الآخر (أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة).

٢ . والدكتور عداب الحمش في كتابه (المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية) رأى عدم صلاحية الاحتجاج بأي من الروايات الواردة في المهدي المنتظر، وأنها ضعيفة جميعاً من ناحية الإسناد، وفيها إشكالات كثيرة من ناحية المتن.

٣ . والشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار لاحظ مشكلاتها الإسنادية ومخالفتها للوقائع والحوادث التاريخية وشبهة الوضع السياسي فرفضها، وكذا فعل الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود[٤٣٠] .

٤ . والمستشار عبدالجواد ياسين في كتابه (السلطة في الإسلام) لاحظ أن فيها تعبيراً عن حوادث آخر الزمان بأدوات ووسائط الزمان الغابر من السيف والرمح والقوس والخيول والأسوار وغيرها، وأن إرهاصات وصراعات القرون الماضية لا تزال تعيش حية باقية في أحداث آخر الزمان فهي صراع بين السفياني والمهدي الهاشمي، وأن قبيلة كلب (=أصهار معاوية بن أبي سفيان وأخوال ابنه يزيد) هم أعداء المهدي

---

٤٣٠ انظر كتاب "لا مهدي ينتظر بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم خير البشر"، عبدالله بن زيد آل محمود .

الهاشمي!، فهي ليس تنبؤات بالفتن بقدر ما هي ردود لاحقة لها، فرفضها من أجل ذلك.

كل هؤلاء الباحثين تعاملوا مع المسألة بموضوعية علمية في كتاباتهم، لكن محمد أمين جمال الدين كان يجتر كل ما يلقى إليه دون تمحيص، وهو ما يجعل كتبه هذه خفيفة الوزن من الناحية العلمية.

وهذا الجمع غير المنضبط بالضوابط العلمية جعل المؤلف يحشو كتابه بالإسرائيليات التي رويت إما عن طريق من عرفوا بروايتها ككعب الأحبار، أو من تلقى عنهم ذلك كأبي هريرة وعبدالله بن عمرو، وكثير من هذه الإسرائيليات تنسف ما في كتاب الله نسفاً، من ذلك تحديد عمر الدنيا ووقت قيام الساعة.

وليس ذلك بعجيب فمؤلفنا هذا لا يتحرج من الاستدلال على صدق ما يقول بنقول من أسفار أهل الكتاب زاعماً أنها من بقايا النبوة الأولى!.

- من جهة قراءة الوقائع المعاصرة وربطها بالرواية:

وهذه أقرب إلى الفكاهات منها إلى البحث العلمي، ومن أمثلة ذلك:

١ . أورد المؤلف في كتابه (هرمجدون... آخر بيان يا أمة الإسلام) ص ٣٥ ـ ٣٦ رواية عن نعيم بن حماد في الفتن عن كعب الأحبار قوله: (علامة خروج المهدي ألوية تقبل من المغرب عليها رجل أعرج من كندة) يرى المؤلف أن المقصود بالرجل الأعرج هو الجنرال (ريشارد مايرز) قائد الأركان المشتركة للجيش الأمريكي، وعلى هذا فريشارد مايرز كندي عربي هاجر إلى الولايات المتحدة!، ورغم أن الرواية عن كعب الأحبار لم ينس المؤلف أن يختم تأويله الظريف هذا بقوله في ص ٣٦: (الله أكبر صدقت يا سيدي يا رسول الله)!.

٢ . قال في ص ٩٩ : (الحدث الخامس عشر : فتح فارس "إيران" فالشيعة يبغضون أهل السنة بل ويكفرونهم، فهم أولى بالفتح ، يغزوهم المهدي فيفتحها) .

فمبرر غزو إيران في نظره كون غالبية سكانها هم من المسلمين الشيعة والمهدي سني المذهب، والعجيب أن الشيعة يعتقدون العكس، وهو أن المهدي من آل البيت يناصر الشيعة ويقضي على أعدائهم، فلكل قوم مهديهم الخاص بهم! ناهيك بما في هذا الكلام من إذكاء روح المذهبية البغيضة والطائفية المقيتة والتي يجب على كل مسلم أن ينأى بنفسه عنها .

٣ . أورد المؤلف في ص ٣١ من نفس الكتاب رواية عن نعيم بن حماد في الفتن عن محمد بن الحنفية قال : (تخرج راية سوداء لبني العباس، ثم تخرج من خراسان أخرى سوداء قلانسهم سود وثيابهم بيض.... يكون بين خروجه وبين أن يخرج المهدي اثنان وسبعون شهراً) .

ويرى المؤلف أن أصحاب الرايات السود هم حركة طالبان الأفغانية، وهكذا بكل بساطة يكون الملا عمر وسيد أحمد متوكل وعبدالسلام ضعيف من بني العباس لأن الرواية تقول ذلك! .

ثم يقول المؤلف من بعد في ص ٣١ (وقد ظهر الطالبان حوالي سنة ١٩٩٦م، وتخبرنا الآثار التي جاءت أنهم بين بدء ظهورهم وبين ظهور المهدي اثنان وسبعون شهراً) .

ظهر الطالبان عام ١٩٩٦م ومرت منذ ذلك الوقت سبع سنوات أي أكثر من اثنين وسبعين شهراً ، ولم يظهر المهدي بعد!! .

ولما أعيت المؤلف الحيلة في إثبات دعاواه بربط روايات تالفة بالواقع المعاصر لجأ لعالم الأحلام والمنامات فقال في ص ٥٦ : (من القرائن التي أعتبرها وأعتز بها ما أخبرني به

رجل مسلم فاضل من البحيرة أنه قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤيا يبتسم له ويعطيه كتاب "عمر أمة الإسلام وقرب ظهور المهدي"، وقد حلف الرجل بالله أن هذه الرؤيا كانت قبل صدور الكتاب بتسعين يوماً). ثم قال بعد ذلك: (الشاهد من الرؤيا أن الكتاب وما به من أدلة على قرب لنهاية حق بإذن الله ودل عليه رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق، وإن آخر الزمان تكثر رؤيا المؤمن يراه أو ترى له!).

الدراسات الإسنادية والأشراط المستقبلية للساعة

مع بداية الاهتمام بدراسة روايات الأشراط المستقبلية للساعة أو روايات الفتن والملاحم في هذا العصر بفعل عوامل عديدة لعل أبرزها تقدم مناهج البحث العلمي ونشأة الجامعات والكليات والمعاهد المتخصصة في الدراسات والبحوث؛ ظهرت دراسات حاولت أن تدرس روايات وأحاديث الفتن والملاحم من خلال الإسناد.

لقد كانت المحاولات القديمة في هذا الموضوع تقتصر على الثقة بالروايات الواردة في الموضوع وما قاله العلماء السابقون في تصحيح أو تحسين أسانيدها، ومع تزايد التشكيك بمتون هذه الروايات من قبل بعض الإسلاميين والعلمانيين على السواء ظهرت الحاجة إلى دراسات لسد النقص في هذا الجانب من وجهة نظر المشتغلين بعلوم الإسناد الروائي.

ولعل أبرز من تصدى لذلك في هذا العصر محمد رشيد رضا في تفسير المنار خلال تفسيره لقول الله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى

ظُهُورِهِمۡ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام:٣١ وبـرر ذلـك بـأن في (روايـات الفـتن وأشـراط الساعة من المشكلات والتعارض ما ينبغي لك أن تعرفه إجمالاً)[٤٣١]، وكذلك فعل الشيخ محمد أنور الكشميري الذي جمع الروايات الواردة في عودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان ورأى أنها متواترة[٤٣٢]، وهناك أيضاً دراستان بعنوان (المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة) و (أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة) لعبدالعليم البستوي، إذ فرق في هذه الدراسات بين ما صح من الآثار في الموضوع من جهة الإسناد وما لم يصح من جهة الإسناد أيضاً من وجهة نظره، أما عداب الحمش فقد رأى أنها جميعاً ضعيفة من جهة الإسناد في كتابه (المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية)، وهناك الكثير من هذا النوع من الدراسات ذكرها عداب الحمش في مقدمة كتابه[٤٣٣].

ومع وافر احترامنا لهذه الجهود التي بذلت في هذه الدراسات إلا أننا نرى فيها عدة عيوب أهمها:

أن المنهج الذي أصلته هذه الدراسات لمحاكمة المتن الحديثي أغفل بالكلية البعد الزمني الكامن في عملية تدوين النص الحديثي، بل إنه أغفل المتن بالكلية واشتغل بالإسناد، والمدارس الأثرية هي التي تسببت في بداية الأمر بصنع المشكلة بإغراقها المجتمع المسلم بهذا الطوفان من الرواية؛ جاءت لتقدم الحل جاهزاً معلباً عاكساً

---

٤٣١ المرجع السابق ج٩ ص ٤٨٨.

٤٣٢ انظر كتاب "التصريح بما تواتر في نزول المسيح"، محمد أنور الكشميري.

٤٣٣ المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية ص ١٧–٢٠٠، عداب محمود الحمش.

النظرة الجزئية الضيقة التي تميزت بها في نظرتها للكون والإنسان والحياة، وتركزت مباحث أمثال هذه الدراسات في ثلاثة أبعاد :

- الإسناد : وهذا البعد كان الشغل الشاغل والهم الأكبر لها ، فمعظم مباحث مصطلح الحديث –كما تصورها منظروه الأول – كانت إسنادية، حتى مباحث العلة والشذوذ .
- الإنسان : وهذا البعد يركز على الرواة وأحوالهم ومراتب جرحهم وتعديلهم .
- المكان : وهذا البعد يركز على أحوال الرواة من حيث ارتباطهم بالبلدان التي ولدوا فيها والتي توفوا فيها والتي رووا الحديث فيها ...إلخ .

وهذا المنهج أهمل بالكلية البعد الزمني الكامن بين لحظتي النطق والتدوين، وخلال هذه الفترة اشتعلت نيران الفتن واخلولق الدين بعد جدته، وكثر الكذب والدس على الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إن عوامل الوهم والخطأ والنسيان والرواية بالمعنى قد فعلت فعلتها بالنص الحديثي المدون، لذا يمكننا القول إن البعد الزمني الكامن يشتمل على عدة محاور أهمها :

- **المحور الأول**: الصراعات السياسية بين مختلف الأجنحة المتصارعة على الحكم من علويين وأمويين وزبيريين وعباسيين، قد تعدى مجال صراعها الميدان العسكري إلى الحرب الإعلامية بالنصوص التي ينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأبواب الفضائل والمناقب على سبيل المثال تحفل بهذا اللون من المرويات، وكثير منها عبارة عن مرويات سياسية مخالفة تمام المخالفة للدلالات القرآنية والرسالة التي جاء النبي صلى الله عليه وسلم لترسيخها في الناس، ولا نستبعد أن تكون مثل هذه الروايات قد

قيلت في مناسبات معينة، أو هي ثناء بحسب الظاهر، ولكن بفعل العامل الزمني والزيادة والحذف والتوظيف للرواية أصبحت تفرض نفسها على الأجيال.

- **المحور الثاني**: الصراعات المذهبية التي تولدت عن الصراعات السياسية، والتي كان لها دور في صياغة النص النهائي للحديث، فقضايا الإيمان والكفر والنفاق وما تعلق بها من قضايا الوعد والوعيد صارت منذ الأيام الأولى للافتراق والصراع مرتعاً خصباً للمنظرين السياسيين، الذين حكموا نظرتهم إلى هذه القضايا بناء على مواقف الرموز السياسية للحزب، فالحزب العلوي كان ينظر إلى هذه القضايا بناء على مواقف علي بن أبي طالب في الحرب والسلم، وبنو أمية مشغولون بتبرئة عثمان من نسبة الجور إليه، وأنه قتل ظلماً وأن الثائرين عليه لا يعدون أن يكونوا مجموعة من الرعاع وشذاذ الآفاق، فكانت الصياغات العقدية متأثرة إلى حد كبير بهذه العقد التأريخية، ومن الطبيعي ومع انفتاح باب الرواية على مصراعيه أن تكون كثير المرويات متأثرة بهذا السياق التأريخي.

(ولو تصفحنا الأحاديث التي رواها البخاري في مناقب الصحابة نراها تقوم على تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان على سائر الصحابة، وتجعل عائشة من النساء معهم في المرتبة نفسها، أما علي بن أبي طالب فقد جعله البخاري في الأحاديث التي رواها دونهم مرتبة، فقد روى أحاديث تقوم على تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان عليه، بينما لم يفعل ذلك مسلم في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة، الذين رووا أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قالها في علي تجعله في أعلى مراتب الصحابة)[٤٣٤] ، ويرى بعض الباحثين أن البخاري قد أكثر من (رواية الأحاديث عن النبي صلى الله عليه

---

٤٣٤ تدوين السنة ص ٧٩، إبراهيم فوزي.

وسلم في مدح الحسن بن علي دون أخيه الحسين، ولا يخفى ما في هذا المديح من تأييد لمعاوية في إضفاء الشرعية على خلافته، بعد أن تنازل له الحسن عنها وبايعه، أما الحسين فقد وقف موقفاً معادياً لمعاوية وانتقد أخاه الحسن لهذا التنازل، ورفض مبايعة يزيد ، وأعلن الثورة ضده، لما عرف عن يزيد من فسق وفجور ، ولذلك لم يحظ الحسين بأي حديث في صحيح البخاري بالثناء عليه)[٤٣٥]، (وخلافاً للبخاري في اقتصار أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بمدح الحسن دون الحسين، فإن مسلماً في صحيحه وأحمد في مسنده وأصحاب السنن الأربعة رووا أحاديث للنبي صلى الله عليه وسلم يمدح فيها الحسن والحسين دون تمييز بينهما)[٤٣٦].

وبسبب هذه الصراعات السياسية تفرق الناس شيعاً وأحزاباً ، فكانت البلدان والأمصار تصنف على أساس حب هذا الشخص أو ذاك، فقيس بن أبي حازم الكوفي مثلاً قالوا عنه إنه: (كان يحمل على علي، والمشهور أنه كان يقدم عثمان ولذلك تجنب كثير من قدماء الكوفيين الرواية عنه!)[٤٣٧] وابن معين كان يقول عن علي بن المديني أنه كان (إذا قدم علينا أظهر السنة، وإذا ذهب إلى البصرة أظهر التشيع)[٤٣٨] وعلل الذهبي ذلك بقوله: (كان إظهاره لمناقب الإمام علي بالبصرة لمكان أنهم عثمانية فيهم انحراف على علي)[٤٣٩].

---

٤٣٥ المرجع السابق ص ٨٩.

٤٣٦ المرجع السابق ص ٩١.

٤٣٧ سير أعلام النبلاء ج٤ ص ١٩٩، محمد بن أحمد الذهبي.

٤٣٨ المرجع السابق ج١١ ص ٤٧.

٤٣٩ المرجع السابق ج١١ ص ٤٧.

وتحولت القضية إلى كتب العقائد التي نصت على أن (أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي)[٤٤٠] ليصنف التاريخ على أنه عقيدة يتخاصم الناس عليها![٤٤١].

• **المحور الثالث**: دوائر الفكر الإسرائيلي: وهذه الدوائر بدأت بالتسلل مبكراً إلى دوائر الفكر الإسلامي، وكانت بوابتها الأولى مسلمة أهل الكتاب، الذين اشتغلوا ببث شتى مرويات كتبهم القديمة بين المسلمين، وبالفعل راجت تلك المرويات بين أظهر المسلمين، وبفعل تأثير بعد الزمن انتقلت تلك المرويات إلى المسلمين على أنها روايات تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال بسر بن سعيد (=أحد التابعين): (اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة، فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب ثم يقوم، فأسمع بعض من يجعل

---

٤٤٠ عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص ٢٨٩، إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني.

٤٤١ مسألة التفاضل بين الصحابة ليست من مسائل الدين على الإطلاق ولا يتعلق بها عمل ولا اعتقاد، وهي وليدة صراعات السياسة، وما ورد فيها من مرويات لا يمكن التحاكم إليها لكثرة التناقضات فيها ولوجود الشبهة الكبيرة في ضلوع السياسة في توظيفها، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يبعث لإعلاء شأن فلان وذم آخر، بل هو هداية ورحمة للعالمين ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، ومن يقرأ كتاب الله تعالى يجد أن الناس إنما يتفاضلون بمقدار التقوى المعبرة عن القول والعمل قال تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، والتقوى ومقدارها علمها عند الله تعالى، والصحابة رضي الله تعالى عنهم بشر كسائر البشر يتفاوتون في الطاقات والقدرات والملكات بحسب الاختلاف والتنوع البشري، فمنهم الفقيه والقائد العسكري والخبير الإداري والقاضي المتمرس والتاجر والفلاح...الخ، فالتفاوت والتفاضل نسبي وليس مطلقاً، فالفقيه منهم قد لا يكون هو الأفضل في ميدان المعركة والتخطيط الحربي، والعسكري منهم قد لا يكون هو الأصلح في ميدان الإدارة المدنية، والتاجر منهم لا خبرة له بالقضاء والفصل في الخصومات، فمن يفاضل بين الصحابة على هذا الأساس كمن يحاول أن يعقد مقارنة بين السيارة والطائرة، أو بين القطار والباخرة، ومن المعلوم أن لكل مجاله الذي يبدع فيه ويكون الأفضل فيه ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾، أما أيهم هو الأتقى والأصلح فهذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

حديث رسول الله عن كعب ويجعل حديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٤٤٢].

ويمكننا ملاحظة هذا المحور فيما يسمونه بأحاديث الصفات، حيث توجد أعداد لا يستهان بها من هذه المرويات في كتب الحديث المختلفة، وهي في حقيقتها نقل حرفي عن كتب اليهود والنصارى[٤٤٣]، وكذلك الحال في مرويات الإرجاء بشتى أنواعها من خروج لأهل الكبائر من النار والشفاعة لهم يوم القيامة دون التخلص من الذنوب بالتوبة كلها روايات إسرائيلية لمخالفتها النصوص القطعية في الكتاب العزيز، بل إن القرآن الكريم نص على أنها عقيدة يهودية باطلة وأنها هي التي جرأتهم على الاستهتار بحرمات الله والتعدي على حدوده، قال الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ البقرة:٧٩-٨٢.

---

٤٤٢ سير أعلام النبلاء ج٢ ص ٦٠٦، محمد بن أحمد الذهبي.

٤٤٣ انظر"دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه"، عبدالرحمن بن الجوزي. و"العلو"، محمد بن أحمد الذهبي، وكلاهما بتحقيق حسن بن علي السقاف.

ويقـول تعـالى : ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الأعراف:١٦٩ .

ورغم هذا كله، ظهرت ماكينات تصنيع وتعليب الروايات عند المدارس الأثرية لتطمر هـذه الـدلالات القرآنيـة القطعيـة بمرويـات أهـل الكتـاب بعـد إجـراء بعـض عمليـات التجميل عليها لتتناسب مع الحقل المعرفي الجديـد ، فقـد (نفـروا عـن الحـق واستأنسـوا بالروايـات الكاذبـة، وقـالوا : "إن قومـا يخرجـون مـن النـار"، بعـد توكيـد الله في غـير موضع : أن من دخلها خالداً، وما هم منها بخارجين)[٤٤٤] .

- **المحـور الرابـع**: الـوهم والخطـأ والنسـيان وسـائر العـوارض البشـرية والروايـة بـالمعنى وطول سلسلة الـرواة والـتي تصـل في بعـض الأحيـان إلى أكثـر مـن قـرنين مـن الزمـان، والخطأ الذي وقع فيه تيار لا يستهان به من المدرسة الحديثيـة هـو محاولـة نسـيان هـذا المحور واعتبار المرويات كأنها نصوص مسجلة بحروفها علـى آلـة التسـجيل، ممـا يتبـع ذلـك تحكيمهـا في دوائـر الاعتقـاد ، والإغـراق في دلالاتهـا اللغويـة دون النظـر إلى أيـة اعتبارات أخرى كالمقاصد العامة للتشريع والاستقراء الكلي للنصوص.
- **المحـور الخـامس**: الملابسات المحيطة بالنص، حيـث إن كـثيراً مـن الروايـات المنقولـة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالأحاديث السياسـية المؤيـدة لـدعوى أحـد الأحـزاب السياسـية المتنازعـة علـى السـلطة لا تـذكر فيهـا الملابسـات والظـروف الـتي

٤٤٤ أصول الدينونة الصافية ص ٦٧ ، عمروس بن فتح .

دعت النبي صلى الله عليه وسلم إلى قول ما قاله، وإنما تظهر على شكل صياغة منسوبة إلى جهة الراوي الذي دار بينه وبين أحدهم حوار فذكره، أو أنه في معرض الاحتجاج به على الخصم، أو نص مبتور عن كافة ملابساته، ثم تجئ الكتب الحديثية لتصنف لنا هذه المرويات على أنها تنبؤات بالفتن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تنبأ بأعيانها ودقائقها، دون الشعور للحظة واحدة بأن هذه المرويات ليست تنبؤات بالفتن بقدر ما هي ردود لاحقة لها، صنعتها الصراعات المتلاحقة التي يمكن إدراكها بقراءة هذه النصوص على ضوء التاريخ ومحاكمتها إلى الأصول الثابتة.

ونحن لا ننكر احتمال أن تكون مثل هذه العبارات قد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم، لكن نطقه بها قد يكون في ملابسات ووقائع مختلفة تماماً عما وظفت لأجله، فمثلاً روى الإمام الربيع بن حبيب في مسنده (٤٥): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يزال الأمر يعني الولاية في قريش ما دام فيهم رجلان –وأشار بأصبعيه–، ولكن الويل لمن افتتن بالملك)، لكن الإباضية منذ بداياتهم الأولى ينصون في نظرياتهم السياسية على أنه ليست هناك قرشية ولا حزبية معينة في اختيار الولاة والحكام، بل المعول عليه هو الصلاح والاستقامة والعلم والقدرة على تحمل المسؤولية، والناظر في تشريعاتهم في قضايا الحكم والسياسة وما يتعلق بالقضايا المصيرية للأمة يلاحظ أنها لم تؤسس على محض روايات آحادية نقلها بعض الرواة؛ بل كانت المنظومة متكاملة في قواعد وأصول تشريعية من نصوص الكتاب والسنة ومن الخبرة الإنسانية المتراكمة، فـ(الظن إن قُبِل كأساس في مسائل

تمس مصالح فردية، لا يمكن اعتماده عند التأسيس لنظام يمس مصالح الأمة ويحدد مستقبلها ومصيرها)[٤٤٥].

ومثل هذه الروايات نستشهد بها في إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ويتكلم في حياته اليومية عن أعراف الناس وطبائهم وأمزجتهم، فيأتي من ينقل ذلك مبتوراً عن سياقه وملابساته فيحدث اللبس، ومثل ذلك الحديث الذي رواه الربيع (٥١٩) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الأحرار من أهل التوحيد كلهم أكفاء إلا أربعة: المولى، والحجام، والنساج، والبقال) حمله بعض فقهاء المدرسة الجابرية على كونه إخباراً عن حال المجتمع وأعرافه وليس تشريعاً دينياً، وهذا هو (قول أبي نوح صالح الدهان وضمام وحاجب)[٤٤٦]، وكذلك هو قول عبدالله بن عبدالعزيز[٤٤٧]، وقد روى ابن عبدالعزيز أن (بعض هؤلاء القوم فرقوا بين عربية ومولى، فبلغ ذلك أبا نوح، فأعظم ذلك إعظاماً شديداً، وقال: أهل الإسلام بعضهم لبعض أكفاء، وتلا هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات:١٣)[٤٤٨].

---

٤٤٥ العقيدة والسياسة ص ٤٦، لؤي صافي.

٤٤٦ الديوان المعروض (كتاب ما يلزم من ضمان الأب لابنته ص ١٢).

٤٤٧ المرجع السابق ص ١٢.

٤٤٨ المرجع السابق ص ١٢.

القسم الثالث

تطبيقات في دراسة الأشراط المستقبلية للساعة

١. فتح القسطنطينية
٢. خروج يأجوج ومأجوج
٣. دابة الأرض
٤. الجساسة وابن صياد والدجال

تطبيقات في دراسة الأشراط المستقبلية للساعة

١. فتح القسطنطينية

كما قلنا في الفصول السابقة إن كثيراً من روايات الفتن والملاحم التي وردت في كتب الحديث محتاجة إلى النظر والتأمل للتأكد من خلوها من شُبه الدس والوضع المتصل بصراع السياسة وقت تدوين هذه الروايات، ومسألة فتح القسطنطينية من المسائل التي يشتم منها هذه الرائحة.

وهذه القضايا تدرك بعرض هذه الروايات على الحقائق التاريخية الثابتة، سواء كانت تلك المتعلقة بالماضي أو تلك التي تتعلق بحركة التاريخ وسيرورته وقوانينه للتأكد من المطابقة، وإلا كانت تلك الروايات تعبيراً عن وضعية تاريخية، وليست نصاً ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم، وفوق هذا كله عرض هذه الروايات ودلالاتها على القرآن الكريم ودلالاته.

وما قدمناه من معالم المنهج الحديثي عند فقهاء المدرسة الجابرية يصب في خانة مراجعة ونقد متن الرواية والحديث في ضوء الثوابت اليقينية كالكتاب والسنة والواقع، وهذا المنهج الرصين أقر به من بعد بعض المحققين من علماء المدارس الإسلامية الأخرى، فابن الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) يقول : (المستحيل لو صدر عن الثقات ردّ ونسب إليهم الخطأ. ألا ترى أنه لو اجتمع خلق من الثقات فأخبروا أن الجمل قد دخل في سم الخياط لما نفعتنا ثقتهم ولا أثرت في خبرهم، لأنهم أخبروا بمستحيل، فكل حديث رأيته يخالف المعقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع، فلا تتكلف اعتباره، وأعلم أنه قد يجيء في كتابنا هذا من الأحاديث ما لا يشك في وضعه، غير أنه لا يتعين لنا الواضع من الرواة، وقد يتفق رجال الحديث كلهم ثقاة

والحديث موضوع أو مقلوب أو مدلس)[٤٤٩]، وكذلك قول الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ): (ولا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم، والسنة المعلومة والفعل الجاري مجرى السنة وكل دليل مقطوع به)[٤٥٠].

القسطنطينية

تعد مدينة القسطنطينية التاريخية من المدن التي حظيت بعناية تاريخية كبيرة، لكونها عاصمة للدولة الرومانية الشرقية، وأخذت القسطنطينية هذا الاسم نسبة إلى الإمبراطور الروماني (قسطنطين) الذي كان إمبراطوراً بين ٣٢٤–٣٣٧م.

وارتبط اسم هذه المدينة بتاريخ الصراع بين الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) والممالك الإسلامية كالدولة الأموية والدولة العباسية ودولة السلاجقة والدولة العثمانية.

واستطاعت هذه المدينة الصمود في وجه محاولات هذه الدول لفتحها سنوات طوال، إلى أن نالت ضربة قاصمة على يد السلاجقة عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) في موقعة (ملاذكرد)، واستطاع العثمانيون في نهاية الأمر فتحها عام ١٤٥٣م.

(عاشت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية ألف عام، بلغ عدد سكانها المليون، واجتمع فيها الإغريق أهل البلاد الأصليين، والآسيويين والروس والبلغار والأرمن والصقالبة)[٤٥١] وغيرهم من الأجناس الأخرى.

---

٤٤٩ الموضوعات ج١ص٦٥، أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي.

٤٥٠ الكفاية في علم الرواية ص ٤٣٢، الخطيب البغدادي.

٤٥١ تاريخ الدولة البيزنطية ص١٩١ بتصرف، محمود محمد السيد.

الأمويون و القسطنطينية

بعد أن استطاع المسلمون في عهد الخلافة الراشدة فتح بلاد الشام واستخلاصها من أيدي الروم وطردهم منها، توقفت هذه الحركة بدخول المسلمين في دوامة الصراع الداخلي والفتن والحروب التي شغلتهم عن العدو الخارجي.

وبعد سنوات من الصراع استتب الأمر في النهاية لصالح البيت الأموي الارستقراطي، الذي سار سياسة استبدادية، في انحراف واضح عن معالم المنهج الإسلامي في تطبيق السلطة.

وكان رائد البيت الأموي معاوية بن أبي سفيان[٤٥٢] من المهتمين بالصراع مع الدولة البيزنطية منذ أيام ولايته على بلاد الشام في عهد الخلفاء الراشدين. ولما آلت أمور الحكم إليه بالغلبة والقهر، واصل صراعه مع هذه الدولة، وذلك لتهديدها الدائم لأمن واستقرار أي دولة مجاورة لها، إذ أنها لا تزال رغم كل ما حصل دولة قوية تتمتع بمقومات الدولة القادرة على خوض الصراعات الطويلة الأمد.

- في عام ٤٩هـ قام معاوية بإرسال حملة استطلاعية بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري إلى ضواحي القسطنطينية، فأخذ ينظم قواته ويعدها ويدربها انتظاراً

---

٤٥٢ هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب، أسلم يوم فتح مكة، لما ولي عمر جعله والياً على الأردن، وجاء عثمان فجمع له الديار الشامية كلها.
ولما ولي علي بن أبي طالب عزل معاوية، فرفض معاوية هذا العزل، وادعى أنه مطالب بدم عثمان، ونشبت الحروب الطاحنة بينه وبين علي. وانتهى الأمر بإمامة معاوية على الشام وإمامة علي على العراق، ثم قتل علي وبويع بعده ابنه الحسن، فسلم الحسن الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ، ودامت لمعاوية الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة، فعهد بها إلى ابنه يزيد. ومات معاوية في دمشق سنة ٦٠هـ. (الأعلام للزركلي ج٧ ص ٢٥٩ بزيادة وتصرف).

للمدد الذي كان معاوية يعده في دمشق، وجعل معاوية ابنه يزيداً على رأس هذا الحملة.

- وقاد يزيد هذه الحملة التي حاصرت القسطنطينية وضيقت الخناق عليها، واستشهد في هذا الحصار الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وعادت الحملة في صيف عام (٤٩هـ/٦٦٩م) بعد أن فشلت في تحقيق أهدافها.
- أعد معاوية حملة ثانية لغزو القسطنطينية عام (٥٣هـ/٦٧٣م) بقيادة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد يؤازرها أسطول بحري، واستمر هذا الحصار سبع سنوات، وصمدت القسطنطينية وقاومت مقاومة عنيفة، ولما أحس معاوية بدنو الأجل قام باستدعاء تلك الجيوش لمواجهة التحديات الداخلية التي خلفتها سياساته.
- قام الوليد بن عبدالملك بحصار مدينة (طوانة) للسيطرة على طرق القسطنطينية، واستطاعت جيوشه دخولها عام ٧٠٧م، بعد حصار دام عامين.
- قام سليمان بن عبدالملك بإرسال حملة ضخمة لحصار القسطنطينية عام ٩٨هـ بقيادة أخيه مسلمة بن عبدالملك، فحاصرها حصاراً شديداً إلى وفاة أخيه سليمان عام (٩٩هـ/٧١٨م)، أي أن الحصار دام عاماً كاملاً، وبعد وفاة سليمان وتولي الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز مقاليد الحكم، أرسل إلى مسلمة أن يعود بجيوشه وأساطيله إلى بلاد الشام. وكانت هذه الحملة نهاية الحملات الفعلية ضد القسطنطينية في عهد الدولة الأموية.

العباسيون و القسطنطينية

كانت الحروب بين العباسيين –ورثة الأمويين– وبين البيزنطيين عبارة عن غارات لم يقصد فيها أحد من الطرفين فتح عواصم وحواضر، لذا ظلت الحروب طيلة عهود العباسيين على هذا النمط.

وكانت الحروب تدور خارج نطاق العواصم والحواضر الكبرى، بل إن كفة الروم قد رجحت بعض الشيء في الفترة الثانية للخلفاء العباسيين[٤٥٣].

ولم يحاول العباسيون خلال تاريخهم الطويل فتح القسطنطينية –كما فعل أسلافهم الأمويون–، اللهم إلا ما كان من أمر هارون بن المهدي المعروف بهارون الرشيد في عهد أبيه المهدي سنة ١٦٥هـ، عندما سار وبلغ أسوار القسطنطينية، ثم صالحهم بعد ذلك مقابل الفدية، وكتبوا له كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين[٤٥٤].

السلاجقة والقسطنطينية

دخل السلاجقة بغداد عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، وأعلن الخليفة العباسي السلطان السلجوقي سلطاناً يحكم باسمه له السلطة الفعلية، في حين يحتفظ الخليفة العباسي بالسلطة الروحية!.

---

٤٥٣ الدولة العباسية، محمد الخضري بك. وتاريخ الإسلام ج٣، حسن إبراهيم حسن.

٤٥٤ التاريخ الإسلامي ج١٣ص ٩٧–٩٨، عبدالعزيز الحميدي.

وبعد أن استتب الأمر للسلاجقة في بغداد بدأوا يوجهون أنظارهم نحو التوسع الخارجي، فزحفوا (إلى أرمينية، وكانت أجزاء منها خاضعة لبيزنطة، واستولوا على "آن" العاصمة الأرمينية القديمة، وكانت أرمينية تعد حصناً يحمي حدود بيزنطة)[٤٥٥].

واستمرت غزوات السلاجقة ضد البيزنطيين حتى كانت موقعة (ملاذ كرد) عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، وكان من نتائجها أن (لم تتمكن بيزنطة بعد موقعة "ملاذ كرد" من استعادة مكانتها في آسيا الصغرى، حتى أنها فقدت بعد ذلك أرمينية وكبادوكيا، وكانت تستمد منها خيرة جنودها وأشهر قادتها. وعمت الإمبراطورية حالة من التفكك والفوضى، وضاعت قونية ونيقية، وفي عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م استولى السلاجقة على "كريز بوليس" وهي مواجهة للقسطنطينية)[٤٥٦].

القسطنطينية في روايات السلطة[٤٥٧]

يبدو أن ذكر القسطنطينية أبى إلا أن يفرض وجوده حاضراً في ذاكرة التاريخ، بتخليده في روايات حديثية منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تبشر بفتحها، وتجعل من يفوز بهذا الشرف من الذين يحوزون الثواب الجزيل والأجر العظيم والمغفرة والرضوان. ومن هذه الروايات:

---

٤٥٥ تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٥٣، محمود محمد السيد.

٤٥٦ المرجع السابق ص ١٥٥.

٤٥٧ ما نعنيه هنا بروايات السلطة هو ما استطاعت السلطة تسريبه من روايات صنعتها وروجت لها، ولا نعني بالضرورة من جاء من المتأخرين ممن دونوها في مؤلفاتهم الحديثية تعويلاً على ظاهر صحة السند.

١ . روى البخاري (٢٧٦٦) من طريق عمير بن الأسود العنسي عن عبادة بن الصامت أن أم حرام بنت ملحان حدثته أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا) . قالت أم حرام: قلت يا رسول الله أنا فيهم؟ . قال: أنت فيهم .ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) . فقلت: أنا فيهم يا رسول الله . قال: لا) .

٢ . روى البخاري (٢٦٣٦) ومسلم (١٩١٢) من طريق أنس بن مالك: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته، وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك . قالت: فقلت: وما يضحك يا رسول الله؟ . قال: (ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة) . قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم . فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ . قال: ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله كما قال في الأول . قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم .قال: أنت من الأولين . فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت .

٣ . روى أحمد في المسند (١٨٩٧٧) والبخاري في التاريخ الكبير من طريق أنس بن مالك، والحاكم في المستدرك (٨٣٠٠) والطبراني في الكبير (١٢١٦) عن عبدالله بن بشر الغنوي عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لتفتحن

القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) . قال فدعاني مسلمة بن عبدالملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية .

٤ . روى مسلم (٢٩٢٠) والحاكم في المستدرك (٨٤٦٩) من طريق أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ .قالوا : نعم يا رسول الله . قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق ، فإذا جاءوها نزلوا ، فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ فقال إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون) .

٥ . روى مسلم (٢٨٩٧) والحاكم في المستدرك (٨٤٦٩) من طريق أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً ، فيفتحون قسطنطينية ، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل) .

٦ . روى أحمد في المسند(١٧٧٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (٥٧٢) من طريق جبير أنه سمع أبا ثعلبة الخشني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو بالفسطاط في خلافة معاوية وكان معاوية أغزى الناس القسطنطينية فقال : والله لا

تعجز هذه الأمة من نصف يوم، إذا رأيت الشام مائدة رجل واحد وأهل بيته فعند ذلك فتح القسطنطينية.

بعد كل هذا الكم من الروايات في فتح القسطنطينية، يحق لنا أن نتساءل:

- لماذا تباينت الروايات في أمر فتح القسطنطينية بين أمراء يغزونها ويفتحونها في ذلك الوقت، وبين تأجيل أمر الفتح إلى آخر الزمان مع ظهور ما يسمى بالدجال؟!.
- ثم لماذا تُبقِي روايات فتح القسطنطينية الروم وعاصمتهم القسطنطينية خصماً تاريخياً للمسلمين إلى آخر الزمان؟!.

هناك العديد من التساؤلات في متون هذه الروايات، والتي لا يمكن هضمها بسهولة إلا مع من أغلق عينيه عن درك الحقيقة الواضحة للعيان، والمشكلة في نظري تكمن في المنهج، إذ إن الروايات الأخبارية تشكل في كتب الحديث قسماً لا يستهان به من أبوابها وفصولها، وخاصة أبواب الفضائل والمناقب والفتن والملاحم وأحاديث العقائد وبعض أحاديث الأحكام.

وهذه الروايات لم يتناولها أحد بالبحث – إلا فيما ندر– للتأكد من خلوها من أية أغراض سياسية أو مذهبية، وذلك أنها وإن وردت في كتب الحديث فإن ذلك لا يلغي إطلاقاً **البعد الزمني الكامن فيها**، وكان من الواجب أن تتناول الدراسات الحديثية هذه الظاهرة بالعناية والاهتمام، لكن يبدو أن الضغط الهائل الذي كانت تمارسه السلطة على العقول والنفوس معاً قد حجب أبعاد الرؤية الشمولية لهذه الظاهرة.

وقد حاول ابن خلدون المؤرخ الشهير التفريق بين روايات الأحكام والروايات الأخبارية في مقدمته الشهيرة فقال: (إن أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها، إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو سابق على التمحيص

بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وذلك أن الأخبار والواقعات لا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة)[٤٥٨]، أما التكاليف الإنشائية (= الأحكام) فهو يرى (أن الشارع أوجب العمل بها متى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منها)[٤٥٩].

(إن ابن خلدون –فيما يبدو– يقصد من تفرقته السابقة، إلى إبعاد النص السني في مجمله عن دائرة المنهج التاريخي الاجتماعي الذي كان يمارس من خلاله نقد الروايات والأخبار التاريخية، مما يجعل هذه التفرقة في نهاية الأمر تكريساً لمنهج الرواية الإسنادي الذي يتعاطاه علم الحديث التقليدي، فالنصوص السنية سوف تظل خاضعة لهذا المنهج، فيما تخضع الروايات الأخبارية لمنهج المطابقة التاريخية الذي أشار إليه ابن خلدون)[٤٦٠].

وابن خلدون بهذا يريد أن يبين أن هناك فرقاً بين روايات كتب التاريخ التي تنقل أخباراً، وبين روايات كتب الحديث التي تنقل تكاليف، لكن هذه التفرقة فيها ضرب من التحكم الذي لا دليل عليه، فروايات المهدي المنتظر والدجال وعودة عيسى عليه السلام وروايات الحق الإلهي لآل البيت العلوي[٤٦١] وروايات القرشية في الحكم

---

٤٥٨ تاريخ ابن خلدون ج١ ص ٣١.

٤٥٩ المرجع السابق.

٤٦٠ السلطة في الإسلام ص٣١٠، عبد الجواد ياسين.

٤٦١ يرى الكاتب اللبناني الشيعي سعيد أيوب في كتابه "ابتلاءات الأمم" أن فكرة روايات الحق الإلهي الواردة في بعض كتب الحديث هي عينها الفكرة الواردة في أسفار العهد القديم، فيقول في ص ٤٩–٥٠: (وأما هارون بن عمران وبنوه فيقول فيهم: " وتوكل هارون وبنيه فيحرسون كهنوتهم والأجنبي الذي يقترب يقتل"، وهكذا تم

تحديد القاعدة وذروتها. وبالجملة: كان الكاهن الأعلى يقوم بمهمته بعد اختيار الله له، وهذه قاعدة أصيلة في الدعوات الإلهية للناس، والله يزكي من يشاء، والعهد الجديد يقر بذلك فيقول : "ولم يكن أحد يتخذ لنفسه هذه الوظيفة الشريفة متى أراد بل كان يتخذها من دعاه الله إليها كما دعا هارون "والرسالة الخاتمة أقرت بهذه الحقيقة، وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب: " أنت مني بمنزلة هارون بموسى إلا أنك لست نبياً .....).

ويقول في نفس الكتاب ص ٢٣٨–٢٣٩: (ولما كان الناس يختبرون بالأنبياء والرسل. فإنهم يختبرون أيضاً بتلاميذ وحواري وأوصياء الأنبياء والرسل. ولقد تم اختبارهم بأبناء هارون وتلاميذ المسيح عليه السلام. وشهد بذلك كتب التراجم والتواريخ والسير والأمة الخاتمة لم تستثن من ذلك، ولقد قابلت دائرة هارون وبنوه في الشريعة الموسوية دائرة علي بن أبي طالب وبنوه في الشريعة المحمدية، ففي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي").

وقال من بعد في ص ٢٤٠ :(ولما كانت الدعوة الإلهية لبني إسرائيل جعلت هارون وبنيه مع التوراة على خط واحد. فإن الدعوة الإلهية الخاتمة جعلت أهل البيت مع القرآن على خط واحد. فعن زيد بن أرقم قال : قام رسول الله يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر . ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس؛ فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال : وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ...).

وفي ص ٢٦١ : (ولما كنا قد قابلنا بعض الأحداث التي جرت في عهد البعثة الخاتمة بمثيلاتها على عهد أنبياء بني إسرائيل . ونحن نرصد منزلة هارون من موسى فإننا نجد في مقام التطهير والعلم "وكلم الرب هارون قائلاً : خمر ومسكر لا تشرب أنت وبنوك معك...فرضاً دهرياً في أجيالكم. وللتمييز بين المقدس والمحلل ، وبين النجس والطاهر ولتعليم بني إسرائيل جميع الفرائض التي الرب بها بيد موسى "

ولقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أدى المناسك. أعلن ولاية علي بن أبي طالب ، وفي مقابل هذا الحدث، نجد العهد القديم يذكر أنه في اليوم الثامن من الشهر الذي تؤدي فيه المناسك، أمر موسى هارون أن يأخذ عجلاً ليذبحه في اليوم الذي يفيض الله برحمته على العباد ، وفعل هارون ما أمر به موسى ثم رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم .... ودخل موسى وهارون خيمة الاجتماع ثم خرجا وباركا الشعب) اهـ .

لاحظ مسألة الكهونية المتولدة من هذا التطهير التي تتحول إلى حق إلهي مقدس في تفسير الشريعة لا تعطى لغير أولئك المطهرين كما نصت على ذلك هذه الروايات.

والروايات الواردة في خروج يأجوج ومأجوج هي في حقيقتها روايات أخبارية بحتة، وورودها في كتب الحديث لا ينفي عنها الطابع الأخباري الذي يحتاج إلى المطابقة. ولذا فإننا سوف نعاملها معاملة الخبر الذي يحتاج إلى الفحص والعرض على الأصول الكلية، ودراسته على ضوء حركة التاريخ وحركة المجتمعات الإنسانية والذي عبر عنها ابن خلدون بـ(طبائع العمران).

وعلماؤنا الذين تعاطوا التأليف التاريخي تعاملوا مع الروايات الحديثية ذات الطابع الأخباري وفق منهج المطابقة التاريخية، ومن أمثلة ذلك:

١. ما ذكره الشماخي (ت: ٩٢٨هـ) عن الحديث الذي رواه البخاري (٧١٠٩) من طريق أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) وهذا القول يستدل به على صحة تسليم الحسن بن

ولاحظ أنه يبعد من ليس من الذين اختيروا لإعطائهم حق التفسير الإلهي للشريعة عن هذا التطهير في الروايتين. الرواية اليهودية عبرت عن ذلك "فيحرسون كهنوتهم والأجنبي الذي يقترب يقتل". ورواية كتب الحديث عند بعض المسلمين كانت أخف قليلاً "قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال إنك على خير".

والأغرب أنه في حين تنقل هذه الروايات الموجودة في بعض كتب الحديث أن الفهم والتقديس والتطهير لفئة كهنوتية من البشر، نجد أن كتاب الله عز وجل يخاطب البشرية طولاً وعرضاً وفي كل مكان وزمان للتفاعل مع كتابه الكريم دون أن تحدد فئة كهنوتية لتفسير الكتاب العزيز

﴿انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾..

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين ﴾.

﴿لقوم يتفكرون﴾

﴿لأولي الألباب ﴾

علي لمعاوية عام ٤١هـ، حيث قال: (فإن قلت: قال عليه السلام في الحسن سيصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين، قلت: لو ثبت هذا الحديث لما اتفق جميع أصحابه على تعييبه حتى سموه مذل المؤمنين بعد أمير المؤمنين يا عار المؤمنين، ولو كان الفعل لله لم يشترط عليه أن الأمر بعده له، وأيضاً لا يجوز له أن يسلمها لمعاوية وقد علم أنه لا يعمل بكتاب الله، وإن علم أنه يعمل بكتاب الله فقد تحقق أن من قاتله باغ ضال)[٤٦٢].

٢. وقال الدرجيني (ت: ٦٧٠هـ) عن حرقوص بن زهير السعدي: (وكان أحد أمراء الأجناد في أيام عمر رضي الله عنه، وهو الذي فتح الأهواز في أيام عمر، وكان له آراء سديدة وآثار حميدة.....وكان حرقوص ممن شهد صفين وأبى تحكيم الحكمين، وكان في أصحابه حتى قتل رحمه الله)[٤٦٣].

ثم قال عقب ذلك: (وحرقوص هذا هو الذي ينتحل[٤٦٤] أحاديث لا يبعد أن تكون مصنوعة، فإن فيها ما يدل على سقمها لتناقض مثبوتها، ولكن أكثرها منتحل، ورواها على طرق، فمنها ما نسب إليه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم غنائم خيبر "ما عدلت منذ اليوم" فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: "ألا أقتله يا رسول الله؟" فقال: "إنه يكون لهذا أو لأصحابه نبأ".

ومنها ما نسب إليه أنه قال ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟". ثم قال لأصحابه واحداً بعد واحد: أيكم يقتله؟ فقال له الأول:

---

٤٦٢ كتاب السير ج١ ص ٥٥، أحمد بن سعيد الشماخي.

٤٦٣ كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ج٢ ص ٢٠٢ (بتصرف)، أحمد بن سعيد الدرجيني.

٤٦٤ قال إبراهيم طلاي المعلق على الطبقات: كذا في النسخ، لعل الصواب " هو الذي ينتحل غيرنا فيه أحاديث".

وجدته راكعاً، وقال الثاني: وجدته ساجداً، وقال الثالث: لم أجده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان".

ومنها أنه قال وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالاً ورد عليه بين أربعة من المؤلفة قلوبهم، فزعموا أنه قال: "لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله"، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورد خداه، ثم قال: "أمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنني؟!! فقام عمر رحمه الله فقال: "ألا أقتله يا رسول الله؟" فقال: "سيكون من ضئضئ هذا أقوام تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين –إلى قوله– وتتمارى في الفوق.

ففي هذه الأخبار دلائل على سقمها من أوجه كثيرة:

– أحدها: أنه لو صح عنه أنه غير عدل إذ قال "ما عدلت منذ اليوم" ما آمن ولا أقام على دينه ولا صلى إلى قبلته.

– الثاني: لو صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه خاض بالطعن في النبوءة لما أهمله، ولكان هو المبتدر إلى قتله ولم يكله إلى غيره.

– الثالث: أنه لو صح ذلك عند عمر رضي الله عنه وأنه من المأمورين بقتله، واعلمه أنه مارق من الدين فكيف يستعين به على الجهاد؟!، وهو أعظم أركان الدين، فيجعله أميراً على جنوده المؤمنين، وظهيراً على قتال الكافرين.

– الرابع: أنه لو صح عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك وأنهم مأمورون بقتله لم يتراخوا في قتله، بل يجعلونه أوكد فرائضهم، فكيف تسامحوا حتى خرج ثم لم يكترثوا به؟!.

— الخامس: أنه صلى الله عليه وسلم منزه عن أن ينسب إلى كلامه الغلو والمجازفة؛ حتى يقول "لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان"، فيلزم على هذا أن تكون حياة حرقوص سبباً لكفر اليهود والنصارى والصابئين والمجوس وعبدة الأوثان والمعطلة والزنادقة وغيرهم، وهذا من المحال الذي ينكره الحس ويأباه العقل ويقوى الدليل على بطلانه، إذ لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، وحرقوص حياً، ولو شاء لضلوا جميعاً قبل وجود حرقوص وبعد موته، لكنهم ﴿لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود: ١١٨–١١٩، فقد اتفقوا واختلفوا وبينهم من هو خير من حرقوص وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما اتفقوا واختلفوا وفيهم شر منه وهو أبو جهل –لعنه الله– فهذا يبعد أن يكون من كلام من لا ينطق عن الهوى.

— السادس: أنه قد شهد من ضئضه من حرق القرآن قلبه، وصدع كبده؛ فضلاً عن مجاوزة الحنجرة، أعني في العمل به والامتثال لأوامره والانتهاء عن مناهيه.

— السابع: ذكر المروق؛ فرأيك أعلم بالمارق وباللص السارق، وقد حقق كثير منهم ممن عامل بالإنصاف أن القوم إنما قاتلوا هروباً من اتباع الهوى واطراحاً لزهرة الحياة الدنيا ورغبة فيما يرجونه عند الله في الدار الآخرة، وفيها أدلة كثيرة غير ما ذكرناه، فحرقوص مبرأ مما قالوه، ومما إليه نسبوا)[٤٦٥].

وقد ظهرت بعض هذه اللمحات لدى بعض المحدثين في تعاملهم مع الرواية الحديثية ذات الطابع الأخباري، حيث رأوا ضرورة تبين مطابقتها للحقائق والوقائع التاريخية الثابتة، من ذلك الحديث الذي رواه (مسلم في الصحيح من حديث عكرمة بن عمار

---

٤٦٥ المرجع السابق ج٢ ص ٢٠٢–٢٠٤. وللتوسع في موضوع أحاديث الخوارج انظر كتاب "الخوارج والحقيقة الغائبة"، ناصر بن سليمان السابعي.

عن ابن عباس قال: "كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله ثلاث أعطينهن. قال: نعم. قال: عندي أحسن العرب وأجملها أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها. قال: نعم. قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: نعم. قال: وتأمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال نعم".

وقال أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الكشف له: هذا الحديث وهم من بعض الرواة لا شك فيه ولا تردد، وقد اتهموا به عكرمة بن عمار راويه، وقد ضعف أحاديثه يحيى بن سعيد الأنصاري، وقال: ليست بصحاح، وكذلك قال أحمد بن حنبل هي أحاديث ضعاف، وكذلك لم يخرج عنه البخاري، إنما أخرج عنه مسلم لقول يحيى بن معين ثقة. قال: **وإنما قلنا إن هذا وهم؛ لأن أهل التاريخ أجمعوا** على أن أم حبيبة كانت تحت عبيد الله بن جحش وولدت له وهاجر بها وهما مسلمان إلى أرض الحبشة، ثم تنصر وثبتت أم حبيبة على دينها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي يخطبها عليه فزوجه إياها، وأصدقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف درهم وذلك سنة سبع من الهجرة، وجاء أبو سفيان في زمن الهدنة فدخل عليها فنحت بساط رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يجلس عليه، ولا خلاف أن أبا سفيان ومعاوية أسلما في فتح مكة سنة ثمان، ولا يعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّر أبا سفيان)[٤٦٦].

---

٤٦٦ حاشية ابن القيم ج ٦ ص٧٥، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي.

وفي هذه الدراسة – إن شاء الله تعالى– سوف نتعامل مع هذه المرويات الأخبارية الواردة في كتب الحديث على قدم المساواة، بمعنى آخر سوف نتعامل مع الأخبار التي صحت من جهة السند والتي لم تصح من جهة السند وذلك لاعتبارات منها :

١ . أن القائلين بهذه النظريات عادة ما يحشرون كل هذه الروايات في صعيد واحد ويدعون تواترها، وأنها جاءت من طرق كثيرة جداً، فلم يعد البحث عن السند أمراً ذا بال مع هذه الكثرة، ونحن بتعاملنا معها جميعاً لاكتشاف البعد الزمني الكامن سوف ننحو هذا المنحى.

٢ . ليست المشكلة –في نظرنا– في الإسناد الصحيح أو الإسناد الضعيف، بقدر العوامل الزمنية التي كونت معالم هذه القضية إلى أن أوصلتها لدخول دائرة الاعتقاد ، لذا كان من الضروري التعامل معها جميعاً للوصول إلى فهم دقيق لها.

٣ .أن في كثير من الروايات الضعيفة من آثار البصمة السياسية التي حاولوا إخفاءها في الروايات التي أجادوا سبكها.

٤ . أن عملية المقارنة التاريخية لا بد أن تتم بين مختلف الروايات بغض النظر عن أسانيدها – ولو في مرحلة القبول المبدئي–، لأنها نقل تاريخي، والسند إنما نحتاج إليه في مرحلة لاحقة كأحد مرجحات الرواية التاريخية عند التعارض، ولأننا لا نريد من هذه الدراسة ترجيح أحد الأخبار على الآخر، وإنما الغرض هو دراسة هذه الروايات لاكتشاف البعد الزمني الكامن فيها، لذا فإننا سوف نغفل قضية الإسناد الصحيح والضعيف، ونتعامل مع الجميع على قدم المساواة لدراسة المحيط الموضوعي الزمني للرواية الحديثية الأخبارية (=التاريخية).

وسنعتمد إن شاء الله تعالى في هذه الدراسة على القواعد الحديثية التي استخرجناها من تراث المدرسة الجابرية، ومنها :

قاعدة ١: وجوب استحضار رؤية قرآنية في التعامل مع المنظومة الروائية، والوقوف عند حدود الدلالات القرآنية، وعدم السماح للمرويات المخالفة لها بالهيمنة على الحياة وصياغة التفكير، يقول الإمام جابر بن زيد في روايات المسح على الخفين : (كيف يمسح الرجل على خفيه والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء؟! والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم)[٤٦٧] .

ويقول عبدالله بن عبدالعزيز : (ولم نر قوماً أتبع لرواية وأنقض لكتاب الله منكم...)[٤٦٨] .

قاعدة ٢: الروايات التي لم يجر عليها عمل لا تعد سنناً لا يجوز النظر فيها، بل هي روايات أو أحاديث ينظر في درجة انسجامها مع دلالات الكتاب والسنة، وقد بينا ذلك بالتفصيل في القسم الأول من هذه الدراسة، وظل هذا الفهم حاضراً في أذهان الفقهاء حتى في القرون المتأخرة، يقول الصائغي في أرجوزته :

والقولُ في حقيقةِ الدجالِ   يعلمُه الرحمنُ ذو الجلالِ
لأنه ما نُصَّ في الكتابِ   عنه ولا في سنةِ الأوابِ
وواسعٌ فيما أراه جهلُه   إن لم يبنْ باطلُه وعدلُه

فيرى الصائغي أن تلك الروايات المتأخرة الظهور لا يمكن عدها سنناً يلزم اتباعها، فالسنة كاشفة ومبينة لكتاب الله تعالى، وهذه هي روايات وأحاديث تحتاج إلى فحص

٤٦٧ الربيع (١٢٥).

٤٦٨ المدونة الصغرى ج ١ص٢١٢، بشر بن غانم الخراساني.

ونظر، وباب كالساعة وما يتعلق بها تحتاج إلى مستوى من الثبوت يفوق درجة ثبوت ودلالات هذه الروايات، يقول سعيد بن خلفان الخليلي في مثل هذه النوعية من الروايات: (هذه الأحاديث لم تصح عند أصحابنا المشارقة أوائل وأواخر، ولم تقم لها شهرة تواتر ولا سند متصل ولا استقر عليها إجماع ولا اتفاق من أهل الاستقامة والعدل، فهي من الأحاديث التي يجب ردها إلى شواهد أحكام الأصول)[٤٦٩]

قاعدة ٣: الروايات قد تصح من ناحية السند والمتن؛ لكن تحتاج لحسن فهم وتعامل ووضع لها في موضعها الصحيح الذي تفرضه قواعد التشريع المستخرجة من الكتاب والسنة، وعاب فقهاء المدرسة الجابرية على أقوام (يروون الرواية ولا يعرفون وجهها ولا معانيها)[٤٧٠].

قاعدة ٤: كثير من الروايات في أبواب بعينها قد تضخمت لأسباب كثيرة ووصلت لمئات الآلاف، (قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف حديث[٤٧١]. قيل: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب)[٤٧٢]، وقال يحيى بن معين (كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث)[٤٧٣]، بينما كانت أقل من ذلك بكثير حسب ما عبر عنه فقيه من فقهاء المدرسة الجابرية وهو الإمام الربيع بقوله: (بلغنا أن عدة ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف حديث، منها تسعمائة في الأصول والباقي في الآداب

---

٤٦٩ تمهيد قواعد الإيمان ج٥ ص ١٨٧، سعيد بن خلفان الخليلي.
٤٧٠ الديوان المعروض (كتاب الصيام ص ٤٧).
٤٧١ مليون.
٤٧٢ طبقات الحفاظ ج١ ص١٩٠، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي.
٤٧٣ شرح علل الترمذي ج١ ص٤٨٩، ابن رجب الحنبلي.

والأخبار)[٤٧٤] ، وهذا التصور امتداد لرؤية فقهاء الصحابة الذي عبرت عنه السيدة عائشة بقولها (ألا تسمع إلى هذا ومقالته آنفاً؟! إنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه)[٤٧٥] ، وكان هذا في معرض الرد على أبي هريرة، والذي رفضت السيدة عائشة طريقته في سرد الأحاديث فقالت: (ولو أدركته لرددت عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم)[٤٧٦] ، (ولا شك أن طريقة السرد التي اتبعها أبو هريرة، قد أوقعته في بعض الوهم، وخاصة في بعض المواطن التي قد لا تكون غير مسعفة في جودة السماع له ولغيره من الصحابة)[٤٧٧] . لذا استدركت السيدة عائشة كثيراً على أبي هريرة لما يسرده سرداً عن النبي صلى الله عليه وسلم، بدافع (الحرص على تفهم معاني الحديث ومقابلة السنة بالكتاب)[٤٧٨] .

فالدين واحد ، لا يعقل أن يصل متضخماً إلى أناس وضامراً إلى أناس آخرين، فلا بد من الحيطة والحذر فيما تضخم من بعد وعرضه على الأصول والثوابت.

ولنبدأ الآن في قراءة الروايات الواردة في الموضوع:

- **الرواية رقم (١)** فيها بشارة من النبي صلى الله عليه وسلم لأول من يغزو البحر (قد أوجبوا)....انتبهوا جيداً إنه معاوية بن أبي سفيان الحاكم الأموي الذي لا يخفى حاله على أحد.... ثم بعد ذلك بشارة أخرى لأول من يغزو مدينة قيصر

---

٤٧٤ كتاب الترتيب، مسند الربيع ص ٣٢٨ .

٤٧٥ البخاري (٣٣٧٤)، مسلم (٢٤٩٣).

٤٧٦ البخاري (٣٣٧٥) ، مسلم (٣٠٠٢).

٤٧٧ منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي ص ١١٠-١١١، صلاح الدين الأدلبي.

٤٧٨ المرجع السابق ص ١٠٩ .

(القسطنطينية) بقوله: (مغفور لهم)، وانتبهوا مرة أخرى أن أول جيش غزا مدينة قيصر (القسطنطينية) كان بقيادة يزيد[٤٧٩] بن معاوية بن أبي سفيان في خلافة أبيه، ويزيد هذا هو نفسه الذي فتكت جيوشه بأهل المدينة المنورة من بقايا الصحابة من المهاجرين والأنصار، وهو كذلك قاتل الحسين بن علي حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مأساة كربلاء المشهورة.

- ثم تأتينا مثل هذه الروايات لتسبغ المغفرة والرضوان على هذه الرموز، محاولة تلميع صورتها الكالحة في ذاكرة التاريخ، **والرواية رقم (٢)** تصب في نفس المصب الذي تصب فيه **الرواية رقم (١)** علاوة على ما فيها من أن (أم حرام تفلي رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مخالف لكل التشريعات التي جاء بها الإسلام لترسيخ الأخلاق والقيم الفاضلة وصون الحرمات)[٤٨٠].
- **أما الرواية رقم (٣)** ففيها أن فتح القسطنطينية سيكون على يد جيش وصف بأنه (نعم الجيش)، والأمير (نعم الأمير)، وهذه البشارة لم ترتبط بآخر الزمان، لذا فقد سارع مسلمة بن عبدالملك –القائد الأموي– بالسؤال عن الرواية لعله يفوز بهذا الثناء الذي تصوره الرواية، والطريف في هذه الرواية أنها تربط بين مسلمة بن

---

٤٧٩ هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالماطرون، ونشأ بدمشق وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠هـ، وأبى البيعة له عبدالله بن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلى مكة والثاني إلى الكوفة، وكان من أمرهما ما كان مما هو معروف. و في خلافته كانت مأساة الحسين بن علي وخلع أهل المدينة له سنة ٦٣هـ، فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المري، وأمره أن يستبيحها ثلاثة أيام، وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، توفي سنة ٦٤هـ. (الأعلام للزركلي ج٨ ص ١٨٩ بزيادة وتصرف).

٤٨٠ تعليق، أفلح بن أحمد الخليلي.

عبدالملك[٤٨١] الذي سارع لنيل الأجر والثواب، وهو الذي لم يكن يتورع عن القتل والبطش من أجل تثبيت دعائم دولة آبائه وقبيلته، والرواية تصوره لنا رجلاً حريصاً على نيل الأجر والثواب.

وكذلك تصطدم هذه الرواية مع روايات فتح القسطنطينية في آخر الزمان، حينما يقاتل المسلمون الروم -كما تزعم بذلك تلك الروايات-.

- **الرواية رقم (٦)** عن الصحابي أبي ثعلبة الخشني تعد بفتح القسطنطينية عند توحد الشام على مائدة رجل واحد وأهل بيته، وكانت تلك الأيام أيام ملك معاوية بن أبي سفيان .... يعني وبكل صراحة لم تُرَّحل مسألة فتح القسطنطينية إلى آخر الزمان بعد!!. وكان الأمل لا يزال يحدو الأمويين في فتح هذه المدينة العريقة.

- **الرواية رقم (٤)** من أعجب الروايات، نبوءة هذه الرواية أن فتح القسطنطينية سيكون على أيدي بني إسحاق (=بني إسرائيل)، ولذا حار كثير من الشراح في كيفية توجيه هذه الرواية مع ورودها في صحيح مسلم، والرواية كذلك ترحل مسألة فتح القسطنطينية إلى آخر الزمان!.

- **الرواية رقم (٥)** ترحل مسألة فتح القسطنطينية إلى آخر الزمان مع ظهور ما يسمى بالدجال!!. (و هذه الرواية فيها:

- المبالغة الهائلة، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح ثلث لا يفتنون أبداً.

---

٤٨١ هو مسلمة بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، أمير قائد من بني أمية في دمشق، يلقب بالجرادة الصفراء، له فتوحات مشهورة، سار في ١٢٠ ألفاً لفتح القسطنطينية في دولة أخيه سليمان، ولاه أخوه يزيد بن عبدالملك إمرة العراقيين ثم أرمينية، وغزا الترك والسند سنة ١٠٩هـ، ومات بالشام سنة ١٢٠هـ .(الأعلام للزركلي ج٧ ص ٢٢٤ بزيادة وتصرف).

– الأرقام لم يقع منها شئ عند فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م.
– من العجيب أن غفران الذنوب عند المخالفين في كل الكبائر أمره من أسهل السهل إلا في فتح القسطنطينية فأمره يختلف)[٤٨٢].

إذن أمامنا عدة أشياء نخرج بها من هذه الروايات في فتح القسطنطينية:

- ارتبطت بعض الروايات الخاصة بفتح القسطنطينية بشخصيات من الماضي، خاصة من رجالات الدولة الأموية كمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد.
- بعض روايات فتح القسطنطينية كانت مفتوحة، لم تربطها بشخصيات من الماضي ولا شخصيات من آخر الزمان.
- فتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣م في عهد السلطان العثماني محمد الفاتح، ولم يظهر الدجال "ولم يعلق الناس سيوفهم على الزيتون" ولم يصرخ فيهم الشيطان".
- من بقايا المد المثيولوجي اليهودي أن فتح القسطنطينية سيكون على أيدي (بني إسحاق)... أي بني إسرائيل!.

الروايات السابقة لا يمكن قبولها بوضعيتها غير المطابقة للواقع التاريخي، وشبهة الصراع السياسي واضحة عليها، كما أن بقايا التسرب اليهودي لا يمكن إخفاء آثارها بسهولة، ومع قراءة هذه الروايات على ضوء الواقع التاريخي يمكن أن نخرج ببعض التفسيرات:

– التفسير الأول:

ارتبطت مسألة فتح القسطنطينية بمسألة سياسية غاية في الأهمية والخطورة، وهي أن مدينة القسطنطينية كانت عاصمة للدولة الرومانية الشرقية –كبرى الممالك

---

٤٨٢ تعليق، أفلح بن أحمد الخليلي.

والإمبراطوريات في العالم آنذاك–، والمسلمون منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم اصطدموا معهم اصطداماً مباشراً، وفي عهد الخلفاء الراشدين زحفت الجيوش لفتح الممالك الخاضعة لسلطان هذه الدولة، واستطاعت القوة الجديدة الناشئة الممثلة في الدولة الإسلامية إيقاع الهزائم المتكررة بهذه الإمبراطورية، واستخلاص كثير من أراضيها، التي ظلت تابعة لسلطانها مئات السنين.

وبعد أن آلت السلطة المركزية للدولة الأموية – وهي دولة قومية أكثر منها إسلامية– خلفت سياساتها الكثير من قوى المعارضة الداخلية التي اصطدمت معها مباشرة، سواء كان في ميادين القتال أو في ميادين الصراع الإعلامي بافتعال أو توظيف النصوص المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في إضفاء الشرعية على الانحرافات عن نهج الشريعة، وقد مارس معاوية بن أبي سفيان بنفسه هذا الأمر على مسمع ومرأى من الجميع[٤٨٣].

---

٤٨٣ من هذه المواقف:

– روى البخاري في صحيحه (٣٣٠٩) من طريق الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية – وهم عنده في وفد من قريش– أن عبدالله بن عمرو يحدث سيكون ملك من قحطان، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين).

– روى أحمد في المسند (١٦٩٧٤) عن عمير بن هاني قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وفيه: (...لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله). فقام مالك بن يخامر السكسكي فقال: يا أمير المؤمنين: سمعت معاذ بن جبل يقول: (وهم أهل الشام). فقال معاوية: ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم أهل الشام.

• فالظاهر أن روايات (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا) و(أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)، تمثل الطور الأول لظهور الروايات التي تشيد بإنجازات معاوية وابنه يزيد مصحوبة بثناء ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم في وجه الانتقادات العنيفة التي واجهها هذان الرمزان بسبب سياساتهما المخالفة للشريعة.

• وبدأت كذلك تظهر على السطح روايات تشير إلى أن فتح القسطنطينية لن يكون إلا إذا (رأيت الشام مائدة رجل واحد وأهل بيته)، وهذه الرواية ظهرت في عهد معاوية.

• واستمرت الدولة الأموية في رغبتها العارمة في فتح القسطنطينية، وجرت محاولات كثيرة لذلك في عهد الوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك، ومع استمرار هذه الحملات ولدت رواية (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)، ولا تنسى الرواية أن تذكر أن القائد الأموي مسلمة بن عبدالملك الذي سأل راوي الحديث وهو بشر الغنوي عن الحديث فيحدثه به، فيعزم مسلمة بسبب ذلك على فتح القسطنطينية -كما تصوره لنا الرواية-.

• ولما جاءت مرحلة العجز أمام الصمود العنيف لهذه المدينة أمام كافة المحاولات لفتحها، جاءت مرحلة ترحيل فتح القسطنطينية إلى آخر الزمان مع ظهور ما يسمى بالدجال. وبالتالي تعفى الدولة الأموية وتخلي سبيلها من فتح القسطنطينية أمام الجماهير المسلمة، التي اندفعت بدافع الإيمان نحو الفتوح ونشر الإسلام ومقاومة القوى التي تتربص بالمسلمين الدوائر، رغم عدم رضاها عن السياسات الجائرة لهذه الدولة.

• والعجيب أن كل هذه المراحل التاريخية التي مرت بها هذه الروايات وجدت طريقها إلى عالم التدوين في العصر العباسي، والذي شهد هو الآخر سكوتاً عن مسألة

القسطنطينية، وكأن السلطات العباسية أرادت هي الأخرى أن تخلي مسئوليتها من الصدام مع الدولة البيزنطية بفتح عاصمتها المنيعة، ولذا فقد تسربت تلك الروايات في هذا العصر، ووجدت طريقها إلى عقول الجماهير، بل إنها رسخت في أذهانها إلى يومنا هذا.

- التفسير الثاني:

- وهو تفسير يختص بمسألة فتح (بني إسحاق) للقسطنطينية، وكما تذكر **الرواية رقم (٤)**: (لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق).
- فمن المعلوم أن مسلمة أهل الكتاب ككعب الأحبار ووهب بن منبه قد أكثروا من الروايات التي ينقلونها عن كتبهم السابقة، وبفعل عامل الانبهار بهذه المثيولوجيا التي مثلت نوعاً من الإبهار الديني، بما تحويه من قصص وأساطير سرت في الناس، وبفعل العامل الزمني بمختلف محاوره وصلت إلينا على أنها نصوص منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
- فمثلاً: مثيولوجيات كعب وغيره عن أشراط الساعة من ظهور الدجال وعودة المسيح عليه السلام، — والتي وصلتنا كثيراً من طريق أبي هريرة، الذي أكثر من الرواية عن كعب—، استغلت في مرحلة لاحقة لترحيل مسألة فتح القسطنطينية إلى آخر الزمان إخلاء للطرف وإيجاداً للمبرر للتوقف عن محاولات فتحها —بعد المحاولات الفاشلة الكثيرة—، والتفرغ كذلك للجبهة الداخلية التي تشكل خطورة لا يستهان بها على أمن الدولة.

● بل إن هناك الكثير من المرويات عن كعب الأحبار وغيره من مسلمة أهل الكتاب في فتح القسطنطينية نراها الأصل الأول الذي تولدت عنه تلك الروايات التي نسبت من بعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم منها:

١ . عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن يزيد بن شريح عن كعب قال: (إذا أراد الله أن يطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب)، وعن معاوية عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن يزيد بن شريح عن كعب قال: (تفتح رومية ويبعث قبل القسطنطينية)[٤٨٤].

٢ . عن وهب بن منبه قال: (الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة، فإذا كانت الملحمة الكبرى فتحت القسطنطينية على يد رجل من بني هاشم)[٤٨٥].

٣ . عن كعب الأحبار قال: (الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة، والكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة) قال: (ولا يخرج الدجال حتى تفتح القسطنطينية)[٤٨٦].

ولا ينسى كعب الأحبار أن يضمن أخبار القسطنطينية اللغة التوراتية المحرفة القائمة على البذاءة والحقد والتعصب الأعمى فيقول: (إن القسطنطينية شمتت بخراب بيت المقدس فتعززت وتجبرت؛ فدعيت العاتية المستكبرة، فقالت: إن كان عرش الله بنى على الماء فقد بنيت على الماء، فأوعدها الله بعذاب قبل يوم القيامة، وقال لأنزعن

---

٤٨٤ التاريخ الكبير ج ٨ ص٣٤١ ، محمد بن إسماعيل البخاري.

٤٨٥ السنن الواردة في الفتن (٤٥٦).

٤٨٦ السنن الواردة في الفتن (٤٥٤).

حليك وحريرك وخميرك ولأتركنك لا يصرخ ديكك ولا يقوم أحد إلى جدار من جدرك، ولاأجعل لك عامراً إلا الثعالب، ولا نباتاً إلا الحجارة والينبوت، ولا يحول بينك وبين السماء شيء، ولأتركن عليك نيراناً ثلاثاً من السماء: ناراً من زفت وناراً من قطران وناراً من نفط، ولأتركنك جدعاء قرعاء، وليبلغني صوتك وأنا في السماء، فإني طالما أشرك بي فيك، وليفتر عن فيك جوار ما كدن يرين الشمس من حسنهن)، قال كعب: (فلا يعجز من بلغ ذلك منكم أن يمشي إلى لاطىء ملكهم، فإنه يجد خيلاً وبقراً من نحاس يجري على رؤسها الماء، ولتقسمن كنوزها بالأترسة وقطعاً بالفؤوس، فإنكم على ذلك منه حتى تحلكم النار التي أوعدها الله، فتحملون ما استطعتم من كنوزها فتقتسمونها بالفرقدونة، ثم يأتيكم آت أن الدجال قد خرج فترفضون ما في أيديكم، ومن رفض منكم فإذا بلغتم الشام وجدتم ذلك باطلاً، إنما هي نفخة من كذب لا يدخل الدجال بعدها إلا بسبع سنين، يمكث ستاً ويخرج في السابعة تتعلق به حية الى جانب ساحل البحر)[٤٨٧].

وهذه اللغة التوراتية تكاد تكون عينها رواية أبي هريرة عن فتح القسطنطينية بكافة تفاصيلها، ورغم ذلك علق أبو نعيم الأصبهاني على الرواية بقوله: (بقي لكعب الأحبار من الأخبار في العظات والآيات ما فيه معتبر لذوي الألباب والهيئات)[٤٨٨].

---

٤٨٧ حلية الأولياء ج٦ ص٤٥، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني. وقارن ذلك بما ورد في سفر الرؤيا الإصحاح السابع عشر في الحديث عن بابل (=العراق): (المرأة كانت متسربلة بأرجوان وقرمز ومتحلية بذهب وحجارة كريمة ولؤلؤ ومعها كاس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها وعلى جبهتها اسم مكتوب. سرٌّ. بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الارض).

٤٨٨ المرجع السابق ج٦ ص ٤٥.

لكن يبدو أن عملية التنقيح هذه لم تتم كما ينبغي، لذا بقيت قضية اليهود (بني إسحاق) فيها ظاهرة واضحة، حيرت معها الشراح وكتاب الحديث، الذين سلكوا متاهات شتى لحل هذه المعضلة في الرواية دون أن يفلحوا في تقديم تفسير مقنع.

• ولا مخرج لهذه الرواية من تفسير سوى هذا التفسير، اللهم إلا إذا أردنا أن نقدم للعالم أن بني إسحاق (=اليهود) جاءت فيهم بشارة النبي صلى الله عليه وسلم أنهم سوف يفتحون القسطنطينية (=استنبول) الحاضرة الإسلامية في آخر الزمان!.

- التفسير الثالث:

• هذا التفسير يختص بالرواية رقم (٣) عند أحمد وغيره، والتي فيها (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش).

هذه الرواية -كما قلنا سابقاً- رواية مفتوحة عن فتح القسطنطينية في أي زمان، وبسبب هذه المدة المفتوحة حمل الكثيرون هذه الرواية على فتح العثمانيين للقسطنطينية في عهد السلطان العثماني محمد الفاتح عام ١٤٥٣م، ولكن هذا التفسير لا يستقيم لأمور كثيرة منها:

١. شبهة الصراع السياسي أيام محاولات فتح القسطنطينية، لذا تظهر نفس الرواية الاهتمام البالغ للقائد الأموي مسلمة بن عبدالملك بهذه الرواية المبشرة بفتح القسطنطينية، وأنها كانت دافعاً له لفتحها. مع العلم أن واقع هؤلاء الأمويين كان بخلاف ما تصوره لنا هذه الروايات، وكذا فإن الأمر ليس بيد مسلمة حتى يقرر ذلك بمفرده كما توهم بذلك الرواية، بل بيد إخوته من الملوك والأمراء، وما هو إلا قائد عسكري عليه تنفيذ الأوامر وطاعتها.

٢ . تصطدم هذه الرواية المفتوحة، مع روايات فتح القسطنطينية في آخر الزمان مع ظهور ما يسمى بالدجال وعودة السيد المسيح عليه السلام، ولذا فإن حملها على محمد الفاتح يجعلنا نشكك أكثر وأكثر في مسائل ظهور ما يسمى بالدجال وعودة السيد المسيح عليه السلام، ومع ظهور هذا الإشكال، افترض المدافعون عن هذه الروايات افتراضات عدة أهمها:

أن ذلك الفتح كان الفتح الأول، وسيعقبه فتح آخر في آخر الزمان، ويؤيدون نظريتهم تلك بأن القسطنطينية الحالية واقعة تحت حكم علماني، وستفتح مرة أخرى في آخر الزمان.

لكن مع أناقة هذا الافتراض، إلا أنه غير مسلم به لأمور، أهمها أنه يتنافى مع روايات أخرى تؤكد أنه فتح واحد للقسطنطينية، فعند الدارمي (٤٨٦) والحاكم في المستدرك (٨٦٦٢) وأحمد (٦٦٤٥) وغيرهم من طريق عبدالله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب إذ سئل أي المدينتين يفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بل مدينة هرقل تفتح أولاً).

● أما قضية وقوع القسطنطينية (=استنبول حالياً) تحت حكم علماني، وأنها ستفتح وتحرر بعد ذلك فكلام لا قيمة له، لأن الأغلبية الساحقة من العالم الإسلامي اليوم واقع تحت حكم علماني، فالواجب فتح كل هذه البلدان والدول لا القسطنطينية وحدها، أضف إلى ذلك أن القسطنطينية (=استنبول حالياً) أصبحت ومنذ حكم العثمانيين لها حاضرة إسلامية يسكنها المسلمون، وكانت عاصمة للحكم العثماني، فلِمَ تفتح وهي بلد إسلامي تقطنه جموع مسلمة غفيرة؟!.

- التفسير الرابع:

• تصور لنا روايات فتح القسطنطينية في آخر الزمان صراعاً يدور بين الروم (=أهل القسطنطينية) وبين المسلمين، يظهر ذلك واضحاً في **الرواية رقم (٤) والرواية رقم** (٥).

• والإشكال الكبير في هذه الروايات، تصوير الروم عدواً تاريخيا للمسلمين يستمرون ويبقون إلى آخر الزمان، ويسكنون القسطنطينية، وهي عاصمتهم وحاضرتهم.

• والواقع التاريخي يكذب هذه الدعاوى، إذ إن الروم (الأرثوذكس) قد أصبحوا أثراً بعد عين، وزالت دولتهم، وأصبحت عاصمتهم حاضرة إسلامية تدعى (استنبول).

• واعترض على هذا التفسير بأن المقصود بالروم هم الأوروبيون أو الغربيون، وأن إطلاق الروم عليهم هو من باب المجاز.

لكن هذا الاعتراض مردود بأمور منها:

– أن العرب وغيرهم من الأمم آنذاك كانت تمايز بين الروم وغيرهم من الأمم الأوروبية كالجرمان والغال والقوط والسكسون، فإطلاق الروم لا يمكن إطلاقه إلا على المملكة الرومانية الباقية آنذاك، بعد القضاء على مملكة روما على أيدي القبائل الجرمانية.

– ومما يدل على ذلك أن المسلمين قبل عهد تدوين الروايات في العهد العباسي كانوا يسمون سكان المناطق المفتوحة في إسبانيا (=الأندلس) بالقوط، وعندما توغلوا في فرنسا سموا سكانها بالغال، ولم يطلقوا على الجميع اسم الروم استناداً إلى مثل هذه الروايات.

– أضف إلى ذلك أن المذهب الديني للروم كان مختلفاً عن بقية الأمم الأوروبية، فالروم كانوا من الأرثوذكس، وكانت الأغلبية (=بقية الأمم الأوروبية) تدين بالكاثوليكية، وكانت بينهم صراعات وعداوات كثيرة، بل إن من أسباب سقوط القسطنطينية خذلان الكاثوليك للروم الأرثوذكس لمطالبتهم إياهم بتغيير مذهبهم الديني مقابل النصرة ضد العثمانيين، لذا فالبون شاسع بين الروم وبين غيرهم من الجرمان والسكسون والغال وغيرهم.

• وعلى هذا فالتفسير المقبول لهذه الروايات أنها من بقايا الميثولوجيا الإسرائيلية التي بثها مسلمة أهل الكتاب، واستغلت استغلالاً سياسياً[٤٨٩] لترحيل مسألة فتح

---

٤٨٩ الاستغلال السياسي لمرويات الفتن الملاحم من قبل السلطات الحاكمة آنذاك يعد واحداً من المداخل التي ولجت منها الروايات المشبعة بصراعات التاريخ إلى عالمنا، وأضرب على ذلك أمثلة منها:

– روى نعيم بن حماد في الفتن (١٤٧٦) عن ضمرة بن حبيب أن عبدالملك بن مروان كتب إلى أبي بحرية أنه بلغه أنك تحدث عن معاذ في الملحمة والقسطنطينية وخروج الدجال. فكتب إليه أبو بحرية أنه سمع معاذاً يقول: بين الملحمة وفتح القسطنطينية ست سنين ثم يخرج الدجال في السنة السابعة).

– روى الطيالسي (٢٢٤٨) وابن أبي شيبة (٣٥٩٧٠) وأحمد (٦٨٨١) ومسلم (٢٩٤١) وابن ماجه (٤٠٦٩) وغيرهم عن عمرو بن جرير قال: كنا عند عبدالله بن عمرو فجاء رجلان فقالا: آتيناك من عند مروان بن الحكم فسمعناه يقول: إن أول الآيات خروجاً الدجال، فقال عبدالله بن عمرو: كذب مروان، لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:...... وقال عبدالله بن عمرو: (وأنا أظن أولها طلوع الشمس من مغربها).

وفي رواية ابن أبي شيبة: (جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بن الحكم، فسمعوه يحدث عن الآيات، أن أولها خروج الدجال، فانصرف النفر إلى عبدالله بن عمرو فحدثوه بالذي سمعوه من مروان بن الحكم في الآيات أن أولها خروج الدجال. فقال عبدالله: لم يقل مروان شيئاً، قد حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، أو خروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً. ثم قال عبدالله –وكان يقرأ الكتب–: وأظن أولها ....الخ. (معجم أحاديث الإمام المهدي ج٢ ص٢٠٧).

القسطنطينية إلى آخر الزمان عندما عجزت الآلة الحربية الأموية عن دك حصون القسطنطينية المنيعة طوال أكثر من تسع وأربعين سنة، فجاء هذا الترحيل من أجل تبرير الفشل وإخلاء للطرف أمام الشعوب في مقاومة هذه الأنظمة المعادية والمتربصة بالمسلمين الدوائر.

القسطنطينية في روايات المعارضة

لم يخل الجو للأمويين تماماً بعد استيلائهم على مقاليد الحكم، إذ إن حركات المعارضة رفعت السيف في وجههم، واشتبكت معهم في صراع عنيف من أجل القضاء على هيمنتهم المطلقة.

ولاقت حركات المعارضة السياسية تضييقاً على نشاطها من قبل الأمويين، وواجهت سلسلة من الانتكاسات ومن هذه الحركات المعارضة للهيمنة الأموية الحركة الموالية لآل البيت العلوي والتي عرفت تاريخياً باسم الشيعة، التي كانت في بدئها تؤمن بالأحقية السياسية لذرية علي بن أبي طالب في الخلافة الكبرى، وهذه الحركة واجهت في بدايتها العسكرية والسياسية سلسلة من الإخفاقات والهزائم، التي كان لها أبعد الأثر في انزوائها إلى ما يسمى بإمامة الظل، واتجاه منظريها من آل علي بن أبي طالب

- روى أحمد في المسند (١٨٩٧٧) من طريق أنس بن مالك، والحاكم في المستدرك (٨٣٠٠) والطبراني في الكبير (١٢١٦) والبخاري في التاريخ الكبير (١٧٦٠) عن عبدالله بن بشر الغنوي عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش). قال فدعاني مسلمة بن عبدالملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية.

إلى التنظير السياسي والعقدي، دون الاصطدام المباشر مع السلطات الأموية، مما أعطاها نظرية متكاملة في قضية الخلافة إلى نهاية القرن الثاني الهجري.

وكان من أبرز أعمدة نظرية الإمامة عند الاتجاه الفكري الموالي لآل البيت العلوي – بتطورها التاريخي– قضية المهدي المنتظر أو الغائب، الذي سوف يعود ويعيد الحق المسلوب لآل البيت العلوي، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً كما تنص على ذلك أدبيات هذه الفكرة.

ومع ظهور البصمة الأموية على قضية فتح القسطنطينية، لم تقف المعارضة الموالية لآل البيت العلوي مكتوفة الأيدي أمام هذا السيل المتدفق من الروايات الذي يخدم في نهاية الأمر السياسات الأموية، لذا ردت بروايات تنسب فتح القسطنطينية للمهدي المنتظر، وهذا ما يسميه المستشار عبدالجواد ياسين بالتنصيص السياسي.

لذا فقد حفلت كتب الحديث بالعديد من الروايات التي تبشر بفتح القسطنطينية على يد المهدي المنتظر (العلوي) عند بدء ثورته –كما تزعم بذلك تلك الروايات–.

ومن أهم هذه الروايات:

١. روى ابن ماجه (٢٧٧٩) والكناني في مصباح الزجاجة (٩٩٠) والقزويني في التدوين في أخبار قزوين من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطوله الله عز وجل حتى يملك رجل من أهل بيتي، يملك جبل الديلم والقسطنطينية). وفي بعض ألفاظ هذه الرواية: (... لبعث الله فيكم رجلا من عترتي يواطئ اسمه اسمي براق الجبين يفتح القسطنطينية وجبل الديلم).

٢. وروى نعيم بن حماد في الفتن (١٠٠٠) من طريق عبدالله بن مسعود موقوفاً عليه: (... فيقولون جئنا في طلب هذا الرجل الذي ينبغي أن تهدأ على يديه الفتن وتفتح له القسطنطينية).

٣. روى نعيم بن حماد في الفتن (١٠٠٩) عن علي بن أبي طالب موقوفاً عليه: (إذا بعث السفياني إلى المهدي جيشاً فخسف بهم بالبيداء، وبلغ ذلك أهل الشام، قالوا لخليفتهم قد خرج المهدي فبايعه وادخل في طاعته وإلا قتلناك، فيرسل إليه بالبيعة، ويسير المهدي حتى ينزل بيت المقدس، وتنقل إليه الخزائن، وتدخل العرب والعجم وأهل الحرب والروم وغيرهم في طاعته من غير قتال، حتى تبني المساجد بالقسطنطينية وما دونها، ويخرج ....الخ الرواية).

٤. وروى نعيم بن حماد في الفتن (٩٩٩) عن أبي جعفر محمد الباقر: (ثم يظهر المهدي بمكة عند العشاء ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وقميصه وسيفه وعلامات ونور وبيان، فإذا صلى العشاء نادى بأعلى صوته يقول: أذكركم الله أيها الناس ومقامكم بين يدي ربكم، فقد اتخذ الحجة وبعث الأنبياء وأنزل الكتاب وأمركم أن لا تشركوا به شيئاً، وأن تحافظوا على طاعته وطاعة رسوله، وأن تحيوا ما أحيا القرآن وتميتوا ما أمات، وتكونوا أعواناً على الهدى ووزراً على التقوى، فإن الدنيا قد دنا فناؤها وزوالها وآذنت بالوداع، فإني أدعوكم إلى الله وإلى رسوله والعمل بكتابه وإماتة الباطل وإحياء سنته، فيظهر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أهل بدر على غير ميعاد قرعا كقرع الخريف، رهبان بالليل أسد بالنهار، فيفتح الله للمهدي أرض الحجاز، ويستخرج من كان في السجن من بني هاشم، وتنزل الرايات السود الكوفة،

فيبعث بالبيعة إلى المهدي، ويبعث المهدي جنوده في الآفاق، ويميت الجور وأهله وتستقيم له البلدان، ويفتح الله على يديه القسطنطينية).

٥. وفي بحار الأنوار عن أبي جعفر محمد الباقر: (... فيقيم بها القائم عليه السلام ثلاث رايات: لواء إلى القسطنطينية يفتح الله له، ولواء إلى الصين فيفتح له، ولواء إلى جبال الديلم فيفتح له)[٤٩٠].

٦. وعند النعماني وفي دلائل الإمامة وبحار الأنوار عن أبي جعفر محمد الباقر قال: (إذا قام القائم بعث في أقاليم الأرض في كل إقليم رجلاً يقول: عهدك في كفك، فإذا ورد عليك أمر لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه فانظر إلى كفك، واعمل بما فيها. قال: ويبعث جنداً إلى القسطنطينية، فإذا بلغوا الخليج كتبوا على أقدامهم شيئاً ومشوا على الماء، فإذا نظر إليهم الروم يمشون على الماء، قالوا: هؤلاء أصحابه يمشون على الماء فكيف هو؟!. فعند ذلك يفتحون لهم أبواب المدينة، فيدخلونها، فيحكمون ما يشاؤون)[٤٩١].

هذه الروايات تمثل الوجه الآخر لقضية فتح القسطنطينية، فالمعارضة هنا تقول كلمتها في فتح القسطنطينية، وتشارك الحكومة المركزية الأموية في ترحيل المسألة إلى آخر الزمان، ممثلة في شخصية تظهر تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

وهذه الشخصية تنتمي إلى أدبيات المعارضة الشيعية التي تؤصل الحق الإلهي لآل البيت العلوي، وهذا الحق يمتد إلى آخر الزمان في شخصية المهدي المنتظر الذي يرجع الأمور إلى نصابها، ومن ضمنها فتح القسطنطينية، التي استعصت على الأمويين.

---

٤٩٠ معجم أحاديث الإمام المهدي ج٣ ص ٣١٦.

٤٩١ معجم أحاديث الإمام المهدي ج٣ص ٣١٧.

وقبل أن نجيب على أي تساؤل يدور في أذهاننا حول قضية ترحيل فتح القسطنطينية إلى آخر الزمان، يجدر بنا أن نلقي نظرة على روايات المعارضة.

• السمة البارزة على روايات المعارضة في قضية فتح القسطنطينية، أنها لم ترد كثيراً في الكتب السنية المشهورة كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبي داود، وإنما وردت في الكتب التي لا تحظى بتلك العناية الإسنادية.

• أغلبها وارد في الكتب الشيعية من الطرق المعروفة لديهم عن آل البيت العلوي.

• لم تحظ هذه الروايات بخدمات إسنادية قوية كتلك التي وردت لصالح السلطة المركزية، وهذا يعود إلى قضايا فنية في أغلب الأحيان، إذ إن المعارضة الشيعية لديها حضور بارز في الروايات السنية، وخاصة فيما يتعلق بقضايا الحق الإلهي لآل البيت العلوي.

• لا تختلف هذه الروايات في بنيتها وتركيبها عن الروايات الأخرى في فتح القسطنطينية في آخر الزمان، سوى في بعض التفاصيل المتعلقة بهوية الفاتح وانتمائه السياسي.

• الطابع المثيولوجي حاضر بقوة في هذه الروايات، شأنها شأن الكثير من روايات الفتن والملاحم، في الرواية (٤) يعود أهل بدر إلى الحياة من جديد لنصرة المهدي!.

• مفردات عصر التدوين واضحة كل الوضوح على هذه الروايات شأن أغلب روايات الفتن والملاحم، مثلاً في الرواية (٤) يقوم المهدي بإخراج بني هاشم من سجنهم في آخر الزمان... لا تعليق.

• وواضح كل الوضوح أثر الصراع السياسي على هذا النمط من الروايات، ففي الوقت الذي تحاول السلطة جاهدة أن تستفيد من صناعة روايات القسطنطينية، تحاول

المعارضة هي أيضاً بدورها أن تستفيد من هذه الحادثة الزمنية لصالح بطلها الأسطوري (= المهدي المنتظر).

لذا لم يسع المعلقون على معجم أحاديث الإمام المهدي سوى أن يعترفوا ببعض هذه الحقائق –ولو على مضض– فمما قالوه:

(وهذا الحديث أيضاً من الأحاديث المتأثرة بالصراع الذي كان لمدة طويلة بين المسلمين والروم الشرقيين، ومضافا إلى عدم إسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون موضوعاً، ولكن كما ذكرنا يدل على أنه كان في أذهان الرواة الربط بين قتال الروم ومسألة المهدي والدجال)[٤٩٢].

وقالوا في موضع آخر: (يظهر أن هذا الحديث يتعلق بفتح القسطنطينية الذي كان يطمح إليه المسلمون حتى تم قبل خمسة قرون، وقد أوردناه وأمثاله لأن فيه ذكر نزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال، وإلا فأمره ظاهر أنه من الموضوعات من تأثير الصراع بين المسلمين والروم البيزنطيين)[٤٩٣].

ويرى أحمد الكاتب أن الروايات التي فيها (أن المهدي سيفتح القسطنطينية التي استعصت على المسلمين قروناً طويلة، وأنه سيفتح الديلم والسند والهند وكابل والخزر)[٤٩٤]؛ لا يمكن قبولها لأن (كل هذه العلائم أو المهمات قد حدثت، ولم يظهر المهدي الموعود، مما يدل على عدم صحة الروايات أو ارتباطها بأشخاص آخرين)[٤٩٥].

---

٤٩٢ معجم أحاديث الإمام المهدي ج١ص٣٧١.

٤٩٣ المرجع السابق ج١ص٣٦٩.

٤٩٤ تطور الفكر السياسي الشيعي ص ٢٥٤، أحمد الكاتب.

٤٩٥ المرجع السابق ص ٢٥٤.

القسطنطينية والقبائل

لم تخل الروايات في بعض كتب الحديث والرواية من ذكر فتح القسطنطينية، ونسبته إلى قبائل عربية بعينها، لتكتمل بذلك حلقات الصراع على فتح هذه المدينة بين السلطة والمعارضة الموالية لآل البيت العلوي– التي هي قومية قرشية– وقوميات أخرى غير قرشية.

ومن هذه الروايات:

١. روى نعيم بن حماد في الفتن (١٢٣٨) عن أرطأة: (على يدي ذلك الخليفة اليماني الذي تفتح القسطنطينية ورومية على يديه يخرج الدجال، وفي زمانه ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ....).

٢. روى نعيم بن حماد في الفتن (١١٣٧) عن كعب الأحبار: (ثم يلي بعد ذلك المضري العماني القحطاني يسير بسيرة أخيه المهدي[٤٩٦] وعلى يديه تفتح مدينة الروم).

---

٤٩٦ مع عدم وجود أي أصل قرآني يدعم قضية المهدي المنتظر، ومع وجود معارضة لدلالاتها مع الدلالات القرآنية – كما بينا– وقع القائلون بهذه النظرية التاريخية في مشكلة كبرى، فما كان منهم إلا القول بباطنية الآيات القرآنية، وهو ما نسميه بنظرية ملأ الفراغات. وهذه النظرية – عند أربابها– تحاول أن تفترض وجود فراغات في النص القرآني القطعي، فتحاول جاهدة أن تملأه بالروايات التي تنهال من كل حدب وصوب من ماكينات التصنيع والتعليب. وهذا هو بعينه ما حصل لقصص الأنبياء، التي أدخل في تفسيرها الإسرائيليات، والتي كان رواتها يحاولون بذلك سد فراغات وهمية افترضوها في النص القرآني، فكانت النتيجة أن طمرت الدلالات القرآنية تحت ركام تلك الإسرائيليات.

وهذه المشكلة ليست مقصورة على هذين البابين، بل المشكلة في بنية المدارس الأثرية التي لم تحسن التعامل مع الكتاب العزيز وأغرقت الأمة بطوفان جارف من المرويات التي طمرت الدلالات القرآنية وغيبتها عن واقع الحياة.
انظر على سبيل المثال كيفية تناول هذه النظرية (= نظرية ملأ الفراغات) وتطبيقاتها على قضية المهدي المنتظر.

٣. روى عبدالرزاق (٢٠٨١٦) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تذهب الليالي والأيام حتى يغزو العادي رومية، فيقفل إلى القسطنطينية فيرى أن قد فعل، ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس رجل من قحطان).

٤. روى نعيم بن حماد في الفتن (١١٩٠) عن كعب الأحبار: (يكون بعد المهدي خليفة من أهل اليمن من قحطان، أخو المهدي في دينه يعمل بعمله، وهو الذي يفتح مدينة الروم ويصيب غنائمها).

٥. روى نعيم بن حماد في الفتن (١٢٠٠) عن محمد بن الحنفية: (ينزل خليفة من بني هاشم بيت المقدس يملأ الأرض عدلاً، يبني بيت المقدس بناء لم يبن مثله، يملك أربعين سنة، ثم تكون هدنة الروم على يديه سبع سنين بقين من خلافته، ثم يغدرون به، ثم يجتمعون له بالعمق فيموت فيها غماً، ثم يلي رجل من بني هاشم، ثم تكون هزيمتهم وفتح

- قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً﴾.

عن عبدالله بن سنان قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال عليه السلام: (إمامهم الذي بين أظهرهم وهو قائم أهل زمانه). (الكافي: ج١ ص٥٣٦).

- قال تعالى: ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ .

- قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره﴾.

قال جعفر الصادق: (بالقائم من آل محمد عليهم السلام حتى إذا خرج يظهره الله على الدين كله حتى لا يعبد غير الله وهو قوله (يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً). (القمي ج٢ ٣٦٥).

- قال تعالى: ﴿والفجر وليال عشر﴾.

جابر بن يزيد الجعفي عن الصادق عليه السلام: قوله عز وجل: ﴿والفجر﴾ هو القائم عليه السلام. (تأويل الآيات ج٢ ص٧٩٢).

- قال تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾.

محمد بن زياد الأزدي قال: سألت سيدي موسى بن جعفر عليهما السلام: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ فقال عليه السلام: (النعمة الظاهرة الإمام الظاهر والباطنة الإمام الغائب). (كمال الدين ج٢ ص٣٦٨).

القسطنطينية على يديه، ثم يسير إلى رومية فيفتحها، ويستخرج كنوزها ومائدة سليمان بن داود عليهما السلام ثم يرجع إلى بيت المقدس فينزلها ويخرج الدجال في زمانه وينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيصلي خلفه....).

٦. روى أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان (١٨٩٥) ونعيم بن حماد في الفتن (٦١٦) وابن أبي شيبة (٣٣٨٠٥) عن مالك بن صحار الهمداني قال: غزونا بلنجر في خلافة عثمان فقال حذيفة بن اليمان: (لا تفتحوها قابلاً ولا تفتحوها في سلطان بني أمية ولا يفتح بلنجر وجبل الديلم والقسطنطينية إلا هاشمي، بهم فتح هذا الأمر وبهم ختم).

هذه الروايات كسابقاتها تعكس واقعاً مأساوياً كانت تعيشه الأمة، مأساة جعلت من نصوص تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد من أصحابه سلاحاً تتحارب به الفرق السياسية دونما أدنى خوف من الله تعالى، وكأنما غاب عن ذهنها أنها بذلك تدخل في دين الله ما ليس منه.

وبعد اكتمال حلقة السلطة والمعارضة في وضع الروايات تأييداً لاتجاهاتهم السياسية جاء دور القبلية العربية، والتي كانت معادية في بعض اتجاهاتها للسيطرة القرشية، والتي تمثلت في البيتين: الأموي والهاشمي بشقيه العباسي والعلوي.

وهذه الروايات تزيد من قناعاتنا بأن مسألة فتح القسطنطينية ما هي إلا نتاج التفاعل الزمني مع عالم الروايات، وما هو إلا تعبير عن طموحات وانتكاسات هذه القوى في تحقيق النصر على عاصمة من أقوى الدول في العالم آنذاك.

ومن الملاحظات على الروايات السابقة:

• أغلب هذه الروايات لم تحض بخدمات إسنادية قوية كسابقاتها، إذ إن أغلبها لم تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما نسبت إلى بعض التابعين وبعض من مسلمة أهل الكتاب ككعب الأحبار.

• هذه الروايات كسابقاتها من روايات الفتن والملاحم يغلب عليها الطابع المثيولوجي الأسطوري، وسيطرة مفردات وتراكيب عصر التدوين على لغتها.

• الرواية رقم (٦) واضحة كل الوضوح في أن المسألة سياسية بحتة، إذ إنها تنفي أن يفتح القسطنطينية أموي، إنما هي لبني هاشم الذي بهم بدأ هذا الأمر وبهم يختتم! وهذه الرواية مفتوحة تصلح للعلويين والعباسيين.

• لم تخل هذه الروايات من الطابع الإسرائيلي الممثل في الكتيبة الإعلامية الهائلة (=كعب الأحبار)، ولا تزال مرويات كعب الأحبار وتفاعلها مع السياسة محتاجة إلى دراسة مستقلة.

القسطنطينية في روايات المدرسة الجابرية

لم يرو فقهاء المدرسة الجابرية (=المدرسة الإباضية الأولى) أية رواية عن فتح القسطنطينية في مؤلفاتهم الحديثية التي وصلت إلينا، فلا نجد لها ذكراً في مسند الربيع ومدونة أبي غانم والديوان المعروض وآثار الربيع وغيرها من المصنفات، ويعلل ذلك بحرصهم على عدم تداول روايات شاعت وذاعت فيها المخالفات للدلالات القرآنية وللوقائع ولسنن الحياة، وهذه الروايات كما بينا تتحدث عن الأحداث المستقبلية وهي من أمور الغيب، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب من أمر الساعة قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:١٨٧–١٨٨ يبين الله تعالى أن علم الساعة مما استأثر به ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، و ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ أي لا يكشف الخفاء عنها إلا الله تعالى، وهي لا تأتي إلا بغتة (=فجأة)، ثم (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لسائليك عن الساعة أيان مرساها لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً)[٤٩٧]، ولو كنت أعلم الغيب أي (لو كنت أعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد لاستكثرت من الخير)[٤٩٨] وما مسني السوء.

هاتان الآيتان فيهما مقدمتان مترابطتان:

– سؤال الناس عن الساعة وقيامها وما يكون عندها (أيان مرساها).

– أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والنتيجة المستخلصة من هاتين المقدمتين:

أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم ما يكون من أمر الغيب من المستقبل، وهذا ينسحب على الروايات المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم التي تتعلق بأشراط الساعة المستقبلية.

---

٤٩٧ تفسير الطبري ج٩ ص١٤٢ .

٤٩٨ المرجع السابق ج٩ص ١٤٢ .

فترك هذه الروايات التي تضخمت إلى حد كبير في مجموعات الأحاديث الأخرى يدل على إهمالها وعدم العناية بها ؛ لا أنها فاتتهم ولم تصل إليهم، بل إن ذلك دليل يعتمد عليه في أنهم رفضوها ولم يعولوا عليها في بناء نظرتهم إلى المستقبل، وقد مارس هذا المنهج بعض المحدثين من بعد ، فالبخاري كان يتحاشى روايات بعينها في أبواب معينة لأجل أنها لم تصح لديه إما متناً أو سنداً ، فهو مثلاً لم يرو شيئاً في النهي عن لبس الحديد (وكأنه لم يثبت عنده شيء من ذلك على شرطه)[٤٩٩] ، وكذلك لم يرو شيئاً في مناقب وفضائل معاوية بن أبي سفيان ، وترجم له في صحيحه بقوله (باب ذكر معاوية رضي الله عنه)[٥٠٠] ، فالبخاري عبر (في هذه الترجمة بقوله ذكر ولم يقل فضيلة ولا منقبة لكون الفضيلة لا تؤخذ من حديث الباب؛ لأن ظاهر شهادة ابن عباس له بالفقه والصحبة دالة على الفضل الكثير ، وقد صنف ابن أبي عاصم جزءاً في مناقبه، وكذلك أبو عمر غلام ثعلب وأبو بكر النقاش، وأورد ابن الجوزي في الموضوعات بعض الأحاديث التي ذكروها ثم ساق عن إسحاق بن راهويه أنه قال: "لم يصح في فضائل معاوية شيء" ، فهذه النكتة في عدول البخاري عن التصريح بلفظ منقبة اعتماداً على قول شيخه)[٥٠١] .

مما سبق يتبين لنا أن قضية فتح القسطنطينية التي أخذت مساحة واسعة في عالم المرويات، ما هي إلا اجترار لأدبيات الصراعات السياسية، حيث تبين لنا :

١ . أن تلك الروايات لا يمكن قبولها لعدم مطابقتها للواقع التاريخي الثابت.

---

٤٩٩ فتح الباري ج١٠ ص٣٢٣ ، أحمد بن علي بن حجر.

٥٠٠ صحيح البخاري ج٣ ص١٣٧٣ .

٥٠١ فتح الباري ج٧ ص١٠٤ ، أحمد بن علي بن حجر.

٢ . شبهة الصراع السياسي بادية عليها ، وهذا أمر يثير الكثير من الشكوك حولها ، ويجعل أمر التعويل على أمر النظر إلى الزمن القادم على السنن الكونية التي وضعها الله سبحانه في هذا الوجود .

٣ . أن منهج التعامل مع هذا اللون من الروايات هو اختبار ثبوت الرواية بمقاييس المنهج النقدي الشامل الذي يتجاوز مجرد القضية الإسنادية ، إلى آفاق أوسع تقوم على محاكمة الرواية من متنها إلى القرآن الكريم والحقائق التاريخية الثابتة والسنن الكونية والاجتماعية .

٤ . الروايات الواردة في فتح القسطنطينية ارتبطت بالساعة وما يكون بين يديها ، وهذه قضية نرى أن القرآن حسمها في كون الساعة تأتي بغتة وأن علمها عند الله تعالى ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عند السؤال عن الساعة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ الأعراف:١٨٧ أن يجيب الناس ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:١٨٨ ، وهذه نتيجة حاسمة في أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم غيب الساعة وما يكون بين يديها ، وهذا اللون من الروايات افتئت على هذه الدلالات القرآنية فحق أن ينحى جانباً .

٢. دابة الأرض

خروج دابة من الأرض

ورد ذكر دابة من الأرض في كتاب الله تعالى :

﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

النمل: ٨٠–٨٣.

وإذا جئنا لنقرأ الآيات كما هي بعيداً عن إيحاء وضغط الروايات الواردة في الموضوع، فسنجد:

● أن الآيات الأولى تتحدث عن أولئك المعاندين، فـ(يقول إنك يا محمد لا تقدر أن تفهم الحق من طبع الله على قلبه فأماته؛ لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه ولا تسمع الصم الدعاء)[٥٠٢]، ثم يقول الله تعالى لنبيه ولأمته من بعده (وما أنت يا محمد بهاد من أعماه الله عن الهدى والرشاد، فجعل على بصره غشاوة أن يتبين سبيل الرشاد عن ضلالته التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد)[٥٠٣].

● ثم أتبع ذلك قوله ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ ومن الربط بين الآيات السابقة وهذه الآية أخذ بعض أهل العلم أن (خروج الدابة حين لا يأمر الناس بمعروف ولا ينهون عن منكر)[٥٠٤]، وأما معنى قول الله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ فخير ما يفسره كتاب

---

٥٠٢ تفسير الطبري ج ٢٠ ص١٢.

٥٠٣ المرجع السابق ج٢٠ ص ١٣.

٥٠٤ المرجع السابق ج٢٠ ص ١٣.

الله تعالى، فوقع القول أو حق القول بمعنى واحد، وتعنى إما وجوب العذاب أو الغضب ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يس:٧-٨

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء:١٦

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأعراف:١٣٤

فليس في كتاب الله تعالى ما يدل على أن خروج الدابة يكون من أشراط الساعة، إنما في كتاب الله تعالى أن خروج دابة من الأرض عند وقوع القول وهو إما وجوب العذاب أو الغضب، بل إن المعنى هكذا حتى في يوم الحساب في حال المكذبين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ الْقَوْلُ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ النمل:٨٣-٨٥ أي (ووجب السخط والغضب من الله على المكذبين بآياته بما ظلموا يعني بتكذيبهم بآيات)[٥٠٥].

ولكن ما هي هذه الدابة؟.

---

٥٠٥ المرجع السابق ج٢٠ ص١٨.

الدابة في اللغة (اسم لما دب من الحيوان مميزة وغير مميزة)[٥٠٦]، قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ النور:٤٥ (ولما كان لما يعقل ولما لا يعقل قيل فمنهم، ولو كان لما لا يعقل لقيل فمنها أو فمنهن)[٥٠٧]، فتطلق لفظة الدابة على الإنسان وغيره من الأنفس الدابة على الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ النحل:٦١

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ لقمان:١٠

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هود:٦.

والآن ماذا يكون المعنى الإجمالي لقول الله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ النمل:٨٢؟.

أولاً: كما قلنا إن الآية لا تدل من قريب ولا بعيد على أن ذلك أمر يحصل بين يدي الساعة، وإنما ذكرت ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾، ووقوع القول على الناس أمر حاصل في كل زمان ومكان بما كانوا يكسبون.

---

٥٠٦ لسان العرب ج ١ ص ٣٧٠.

٥٠٧ المرجع السابق ج١ ص ٣٧٠.

ثانياً: الدابة لا يمكن أن تحصر في الحيوان، بل هي شاملة لكل ما يدب على الأرض من الأنفس الحية، (والإنسان يمكن أن يكون دابة لأنه يدب على الأرض)[٥٠٨].

ثالثاً: دلت الآيات المحكمات في كتاب الله تعالى أن الساعة تأتي بغتة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام:٣١، فلا يمكن قبول تلك الروايات في الدابة التي تحدد وبشكل دقيق إلى حد كبير وقت قيام الساعة، مثل ما رواه الترمذي (٣٠٧٢) وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث إذا خرجن لم ﴿يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ الدجال والدابة وطلوع الشمس من المغرب أو من مغربها).

رابعاً: من خلال استقراء كتاب الله تعالى وهو الكتاب المسطور يتبين لنا أن الدواب غير العاقلة (=غير الإنسان) لا تتكلم لغة البشر، أما ما ورد من فهم سليمان عليه السلام لمنطق الطير والحيوانات فهو أمر يحتاج لبعض الإيضاح، فلو جئنا لقراءة سورة النمل مثلاً سنجد قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل:١٨ ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

---

٥٠٨ من أشراط الساعة، أحمد بن حمد الخليلي (محاضرة).

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النمل: ٢٠-٢٢ في هذه الآيات يتضح أن سليمان عليه السلام كان يتخاطب مع الحيوانات بوسيلة ما .

فهل كان ذلك عبارة عن تحدث الحيوانات بلغة البشر ، كما هو المشهد الذي تصوره لنا روايات الدابة التي سنتعرض لها لاحقاً؟ .

وهذا الاحتمال غير وارد على الإطلاق لعدة أسباب :

١ . لو تحدثت الحيوانات كالهدهد والنمل بلغة البشر لفهمها مع سليمان عليه السلام غيره من الناس، ولما كانت هناك ميزة لسليمان عليه السلام في ذلك.

٢ . أن آيات القرآن الكريم تتحدث بوضوح عن قول سليمان عليه السلام ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ النمل:١٦ ، فسليمان عليه السلام عُلِّمَ منطق ولغة التخاطب لدى هذه الكائنات لا أن هذه الكائنات تتحدث لغات البشر .

٣ . أن هذا الأمر بالنسبة إلى سليمان عليه السلام كان أحد مفردات المُلك الذي دعا الله تعالى أن يهبه إياه ولا يكون لأحد من بعده ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِيَ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ ص:٣٥-٣٨ .

كذلك نجد في كتاب الله تعالى وصف الحيوانات والطيور والحشرات وغيرها ، ولم نجد أي إشارة ولو بعيدة أنها تتكلم وتتحدث لغات الآدميين.

ومن خلال قراءة كتاب الله المنظور (=الكون) لم نجد في يوم من الأيام حيوانات تتكلم لغة الآدميين، وهذا الاستقراء الكوني الذي درجت عليه البشرية منذ نشأتها الأولى سنة من سنن الحياة التي أوجدها وسيرها وحفظها البارئ تبارك وتعالى، وقد أمرنا الله تعالى أن نسير في الأرض ونكتشف هذه السنن والعلاقات التي تربط بين الأسباب والمسببات في دائرة الوجود الإنساني بشقيها: الطبيعية والاجتماعية، قال الله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنشِىءُ النّشْأَةَ الاَخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ العنكبوت:٢٠

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ﴾ آل عمران:١٣٧

فعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبّةً مّنَ الأرْضِ تُكَلّمُهُمْ أَنّ النّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ النمل:٨٢

- أن وقوع القول هو وقوع الغضب على الناس بسبب تغييرهم وتبديلهم ونسيانهم لأوامر ربهم، فيخرج الله تعالى مما يدب على الأرض من الأنفس الحية – وهي من بني الإنسان كما أسلفنا – من يُذكر الناس ويعيدهم إلى جادة الصواب ويحذرهم من خطورة ما هم متلبسون به، وفيه كذلك إلزام لهم بالحجة وتذكير لهم بآيات الله من حولهم، وهذا هو الذي يتناسب مع سياقات الآيات قبل وبعد ﴿إِنّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَىَ وَلاَ تُسْمِعُ الصّمّ الدّعَآءَ إِذَا وَلّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَادِى الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ

دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ النمل: ٨٠-٨٣.

مع الدابة في عالم الرواية

وردت في مسألة ظهور دابة من الأرض روايات كثيرة تفردت بها مجموعات الأحاديث لدى مدرسة أهل الحديث، أهمها:

١. روى مسلم (٢٩٠١) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: (ما تذاكرون؟) قالوا: نذكر الساعة. قال: (إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم).

قال أبو عيسى الترمذي: (وفي الباب عن علي وأبي هريرة وأم سلمة وصفية بنت حيي وهذا حديث حسن صحيح)[٥٠٩].

٢. وروى الترمذي (٣٠٧٢) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث إذا خرجن لم ﴿ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من المغرب أو من مغربها).

---

٥٠٩ سنن الترمذي ج ٤ ص٤٧٧ .

دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ النمل: ٨٠-٨٣.

مع الدابة في عالم الرواية

وردت في مسألة ظهور دابة من الأرض روايات كثيرة تفردت بها مجموعات الأحاديث لدى مدرسة أهل الحديث، أهمها:

١. روى مسلم (٢٩٠١) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: (ما تذاكرون؟) قالوا: نذكر الساعة. قال: (إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم).

قال أبو عيسى الترمذي: (وفي الباب عن علي وأبي هريرة وأم سلمة وصفية بنت حيي وهذا حديث حسن صحيح)[٥٠٩].

٢. وروى الترمذي (٣٠٧٢) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث إذا خرجن لم ﴿ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من المغرب أو من مغربها).

---

٥٠٩ سنن الترمذي ج ٤ ص٤٧٧ .

٣ . روى الطيالسي (٢٥٦٤) والحاكم في المستدرك (٨٤٩٤) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تخرج دابة الأرض معها عصى موسى وخاتم سليمان، تخطم أنف الكافر بالعصا وتجلو وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الحق يعرف المؤمن من الكافر).

٤ . روى الطيالسي (١٠٦٩) والحاكم في المستدرك (٨٤٩٠) عن أبي سريحة الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر، تخرج أول خرجة بأقصى اليمن، فيفشو ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة، ثم يمكث زماناً طويلاً بعد ذلك، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فينشر ذكرها في أهل البادية، وينشر ذكرها بمكة ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وأحبها إلى الله وأكرمها على الله تعالى المسجد الحرام؛ لم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد ترغو بين الركن والمقام، فيرفض الناس عنها شتى ومعاً ويثبت لها عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض عن رأسها التراب فبدت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: أي فلان الآن تصلي، فيلتفت إليها فتسمه في وجهه، ثم تذهب فيجاور الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال، يعرف المؤمن الكافر حتى أن الكافر يقول يا مؤمن أقضني حقي، ويقول المؤمن يا كافر أقضني حقي).

٥ . روى ابن أبي حاتم (١٦٥٩٥) عن النزال بن سبرة قال: قيل لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه إن ناساً يزعمون إنك دابة الارض. فقال علي: (والله إن لدابة الارض

ريشاً وزغباً ومالي ريش ولا زغب، وإن لها لحافراً ومالي من حافر). وروى نعيم بن حماد في الفتن (٧٠٠) عن قتادة عن ابن عباس قال: (هي دابة ذات زغب وريش لها أربع قوائم، تخرج من أودية تهامة).

ومن الملاحظات على هذه الروايات:

- أنها تحاول ترحيل مسألة ظهور دابة من الأرض إلى آخر الزمان قرب قيام الساعة، بينما لا يوجد في الآية القرآنية ما يدل على ذلك، بل الآية تتحدث عن ظهور دابة من الأرض عند وقوع القول، وقد قلنا إن وقوع القول على الناس أمر حاصل في كل زمان ومكان بما كانوا يكسبون.
- هذه الروايات تتحدث عن دابة معلومة معروفة اسمها (دابة الأرض) ذات زغب وريش، بينما الآية تتحدث عن دابة من الأرض تظهر ﴿إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي كلما وقع القول أخرجنا لهم دابة من الأنفس الحية تذكرهم بالله وآياته التي تناساها الناس وغفلوا عنها.
- هذه الروايات تخالف دلالات قرآنية عديدة منها:

– أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم أمر الغيب مما يتعلق بأمر الساعة، وقد شرحنا هذا بالتفصيل في الفصول السابقة.

– أن الساعة تأتي بغتة، وهذه الروايات تحدد لنا وبدرجة عالية من الدقة وقت قيام الساعة.

- ويظهر في الرواية كذلك التعبير عن آخر الزمان بمفردات عصر التدوين، فالدابة يفشو ذكرها بالبادية وتنفض التراب عن رأسها، في حين أن (المناطق القريبة من مكة

أصبحت حواضر وليست بادية)[٥١٠]، وبالمناسبة أيضاً (لا يوجد حالياً تراب بين الركن والمقام حتى تنفضه بسبب رصف الصحن بالرخام)[٥١١].

- الجانب المثيولوجي الأسطوري حاضر بقوة في هذه الروايات الحافلة بالمطاردات المثيرة بين الناس وهذه الدابة ذات الزغب والريش، حيث تحاول أن تسم الناس بخاتمها "حتى أن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: أي فلان الآن تصلي. فيلتفت إليها فتسمه في وجهه"، وبسبب هذه اللغة الموغلة في الأسطورية رأى بعض العلماء المحققين أن (هذه الروايات عند تأملها لا تخلو من اللبس من خلال التأثير الإسرائيلي على رواتها، فقد جاء فيها أن الدابة تحمل عصا موسى وخاتم سليمان وأنها تطبع المؤمن بعصا موسى وتختم على الكافر بخاتم سليمان، هذه الروايات تشم منها الرائحة الإسرائيلية فلا يمكن أن يعول عليها)[٥١٢].

وابن كثير اعترف أن بعض رواياتها لا تخلو من التأثير الإسرائيلي، فقد قال عن الرواية التي رواها (عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً ينادي ويجهر إلهي مرني أن أسجد لمن شئت. قال: فيجتمع إليه زبانيته فيقولون كلهم: ما هذا التضرع؟ فيقول: إنما سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم وهذا الوقت المعلوم. قال: ثم تخرج دابة الأرض من صدع في الصفا، قال: فأول خطوة تضعها بأنطاكيا، فتأتي إبليس فتلطمه"

---

٥١٠ تعليق، مؤمن الحارثي.

٥١١ تعليق، مؤمن الحارثي.

٥١٢ من أشراط الساعة، أحمد بن حمد الخليلي (محاضرة).

هذا حديث غريب جداً وسنده ضعيف، **ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك**، فأما رفعه فمنكر)[٥١٣].

وأما الذي أراه أن القضية برمتها قضية إسرائيلية، وهي ذاتها فكرة الوحش الواردة في سفر الرؤيا، الإصحاح الثالث عشر: (ثم رأيت وحشا آخر طالعاً من الأرض وكان له قرنان شبه خروف وكان يتكلم كتنين. ويعمل بكل سلطان الوحش الأول أمامه ويجعل الأرض والساكنين فيها يسجدون للوحش الأول الذي شفي جرحه المميت. ويصنع آيات عظيمة حتى أنه يجعل ناراً تنزل من السماء على الأرض قدام الناس.

ويضل الساكنين على الأرض بالآيات التي أعطي أن يصنعها أمام الوحش قائلاً للساكنين على الأرض أن يصنعوا صورة للوحش الذي كان به جرح السيف وعاش. وأعطي أن يعطي روحاً لصورة الوحش حتى تتكلم صورة الوحش ويجعل جميع الذين لا يسجدون لصورة الوحش يقتلون.

ويجعل الجميع الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم وأن لا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع إلا من له السمة أو اسم الوحش أو عدد اسمه).

وقد أغرق كعب الأحبار وغيره المسلمين كعادته بكثير من المثيولوجيات المتعلقة بداية الأرض، والتي تحولت من بعد إلى روايات على ألسن بعض الصحابة، ومن تلك الروايات:

---

٥١٣ تفسير ابن كثير ج٢ ص١٩٦. والزاملتين هو تعبير يراد به كتب أهل الكتاب التي أصابها عبدالله بن عمرو بن العاص بعد معركة اليرموك، انظر "النكت على ابن الصلاح" ج٢ ص ٥٣٢، أحمد بن علي بن حجر.

١ . روى نعيم بن حماد في الفتن (١٨٧١) عن كعب الأحبار قال: (تخرج الدابة والآيات بعد عيسى عليه السلام بسبعة أشهر).

٢ . روى نعيم بن حماد في الفتن (١٨٥٣) عن وهب بن منبه قال: (أول الآيات الروم، ثم الدجال، والثالثة يأجوج ومأجوج، والرابعة عيسى بن مريم، والخامسة الدخان، والسادسة الدابة).

● وقد قال الطاهر بن عاشور إنه قد رويت (في وصف هذه الدابة ووقت خروجها ومكانه أخبار مضطربة ضعيفة الأسانيد فانظرها في تفسير القرطبي وغيره، إذ لا طائل في جلبها ونقدها)[٥١٤].

● ويرى علامة عمان في القرن الثالث عشر الهجري ناصر بن أبي نبهان الخروصي أن هذه الروايات في الدابة لا تصح، لأنها تعارض ما جاء في كتاب الله تعالى من أن الساعة تأتي بغتة، فـ(خروج يأجوج ومأجوج والدابة جاء بهما القرآن، ويحتمل أن يكون المعنى المقصود هو على ظاهر اللفظ، ولكن معنى ظاهر اللفظ يخالفه قوله تعالى ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ الأعراف:١٨٧ والقرآن لا يخالف معنا بعضه بعضاً)[٥١٥]، لذا فقد رفض تفسير الآية المستند على الروايات الواردة في دابة الأرض، ورأى احتمال (أن يكون المعنى مقدراً بـ"لو" أخرجنا لهم دابة تذكرهم إذا حق عليهم القول بحكم الكفر عليهم وبهلاكهم لم ينفعهم ذلك أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون؛ إخبار من الله عنهم لا

٥١٤ التحرير والتنوير ج١٩ ص ٣١٠، محمد الطاهر بن عاشور.

٥١٥ قاموس الشريعة ج٦ ص ٣٧٢ (بتصرف بسيط)، جميل بن خميس السعدي.

إخبار عن كلام الدابة على هذا الوجه من التأويل إن صح والله أعلم بتأويل كتابه، وبالله التوفيق)[٥١٦].

وسواء اختلفنا أو اتفقنا مع ابن أبي نبهان في وجه تأويل الآية، إلا أننا نُكبر في هذا الرأي:

– اعتماده الرؤية القرآنية في محاكمة الروايات الواردة في الموضوع.

– اعتماد رؤية قرآنية تنأى بنفسها عن ظاهرة التجزئ والبتر، فـ(القرآن لا يخالف معنا بعضه بعضاً)[٥١٧].

٣. خروج يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم

ورد ذكر يأجوج ومأجوج في موضعين من كتاب الله عز وجل:

١. قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكّنّى فِيهِ رَبّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿٩٥﴾ آتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِىۤ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَاعُوۤاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مّن رّبّى فَإِذَا

٥١٦ المرجع السابق ج٦ ص ٣٧٢.

٥١٧ المرجع السابق ج٦ ص ٣٧٢.

جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ الكهف: ٩٤-١٠٠.

٢. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الأنبياء: ٩٥-٩٧.

- في الآيات من سورة الكهف يذكر الله سبحانه قصة الملك الصالح المؤمن ذي القرنين، والذي ﴿مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً﴾ الكهف:٨٤.
- وهذا الملك الصالح بعد تطوافه في المشرق والمغرب، وجد بين السدين (=موضع بالكرة الأرضية) قوماً لا يكادون يفقهون قولاً.
- وطلبوا من هذا الملك القوي أن يساعدهم في بناء ردم يقيهم شر جيرانهم يأجوج ومأجوج.
- ولكن الملك رفض عرضهم في أخذ مقابل مادي لبناء هذا السد، وقرر أن ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ وطلب منهم الاشتغال معه في بناء هذا السد.
- ثم بعد انتهاء البناء قال لهم: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً﴾.

فمما سبق يتبين الآتي:

١. أن يأجوج ومأجوج أقوام أرضيون طبيعيون، لا يختلفون عن بني البشر في شيء.

٢. ذكر القرآن الكريم أنهم (=يأجوج ومأجوج) لم يكونوا على وفاق مع جيرانهم، وكانوا مفسدين في الأرض.

٣. ومما يؤيد أن يأجوج ومأجوج أقل شأناً مما تصورهم الأدبيات المثيولوجية أن جيرانهم:

- ﴿كانوا لا يفقهون قولاً﴾ (=التخلف الثقافي والعجز عن التفاعل مع محيط الشعوب وثقافاتها).
- ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ (=وجود الموارد المالية لدى هؤلاء حتى يعطوها لملك مَلَك المشرق والمغرب.
- ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ (=عندهم الموارد البشرية القادرة على البناء).
- ﴿آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ (=هذا تعليم من ذي القرنين للقوم أصول الصناعة الحربية التي تختص بها الأمم المتقدمة دون المتخلفة، وهذا دال على أن هؤلاء القوم متخلفون في الصناعة).
- ورغم ذلك لم يستطع يأجوج ومأجوج استئصال هذه الأمة الضعيفة المتخلفة، وكان الردم بمثابة حاجز طبيعي يقيهم شر جيرانهم.

في الآيات من سورة الأنبياء:

الآيات التي سبقتها تحدثت عن قصص الأنبياء عبر التاريخ، وذكرت ما وقع لهم في دعوتهم لأقوامهم، وبينت عدداً من السنن الإلهية في هذا الكون، ثم انتقل الخطاب القرآني للحديث عن يأجوج ومأجوج وانفتاحهم على العالم بعد زوال سده، وهم يسرعون الخطى على هذه البسيطة باتجاه مزيد من القوة والرفعة.

ثم بعد ذلك ينتقل بنا الخطاب القرآني فجأة إلى تصوير مشاهد يوم القيامة والحساب وأهواله.

لم تذكر هذه الآيات يأجوج ومأجوج من الصفات سوى أنهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، وهي كناية عن النشاط والحركة، عكس جيرانهم الكسالى الذين ذكروا في سورة الكهف.

كيف نفهم قضية يأجوج ومأجوج؟

الذي يجب أن يرسخ في أذهاننا أن القرآن الكريم كتاب يتجاوز حدود المكان والزمان، لأنه الكتاب القائمة حجته إلى قيام الساعة، وهو الصالح لكل زمان ومكان ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة: ٧٧-٧٩ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

ولذا فتلاحظون أن القرآن الكريم لا يرتبط بعناصر زمانية تجعله محدود الدلالة في زمن معين، أو يرتبط بعناصر مكانية تجعله إقليمي النزعة. إن القرآن الكريم يوظف أحياناً هذه المفردات الزمانية والمكانية لإطلاق دفقات هائلة من الدلالات التي تهز ضمير البشرية وتوقظها من سباتها العميق.

فمثلاً هذه المفردة (=يأجوج ومأجوج) مفردة زمنية ذات إحداثيات مكانية معينة، كان من اللازم علينا نحن المسلمين أن نبحث في وضعيتها الزمانية والمكانية لاكتشاف الاكتناز من إيرادها ضمن السياق القرآني، كان علينا أن نعمل بتعاليم القرآن ونسير في الأرض ونبحث عن طبيعة هؤلاء القوم من خلال الكشف الجغرافي

والبحث الأنثروبولوجي، ونجيب عن أسئلة محيرة: أين يكمن سدهم هذا؟، وما هي الأرض التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾؟. كل هذا لا لأجل التسلية والتفكه، بل لأجل فهم معاني كتاب الله عز وجل.

ولكن بدلاً من ذلك، رحنا نجري وراء الخرافات والأساطير التي جاءتنا من أهل الكتاب في شأن يأجوج ومأجوج، عندها طرنا فرحاً وظننا أننا نحسن صنعاً.

إننا لم نجد أحداً – فيما نعلم – قام بدراسة وافية عن هذه القضية بهذا المنظور، في حين أن أمم الأرض قامت بكشوفاتها الجغرافية، التي مكنتها من اكتشاف مجاهل الأرض والسيطرة عليها، ونحن إلى الآن لم نقم بدراسة لفهم أعظم كتاب أنزل على البشرية، فما أتعسنا من أمة!.

على كل حال، والذي يظهر الآن أن الاكتناز يكمن في:

- الخطاب القرآني ينقل البشرية نقلة تلغي اعتبار الزمن، فقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ الكهف:٩٨–٩٩. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأنبياء:٩٦–٩٧ عبارة عن نقلة هائلة من عصر يأجوج ومأجوج إلى القيامة وأهوالها.

وهذا لأجل أن يستشعر الإنسان أن الساعة أقرب إليه من شراك نعله، وأنها لا تبعد عنه حتى ولو كان في عصر يأجوج ومأجوج، لأن الزمن لا اعتبار له: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج:٤٧. فـ(المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين

يجئ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض، هي تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب في سرعة واضطراب على طريقة القرآن الكريم في الاستعانة بمشاهدات البشر والترقي بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الأخروية)[٥١٨].

• وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ ... تعبير عن امتزاج و تداخل وانفتاح يأجوج ومأجوج مع غيرهم من بني البشر في زمن معين بعد زوال السد لا أكثر ولا أقل.

• وليس ذلك بمستنكر، فإن انتقال الخطاب القرآني من الزمان الماضي إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة وارد كثيراً في كتاب الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.[٥١٩] النحل:١

وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.[٥٢٠] القمر:١

• وأما عن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [٥٢١] فهو تعبير عن واقع زمني لا يرتبط بحال من الأحوال -كما يدل على ذلك السياق- بقرب قيام الساعة.

---

٥١٨ في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٣٩٨، سيد قطب.

٥١٩ التعبير عن أمر الله وهو بمعنى الساعة هنا -كما يدل على ذلك السياق-، فها هنا انتقل الخطاب القرآني بالسامع من حاضره الذي يعيش فيه أثناء تفاعله مع النص القرآني إلى لحظة قيام الساعة التي عبر عنها بصيغة الماضي، وكأن الساعة أمر ولى وانتهى وذلك لأنها لا تأتي إلا بغتة، فعلى الإنسان أن يكون دائم الاستعداد لها.

٥٢٠ جمع الخطاب القرآني هنا بين قرب الساعة وانشقاق القمر عند قيامها، وعبر عنهما بصيغة الماضي، وهو انتقال من الوضعية الزمنية للمخاطب إلى قيام الساعة وحصول أهوال القيامة.

• ويرى العلامة ناصر بن أبي نبهان الخروصي أن (خروج يأجوج ومأجوج والدابة فقد جاء بهما القرآن، ويحتمل أن يكون المعنى المقصود هو على ظاهر اللفظ، ولكن معنى ظاهر اللفظ يخالفه قوله تعالى ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ والقرآن لا يخالف معنا بعضه بعضاً، فعلى هذا يحتمل أن يكون المعنى على تقدير "لو" ، أي لو فتحنا عليهم يأجوج ومأجوج فهم من كل حدب ينسلون، فكان بقاء السد عليهم نعمة من الله تعالى لعباده المتقين، فيكون بقاء السد عليهم نعمة من الله تعالى لعباده المتقين ذكرهم به ليشكروه)[٥٢٢] .

يأجوج ومأجوج في الروايات

ما ارتبط بهذه القضية من مثيولوجيا جاء من قبل الرواية التي نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لها الدور الأكبر في ارتباط القضية بأشراط الساعة وما يكون من ملاحم وفتن عند قرب قيامها، ومن أهم هذه الروايات:

١) روى البخاري (٣١٦٨) ومسلم (٢٨٨٠) وغيرهما من طريق السيدة زينب بنت جحش (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نام عندها ثم استيقظ محمراً وجهه وهو

---

٥٢١ يأتي الوعد في كتاب الله لمعان منها:

- ما وعد الله به عباده في الدنيا ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مّفْعُولاً﴾

- يوم القيامة ومنها قوله تعالى: ﴿واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾.

٥٢٢ قاموس الشريعة ج٦ ص ٣٧٢، جميل بن خميس السعدي.

يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين إصبعيه).

٢) وفي البخاري (٤٩٨٧) ومسلم (٢٨٨١) من طريق أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد تسعين).

٣) روى أحمد (١٠٦٤٠) والترمذي (٣١٥٣) وابن ماجه (٤٠٨٠) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: اغدوا فستحفرون غداً إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم فيقتلهم بها. والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم ودمائهم).

٤) وفي حديث النواس بن سمعان عند مسلم (٢٩٣٧) وغيره بعد ذكر قتل عيسى عليه السلام لما يسمى بالدجال عند عودته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فبينما كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ابن مريم عليه السلام إني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان بقتالهم فحرز[٥٢٣] عبادي إلى الطور فيبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله

---

٥٢٣ حصنهم.

عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البُخت فيحملهم فيطرحهم حيث شاء الله تعالى).

٥) روى الطيالسي (٢٢٨٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولن يموت منهم رجل إلا ترك ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تأويل ومارس ومنسك).

مناقشة الروايات

- تتفق الروايات المذكورة في أن يأجوج ومأجوج أمة تتربص بالأمم الدوائر، وهم في شغل شاغل لأجل الخروج من السد الذي يحجزهم.
- ولهم دور كبير في صناعة الأحداث والملاحم عند قرب قيام الساعة متى ما حطموا السد الذي يحجزهم.
- صفاتهم مخالفة لطبيعة البشر، فهم من الكثرة بمكان بحيث إن الواحد منهم لا يموت إلا وقد خلف وراءه ألفاً من نسله، ويمرون على البحيرات فينشفونها، ولا يستطيع أحد أن يقف في طريقهم حتى الأنبياء والرسل!.
- ونتساءل الآن: هل الدلالات التي تقدمها هذه الروايات هي نفسها الدلالات القرآنية في سورتي الكهف والأنبياء أم هي تختلف تماماً عنها؟.

في سورتي الكهف والأنبياء تقدم الآيات وصفاً طبيعياً لهؤلاء القوم، بل إن فيها ما يشتم منه أنهم أضعف مما نتصور بكثير.

وليس في القرآن الكريم ما يدل على أنهم يظهرون على الناس قرب قيام الساعة، بل كما ذكرنا قبل هو إخبار من الله تعالى بنبئهم وتأريخهم ثم انتقال الخطاب إلى أهوال يوم القيامة، على عادة الخطاب القرآني الذي يختصر المسافة إلى يوم القيامة للتأثير على السامع والقذف في روعه بأن الساعة أقرب إليه مما يتصور ليكون دائماً على أهبة الاستعداد .

● وهذه الروايات تحدد وبدقة كبيرة جداً وقت حصول الساعة، فتكملة الرواية (٤) : (فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة تحت آباطهم فيقبض روح كل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير وعليهم تقوم). وهذه لا شك تعد مخالفة صريحة لكتاب الله عز وجل الذي ينص على أن الساعة لا تكون إلا بغتة، قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

ومع كل هذه المخالفات لهذه الروايات للدلالات القرآنية في شأن يأجوج ومأجوج، لا يمكن بحال من الأحوال قبولها والتعويل عليها . ومن خلال تتبع كتب أهل الكتاب تبين لنا أنها (=أي هذه الروايات) منقولة حرفياً من هناك . ففي سفر الرؤيا الإصحاح العشرين : (ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه، ويخرج ليضل الأمم في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر، **فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين والمدينة المحبوبة، فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم)**.

● فتلاحظون أنه لا فارق أبداً بين رواية سفر الرؤيا وبين هذه المرويات التي ينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

● ومن قبل في سفر (حزقيال) الإصحاح الثامن والثلاثين: (وكان إلي كلام الرب قائلاً يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه وقل هكذا قال السيد الرب: ها أنا ذا عليك يا جوج رئيس روش ماشك وتوبال. وأرجعك وأضع شكائم في فكيك وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم ممسكين السيوف فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة وجومر وكل جيوشه وبيت توجرمة من أقاصي الشمال مع كل جيوشه شعوباً كثيرة معك، استعد وهيئ لنفسك أنت وكل جماعاتك المتجمعة إليك فصرت لهم موقراً، بعد أيام كثيرة تفتقد. في السنين الأخيرة تأتي إلي الأرض المستردة من السيف المجموعة من شعوب كثيرة على جبال إسرائيل التي كانت دائمة خربة للذين أخرجوا من الشعوب وسكنوا آمنين كلهم).

إلى أن جاء في نفس الإصحاح: (هكذا قال السيد الرب: هل أنت هو الذي تكلمت عنه في الأيام القديمة عن يد عبيدي أنبياء إسرائيل الذين تنبأوا في تلك الأيام سنيناً أن أتي بك عليهم. ويكون في ذلك اليوم يوم مجيء **جوج على أرض إسرائيل، يقول السيد الرب أن غضبي يصعد في أنفي وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت أنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل، فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابات التي تدب على الأرض وكل الناس الذين على وجه الأرض، وتندك الجبال وتسقط المعاقل وتسقط كل الأسوار إلى الأرض).**

وفي نفس السفر الإصحاح التاسع والثلاثين: (وأنت يا ابن آدم تنبأ على جوج وقل. هكذا قال السيد الرب: ها أنا ذا عليك يا جوج رئيس روش ماشك وتوبال. وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال وآتي بك على جبال إسرائيل. وأضرب قوسك من يدك اليسرى وأسقط سهامك من يدك اليمنى. فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك. أبذلك مأكلاً للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل. وعلى وجه الحقل تسقط لأني تكلمت يقول السيد الرب: وأرسل ناراً على ماجوج وعلى الساكنين في الجزائر الآمنة فيعلمون أني أنا الرب).

وكعب الأحبار ووهب بن منبه وهما من أشهر من روى الإسرائيليات وقاما ببثها بين المسلمين كان لهما نصيب وافر في روايات يأجوج ومأجوج وملاحمهم عند قيام الساعة، وبالمناسبة هي ذاتها ما يروى عن الصحابة مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم!!:

١. روى الداني في السنن الواردة في الفتن (٥٠١) ونعيم بن حماد في الفتن (٧١٣) عن كعب الأحبار قال: (معاقل المسلمين ثلاثة، فمعاقلهم من الروم دمشق، ومعاقلهم من الدجال الأردن، ومعاقلهم من يأجوج ومأجوج الطور).

٢. روى الداني في السنن الواردة في الفتن (٦٧٨) ونعيم بن حماد في الفتن (١٦٦١) عن كعب الأحبار قال: (يمكث الناس بعد يأجوج ومأجوج في الرخاء والخصب والدعة عشر سنين، حتى إن الرجلين يحملان الرمانة الواحدة ويحملان بينهما العنقود الواحد من العنب فيمكثون على ذلك عشر سنين، ثم بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فلا تذر مؤمناً إلا قبضت روحه، ثم يبقى الناس بعد ذلك يتهارجون كما تتهارج الحمر في المروج، فيأتيهم أمر الله والساعة وهم على ذلك).

٣ . روى نعيم بن حماد في الفتن (١٦٦٢) عن وهب بن منبه قال: (الروم ثم الدجال ثم يأجوج ومأجوج ثم عيسى ثم الدخان).

٤ . روى الداني في السنن الواردة في الفتن (٦٧٩) عن كعب الأحبار قال: (إن يأجوج ومأجوج ينقرون كل يوم بمناقيرهم في السد فيسرعون فيه، فإذا أمسوا قالوا نرجع غداً فنفرغ منه، فيصبحون وقد عاد كما كان، فإذا أراد الله عز وجل خروجهم قذف على ألسن بعضهم الاستثناء، فقال نرجع غداً إن شاء الله فنفرغ منه، فيصبحون وهو كما تركوه فينقبونه ويخرجون على الناس، فلا يأتون على شيء إلا أفسدوه، فيمر أولهم على البحيرة ويشربون ماءها، ويمر أوسطهم فيلحسون طينها، ويمر آخرهم فيقولون قد كان ها هنا مرة ماء، فيقهرون الناس ويفر الناس منهم في البرية والجبال، فيقولون قد قهرنا أهل الأض فهلموا إلى أهل السماء، فيرمون نبالهم إلى السماء فترجع تقطر دماً، فيقولون قد فرغنا من أهل الأرض وأهل السماء، فيبعث الله عز وجل عليهم أضعف خلقه النغف دودة تأخذهم في رقابهم فتقتلهم).

وروى ابن جرير الطبري[٥٢٤] وابن أبي حاتم[٥٢٥] ونعيم بن حماد في الفتن (١٦٤١) عن كعب الأحبار قال: (إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا نحن غداً نفتح ونخرج، فيعيده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا نحن غدا نفتح ونخرج، فيعيده الله كما كان.

---

٥٢٤ تفسير الطبري ج١٧ ص٨٩.

٥٢٥ تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٩٧.

فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم في الثالثة فيقول نحن غداً نخرج إن شاء الله، فيحفرون من الغد فيجدونه كما تركوه فيحفرون، ثم يخرجون فتمر الزمرة الأولى منهم بالبحيرية الطبرية فيشربون ماءها، ثم الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم الزمرة الثالثة فيقولون قد كان هاهنا مرة ماء، ويفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء، قال ثم يرمون نشابهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون قد قتلنا أهل الأرض وأهل السماء، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم فيقول اللهم لا طاقة لنا بهم ولا يدين فاكفناهم بما شئت، فيسلط الله عليهم دواباً يقال لها النغف فتفرس رقابهم، ويبعث الله طيراً تأخذهم بمناقيرها فترميهم في البحر ويبعث الله عيناً يقال لها الحياة فتطهر الأرض وتنبتها حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن). قال كعب: والسكن أهل البيت.

ويمكن أن نستعمل عبارة البخاري عن حديث التربة في صحيح مسلم (وروى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"خلق الله التربة يوم السبت" وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح)[٥٢٦]، فنقول عن هذه الروايات (وهي عن سفر الرؤيا وكعب الأحبار ووهب بن منبه أصح).

ومن الجدير بالذكر أن بعض العلماء من المتقدمين والمتأخرين ذهبوا إلى أن يأجوج ومأجوج هم المغول الذين اجتاحوا العالم في القرن السابع الهجري ودمروا العديد من الحواضر الإسلامية[٥٢٧]، ولكن مع وافر احترامنا لهذا الرأي إلا أنه غير دقيق؛ لأن

---

٥٢٦ التاريخ الكبير ج١ ص٤١٣، محمد بن إسماعيل البخاري.

٥٢٧ في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٢٦٤، سيد قطب.

القائلين به يقرون بصحة الروايات الواردة في يأجوج ومأجوج، ولكن الحقائق التاريخية الثابتة تؤكد على أن أياً من تلك التفاصيل الدقيقة لم يقع، فلم ينشفوا بحيرة طبرية، ولم يحاصروا المسيح عليه السلام في الطور، ولم يموتوا بدابة النغف، بل الثابت تأريخياً أن كثيراً من ملوك هذا الشعب دخلوا في الإسلام وحكموا باسمه كمملكة الهند المغولية.

٤. الجساسة وابن صياد والدجال

وهي ثلاثية غاية في الغرابة تتداخل أحياناً وتفترق أحياناً أخرى؛ بحسب الروايات وما تشتمل عليه، وكلها تفترض وجود كائنات أسطورية لا وجود لها في الحياة قادمة من عالم المجهول تثير الرعب والفزع وتحدث أهوالاً كونية.

دعونا لا نستبق الأحداث، وتعالوا بنا نقرأ ما ورد في الموضوع من روايات:

الجساسة (الظهور الأول للدجال)

روى مسلم (٢٩٤٢) عن فاطمة بنت قيس قالت: (سمعت نداء المنادي منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر.

فقالوا: ويلك ما أنت؟

فقالت: أنا الجساسة.

قالوا: وما الجساسة؟

قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير؛ فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا وأشده وثاقاً مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد.

قلنا: ويلك ما أنت؟

قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟.

قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر.

فقلنا: ويلك ما أنت؟ .

فقالت: أنا الجساسة.

قلنا : وما الجساسة؟

قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق .

فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال : أخبروني عن نخل بيسان .

قلنا : عن أي شأنها تستخبر؟ .

قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ .

قلنا له : نعم .

قال : أما إنه يوشك أن لا تثمر .

قال : أخبروني عن بحيرة الطبرية .

قلنا : عن أي شأنها تستخبر؟ .

قال : هل فيها ماء؟ .

قالوا : هي كثيرة الماء .

قال : أما إن ماءها يوشك أن يذهب .

قال : أخبروني عن عين زغر؟

قالوا : عن أي شأنها تستخبر؟

قال : هل في العين ماء ، وهل يزرع أهلها بماء العين؟ .

قلنا له : نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها .

قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ .

قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب .

قال : أقاتله العرب؟ .

قلنا : نعم .

قال : كيف صنع بهم؟ .

فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه .

قال لهم : قد كان ذلك .

قلنا : نعم .

قال : أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني ، إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وطعن بمخصرته في المنبر هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة يعني المدينة ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ . فقال الناس : نعم ، فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو وأومأ بيده إلى المشرق .

قالت : فحفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

هذه الرواية الممعنة في الغرابة تصور لنا مغامرات رهيبة أشبه بحكايات السندباد ، في البدء كان هناك لقاء بين تميم الداري –وهو نصراني أسلم– وبين دابة اسمها الجساسة في جزيرة نائية ، وهذه الدابة دابة متكلمة كعادة روايات الفتن والملاحم التي تُسحَق فيها كل سنن الحياة ، ثم تمضي الرواية فتحدثنا عن لقاء آخر بينه وبين الدجال ، وهو

(أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد).

وقد عد محمد الغزالي هذه الرواية من غرائب المرويات، حيث حكى طُرفاً عن (واعظ يحب الحكايات ويستنصت الناس بما تحوي من عجائب.

قال: إن الدجال موجود الآن في إحدى الجزر ببحر الشام أو بحر اليمن، مشدود الوثاق، وقد رآه تميم الداري بعد ما غرقت السفينة التي كان يركبها هو وصحبه، وتحادثوا معه، وهو موشك على الخروج.

وقد حدثت بذلك فاطمة بنت قيس في سياق طويل.

قال لي طالب يسمع الدرس: هل يمكن أن نذهب في رحلة الى هذه الجزيرة لنرى الدجال؟ قلت له: وماذا تفعل برؤيته؟ الدجالون كثيرون، وإذا تحصنت بالحق نجوت منهم ومن كبيرهم عندما يخرج.

قال: ألم يزر أحد هذه الجزيرة بعد تميم الداري؟ فآثرت السكوت، وصرفت الطالب عن الموضوع بلباقة، إن أساطيل الرومان والعرب والترك والصليبيين تجوب البحرين الأبيض والأحمر من بضعة عشر قرناً ولم تر هذه الجزيرة.

وفي عصرنا هذا طرق كل شبر في البر والبحر، والتقطت صوراً لأعماق المحيطات عن طريق الأقمار الصناعية، فأين تقع هذه الجزيرة؟. وأخيراً تذكرت كلمة عمر بن الخطاب وهو يرد حديث فاطمة بنت قيس في نفقة المطلقة ثلاثاً، قال: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة لا ندري حفظت أم نسيت؟.

قلت: ونحن لا نعرض كتاب ربنا وسنة نبينا للتكذيب من أجل حديث السيدة نفسها، في قضية أخرى)[٥٢٨].

ويرى الشيخ الخليلي في هذا الحديث (الكثير من الإشكال، فأين هي هذه الجزيرة؟، نعم رواه مسلم، لكن الواقع لا يدل على صحة الحديث، وقد ذكر العلامة محمد رشيد رضا في تفسير المنار تسع ملاحظات على هذا الحديث، فنحن لا نستطيع أن نأخذ بهذه الرواية، فأين هذه الجزيرة والناس الآن كشفوا البحر الأحمر وكشفوا البحر المتوسط ولم يجدوا هذه الجزيرة ولم يجدوا جساسة ولم يجدوا دجالاً؟، فلو كان الأمر كما قيل لكان بالإمكان بالوسائل الحديثة أن يكتشف هذا الأمر، هناك ما يدعو إلى الريبة في صحة هذا الحديث)[٥٢٩].

وقد انتقد محمد رشيد رضا هذه الرواية من تسعة أوجه، ثم أعقب ذلك قوله (وجملة القول في حديث الجساسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والإشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع، وأنه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع)[٥٣٠]، والمدقق في أصول هذه الرواية يجدها كالعادة من نبوءات سفر الرؤيا، الإصحاح العشرين: (ثم **متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه، ويخرج ليضل الأمم** في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر، فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين والمدينة المحبوبة، فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم).

---

٥٢٨ السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ٢٠٣–٢٠٤، محمد الغزالي.

٥٢٩ من أشراط الساعة، أحمد بن حمد الخليلي (محاضرة).

٥٣٠ تفسير المنار ج٩ ص ٤٩٧، محمد رشيد رضا.

وخلاصة القول في هذه الرواية :

١ . الرواية تذكر أن الدجال موثق بالأغلال في جزيرة نائية، وسيخرج في آخر الزمان ليضل الأمم كما تقول رواية سفر الرؤيا .

٢ . الرواية تهيمن عليها اللغة الأسطورية التي تتحدث عن غرائب وعجائب، كالدابة الغريبة المسماة بالجساسة، والدجال الموثق بالأغلال الذي يوشك أن ينطلق .

٣ . والسؤال الذي يطرح نفسه : أين تقع هذه الجزيرة؟ ولماذا لم يعثر عليها أحد باستثناء تميم الداري؟، والأساطيل تجوب بحري اليمن والشام (=الأحمر والمتوسط) منذ قديم الزمان وإلى يومنا هذا ولم تعثر على هذه الجزيرة التي يعيش فيها الدجال والجساسة، والأقمار الصناعية أصبحت تمسح الأرض شبراً شبراً ، ولم نسمع حتى الآن عن هذه الجزيرة .

الأمر لا يمكن هضمه بهذه البساطة إلا بسحق العقل ووضعه تحت الحذاء ، ولم يكلفنا الله تعالى في ديننا باعتقاد وتصديق مثل هذه الأشياء ، ولم يأتنا عن النبي صلى الله عليه وسلم خبر نثق في صدقه من جهة نقله ودلالته في ذلك، فيحق لنا أن نقول كما قال عمر بن الخطاب في خبر فاطمة بنت قيس في النفقة والسكنى **(لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت)**[٥٣١] .

(ولشدة التباس الأمر في ذلك سلك البخاري مسلك الترجيح فاقتصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد ، ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم)[٥٣٢] .

---

٥٣١ مسلم (١٤٨٠) .

٥٣٢ فتح الباري ج١٣ ص ٣٢٨ ، أحمد بن علي بن حجر .

ابن صياد (الظهور الثاني للدجال)

وهو شخصية أسطورية أخرى يعتقد أنها الدجال المنتظر، وصورت الروايات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة وهم يقومون بأدوار التحري للكشف عن الشخصية الغامضة للدجال التي يظن أنها متخفية تحت غطاء ابن صياد!.

روى البخاري (١٢٨٩) ومسلم (٢٩٣٠) عن عبد الله أن ابن عمر (أن عمر انطلق مع النبي صلى الله عليه وسلم في رهط قبل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة وقد قارب ابن صياد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيده، ثم قال لابن صياد: تشهد أني رسول الله.

فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين.

فقال ابن صياد للنبي صلى الله عليه وسلم: أتشهد أني رسول الله؟.

فرفضه وقال: آمنت بالله وبرسله.

فقال له: ماذا ترى؟.

قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: خلط عليك الأمر.

ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إني قد خبأت لك خبيئاً.

فقال ابن صياد: هو الدُخ.

فقال: اخسأ فلن تعدو قدرك.

فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله.

وقال سالم : سمعت ابن عمر يقول : انطلق بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع يعني في قطيفة له فيها رمزة أو زمرة، فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد : يا صاف وهو اسم ابن صياد هذا محمد صلى الله عليه وسلم، فثار ابن صياد .

فقال النبي صى الله عليه وسلم : لو تَركَته بيّن) .

من الملاحظات على هذه الرواية :

١ . تعارض هذه الرواية بشكل صريح مع رواية الدجال الموثق بالأغلال في الجزيرة النائية، فإذا كان الدجال موثقاً بالأغلال في جزيرة نائية ولا يخرج إلا عند الموعد ، وهو (أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد) كما في الرواية، فما الذي أخرجه من الجزيرة النائية وصار يشك في أنه ابن صياد؟ وكيف تحول من أعظم الناس خلقاً إلى ابن صياد الذي (يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة وقد قارب الحلم) وله أب وأم؟ وهل تحول من كائن أسطوري في جزيرة نائية إلى فتى قارب الحلم وصار يلعب مع الصبيان؟ .

لغة الرواية من أولها إلى آخرها لغة أسطورية أقرب إلى مثيولوجيات سفر الرؤيا .

٢ . ثم إذا قلنا إن ذلك قبل أن يعرف النبي صلى الله عليه وسلم بخبر تميم الداري كما يقول البعض، فما الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى الشك في ابن صياد وهو صبي مراهق دون أسباب مقنعة؟، الروايات لا تقدم لنا شيئاً في ذلك، وتكتفي بتقديم سياقات مبهمة وغامضة .

٣ . التصوير الذي تصوره لنا الرواية للنبي صلى الله عليه وسلم في نظري ونظر كل منصف هو تصوير مزرٍ ولا يليق بمقام النبي صلى الله عليه وسلم، فهي تصوره شخصاً يدخل في نقاش عقيم وتافه مع صبي قارب الحلم، بل تذهب الرواية إلى أبعد من ذلك؛ فتصور النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقوم بدور العميل السري في التجسس ومراقبة ابن صياد ، فتقول الرواية (انطلق بعد ذلك رسول الله صى الله عليه وسلم وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد) ويختل أي (يطلب أن يسمع كلامه وهو لا يشعر)[٥٢٣] ، (فرأت أم ابن صياد رسول الله صى الله عليه وسلم وهو يتقي بجذوع النخل).

فهل يليق أن ننسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم التجسس على الناس بهذه الطريقة، والله تعالى يقول ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الحجرات:١٢، وهو صلى الله عليه وسلم أكرم الناس خلقاً وأعلاهم مرتبة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم:٤؟ ونحن لا نشك ولو للحظة أن هذا الكلام كذب وافتراء على سيد الخلق وأكرمهم صلى الله عليه وسلم.

وتستمر الشكوك وتحوم حول ابن صياد من بعد ، فقد روى مسلم (٢٩٢٧) عن أبي سعيد الخدري قال: (خرجنا حجاجاً أو عماراً ومعنا ابن صائد ، قال: فنزلنا منزلاً فتفرق الناس وبقيت أنا وهو فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه، قال: وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي، فقلت: إن الحر شديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة. قال: ففعل. قال: فرفعت لنا غنم فانطلق فجاء بعس، فقال: اشرب أبا سعيد . فقلت: إن الحر شديد واللبن حار، ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده أو قال آخذ عن يده.

---

٥٢٣ فتح الباري ج٥ ص٢٥٠ ، أحمد بن علي بن حجر.

فقال: أبا سعيد لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول لي الناس، يا أبا سعيد من خفي عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كافر وأنا مسلم، أو ليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عقيم لا يولد له وقد تركت ولدي بالمدينة، أو ليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل المدينة ولا مكة وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة.

قال أبو سعيد الخدري: حتى كدت أن أعذره.

ثم قال: أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن. قال: قلت له: تبا لك سائر اليوم).

وعن محمد بن المنكدر قال: (رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صائد الدجال. فقلت: تحلف بالله. فقال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم ينكره رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٥٣٤]، ولم تتوقف الكثير من الشكوك حول ابن صياد حتى فقد يوم الحرة[٥٣٥]. لكن لم تتوقف هذه الشكوك تماماً بسبب الروايات الباقية في حقه، فكثير من العلماء يرون أن (قصته مشكلة وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره؟، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة)[٥٣٦].

---

٥٣٤ أبو داود (٤٣٣١).

٥٣٥ أبو داود (٤٣٣٢).

٥٣٦ تحفة الأحوذي ج٦ ص٤٢٦ ، محمد بن عبدالرحمن المباركفوري.

٤ . ثم إذا كان الرواة يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الدجال يخرج في آخر الزمان عند قيام الساعة ليضل الناس، فما الداعي إلى الشك في ابن صياد أو غيره؟.
فهذا من التعارض البين الذي لا يمكن دفعه ببساطة عن هذه الروايات، ويرى محمد رشيد رضا أن من أوجه تعارضها (أن بعضها يصرح بأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى أنه من المحتمل ظهور الدجال في زمنه، وأنه يكفي المسلمين حينئذ شره، وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية)[٥٣٧].

الدجال في آخر الزمان (الظهور الثالث للدجال)

بعد الظهور الأول والثاني للدجال في شخصيتي المخلوق الموثق بالأغلال في الجزيرة النائية وابن صياد، تُرّحل الروايات أمر ظهور الدجال إلى آخر الزمان.
١ . روى مسلم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان قال: (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل.
فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية، كأني أشبهه بعبد العزي بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فأثبتوا.

---

٥٣٧ تفسير المنار ج٩ ص ٤٩٠، محمد رشيد رضا.

قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض؟

قال أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم .

قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟

قال : لا ، اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ .

قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ...الخ) .

هذه الرواية رواها آخرون ، وتعتبر من أطول وأشمل الروايات في خوارق الدجال في آخر الزمان ، وملخصها أن الدجال عندما يظهر يؤيد بخوارق أو معجزات (=لا أدري ما

هو التعبير الدقيق في ذلك؟!) مثل أن (يأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك).

٢ . روى مسلم (٢٨٩٧) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم.

فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا.

فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون؛ إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته).

٣ . وروى أحمد (٢٧٦٢٠) وعبدالرزاق (٢٠٨٢١) عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال.

فقال: إن بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها، والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله، فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلكت، وإن من أشد الناس فتنة أنه يأتي الأعرابي فيقول أرأيت إن أحييت لك إبلاً ألست تعلم أنني ربك؟ قال: فيقول: بلى.

فيتمثل له الشيطان نحو إبله كأحسن ما تكون ضروعاً وأعظمه أسنمة.

قال: ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول: أرأيت إن أحييت لك أباك وأحييت لك أخاك أليس تعلم أني ربك؟

فيقول: بلى.

فيتمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه.

قالت: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له ثم رجع.

قالت: والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم به.

قالت: فأخذ بلحمتي الباب وقال: مهيم أسماء؟.

قالت: قلت: يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال.

قال: إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه، وإلا فإن ربي خليفتي من بعدي على كل مؤمن.

قالت أسماء: فقلت يا رسول الله، والله إنا لنعجن عجينتنا فما نخبزها حتى نجوع؛ فكيف بالمؤمنين يومئذ؟.

قال: يجزئهم ما يجزئ أهل السماء من التسبيح والتقديس).

هذه الروايات من أهم الروايات في وصف حركة الدجال في الأرض، وهناك بالطبع روايات أخرى في مجموعات الكتب الحديثية، لكنها لا تخرج كثيراً عن نطاق الفكرة العامة التي تقدمها الروايات التي أوردناها[٥٣٨].

من كل هذا الزخم من الروايات نخرج بتصور عن الدجال:

١. أنه شخص تنبأ بظهوره النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يتوقع ظهوره في آخر الزمان خاصة، وظهوره من أشراط الساعة الكبرى.

٢. أن ظهوره يكون بعد فتح القسطنطينية.

٣. هو شخص أوتي من الخوارق و"المعجزات" والتصرف بمقاليد الكون كإحياء الموتى وإنزال المطر وإمساكه.

٤. نهايته كما تقرر الروايات عند عموم المحدثين السنيين تكون على يد عيسى بن مريم عليه السلام عند مجيئه الثاني.

لكن كل هذه التفاصيل غير مسلم بها:

أولاً: كما قررنا سابقاً من خلال رجع أصول المسألة إلى الكتاب العزيز أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب من أمر الساعة، فكل هذه التفصيلات تخالف تماماً دلالات القرآن الكريم.

ثانياً: أن تأييد الدجال بكل تلك الخوارق و"المعجزات" (أمر يعني أن الدجال أوتي من الآيات أعظم مما أوتيه المرسلون، وهذا أمر يتنافى مع حكمة الله سبحانه تعالى في تأييد المرسلين بما لا يتأيد به غيرهم من الآيات العظيمة)[٥٣٩]، ومن المعلوم أن الله

---

٥٣٨ راجع ج١ وج٢ من مجموعة "معجم أحاديث الإمام المهدي".

٥٣٩ من أشراط الساعة، أحمد بن حمد الخليلي (محاضرة).

تعالى ما آتى الأنبياء والرسل الآيات (إلا لهداية خلقه، التي هي مقتضى سبق رحمته غضبه، فكيف يؤتي الدجال أكبر الخوارق لفتنة السواد الأعظم من عباده؟)[٥٤٠].

ثالثاً: يرتبط ظهور الدجال بفتح القسطنطينية، ومن المعلوم لدى العالم أجمع أن مدينة القسطنطينية قد فتحت على يد العثمانيين المسلمين عام ١٤٥٣م، ولم يظهر الدجال المنتظر ولم يعلقوا "سيوفهم" على الزيتون" ولم "يصرخ فيهم الشيطان".

رابعاً: أما نهاية الدجال فهو سيناريو توزع على منظومتين روائيتين:

– روايات المحدثين السنيين التي تنص على أن الدجال يقتل على يد المسيح عليه السلام، ونبؤات بولس في رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي، الإصحاح الثاني تؤيد هذا السيناريو: (أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا، والآن تعلمون ما يحجز حتى يستعلن في وقته، لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يرفع من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ **سيستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه**).

– روايات الشيعة التي تنص على أن الدجال يُقتَل على يد المهدي المنتظر.

فعن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: (إن الله تعالى أعطانا الحلم والعلم والشجاعة والسخاوة والمحبة في قلوب المؤمنين، ومنا رسول الله، ووصيه، وسيد الشهداء، وجعفر الطيار في الجنة، وسبطا هذه الأمة، والمهدي الذي يقتل الدجال)[٥٤١]، ويرى المعلقون على معجم أحاديث الإمام المهدي أن (التصوير الذي تقدمه الأحاديث

---

٥٤٠ تفسير المنار ج٩ ص ٤٩٠، محمد رشيد رضا.

٥٤١ معجم أحاديث الإمام المهدي ج٣ ص ٢٠٠، حديث (٧٢٢).

الواردة في مصادرنا الشيعية عن الدجال وحركته؛ يختلف عن التصوير الذي تقدمه الأحاديث الواردة في المصادر السنية ببعض الأمور، منها:

– خلو أحاديثنا من أكثر العناصر التصويرية المتقدمة.

– أن حركة الدجال فيها ليست حادثاً ابتدائياً، بل هي حركة مضادة لثورة الإمام المهدي الشاملة، وقوام هذه الحركة المضادة اليهود والمنافقون من الداخل الذين يتصفون بدرجة خاصة من العداء للإمام المهدي وأهل البيت عليهم السلام.

– أن الذي يقتل الدجال هو الإمام المهدي وليس عيسى عليهما السلام)[٥٤٢].

بل إن المعلقين على معجم أحاديث الإمام المهدي يرون أنه (مهما يكن فينبغي التثبت في الحكم على الأحاديث التي تنسب قتل الدجال إلى عيسى وتغفل ذكر المهدي عليهما السلام، لأنها قد تكون متأثرة بالإسرائيليات أو النصرانيات، وقد رأيت أن بعضها يروي هذا الأمر صراحة عن أهل الكتاب ولم يسنده إلى النبي صلى "ص")[٥٤٣].

ومرد صراحتهم في نسبة هذه الروايات إلى الإسرائيليات يرجع إلى ثقتهم في رواياتهم التي تنص على أن المهدي المنتظر هو الذي سيكون قاتل الدجال وليس المسيح عليه السلام، ويرون في هذه الروايات سحباً للبساط من تحت أقدام المخلص المنتظر وحلقة في سلسلة التعتيم على مناقب وفضائل البيت العلوي.

وهذا يعكس بوضوح عمق وتجذر الصراع التاريخي في البنية التحتية لهذه القضايا، ويدل على أنها تولدت في أتون صراع سياسي استثمر الموروث المثيولوجي للملل والنحل الأخرى في تأييد اطروحاته السياسية، وهو ما يدعونا إلى رفض دعاوى

---

٥٤٢ معجم أحاديث الإمام المهدي ج٢ ص ١٢٥ (بتصرف).

٥٤٣ المرجع السابق ج١ ص ٥٥٩.

التواتر والإجماع لمثل هذه الروايات، وضرورة مراجعتها على ضوء الثابت المستقر من تعاليم الإسلام، والتي تشمل نصوص الكتاب والسنة وسنن الحياة ونواميسها .

خاتمة

بعد هذا التطواف في ملاحم وأخبار آخر الزمان نلخص بعض النتائج التي خرجنا بها:

١ . أن منهج الرواية عند عموم فقهاء المدرسة الجابرية يعتمد في معظمه على النقد الداخلي (=نقد المتن) ورجع المرويات وعرضها على الأصول التشريعية الثاوية في نصوص الكتاب والسنة.

٢ . أن أشراط الساعة ولت وذهبت ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ محمد ١٨: ومنها بعثة المسيح عليه السلام وبعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

٣. هناك من الروايات ما فيه ربط للإنسان بالساعة من خلال ذكر بعض التغيرات الاجتماعية التي يمكن أن تحصل في أي زمان ومكان، وليس فيه إخبار عن أشراط للساعة.

٤ . بحسب الدراسة والبحث وجدت أن روايات: المجئ الثاني للمسيح عليه السلام، وظهور الدجال، والمهدي، وفتح القسطنطينية، والسفياني المنتظر، والقحطاني المنتظر، والدابة التي تطارد الناس كما في التصوير الروائي، ويأجوج ومأجوج كما في التصوير الروائي، وغيرها من الروايات في هذا الشأن؛ كلها لا تصح نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

٥ . تبين من خلال البحث أن القطاع الأكبر والأعظم وهو المعبر عن التوجه العام للمذهب الإباضي حول هذه القضايا كان دائراً بين: الرفض التام أو التشكيك الذي عبر عنه بالتوقف والسكوت مع اشتهار هذه الروايات وذيوعها، بل وادعاء تواترها.

وهناك رأي في المذهب في إثبات بعض هذه القضايا دون إدخالها في مسائل الاعتقاد ، وبحسب البحث تبين أن هناك ظروفاً ساهمت في ولوج هذه الآراء في المذهب خاصة عند بعض المتأخرين .

وفي رأيي الشخصي أن هذه القضايا لم تبحث بالشكل الجيد ، ولعل السكوت أو الإعراض ظن منه البعض الاعتراف بها ، وهذا الأمر حصل في قضايا أخرى كقضية خلق القرآن عند مشارقة الإباضية[٥٤٤] .

وقبل استراحة القلم أضع بين يدي القارئ عدة أمور غاية في الأهمية :

أولاً : لا تجد في كتاب الله تعالى إلا أن الساعة تأتي بغتة وأن علمها مما استأثر الله تعالى به، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب من أمر الساعة، في حين أن كل هذا الصنف من الروايات يصر على أن غيب الساعة أمر مكشوف تماماً للعيان .

أقول للقارئ الكريم : قارن بين هاتين الدلالتين، وانظر فيهما بتمعن .

ثانياً : لا تجد في كتاب الله تعالى أي ذكر لكل تلك الأشراط المستقبلية كالدجال وعودة المسيح عليه السلام والمهدي، أو ارتباط بعضها بالساعة وما يكون بين يديها كيأجوج ومأجوج وخروج دابة من الأرض، بينما جمع مؤلفو معجم أحاديث الإمام المهدي خمسة مجلدات في هذا الشأن من الروايات السنية والشيعية .

لماذا لم تذكر في كتاب الله تعالى ، ووردت بكل هذه الكثافة الهائلة في الروايات؟

---

٥٤٤ انظر هذه القضية في "مشارق أنوار العقول" ، عبدالله بن حميد السالمي و "الحق الدامغ" ، أحمد بن حمد الخليلي .

ثالثاً: قلما تجد اتفاقاً على أية جزئية في تفاصيل الأشراط المستقبلية للساعة، فما إن تنتقل من رواية إلا وتجد الثانية تعارضها وهكذا، وصدق الله العظيم حين قال واصفاً كتابه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ النساء: ٨٢.

رابعاً: الأمر المثير للدهشة أن كثيراً من الآيات المتشابهات تم الضغط عليها ومحاولة استنطاقها بواسطة الروايات لتتحول إلى منافس عتيد للآيات المحكمات التي هي أم الكتاب:

– وهذا ما حصل للآيات التي فيها ذكر بعض الإضافات إلى الله تعالى كاليد والجنب والعين مما يُحمَل عادة في لغات البشر جميعاً على معان مجازية، وهي من المتشابه الذي يجب أن يرد إلى أمهات الآيات (=المحكم) في تنزيه الله تعالى، فنجد في هذا الباب أحاديث كثيرة منها حديث: (لا يزال يلقى فيها ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ ق: ٣٠ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض)[٥٤٥].

– وما حصل أيضاً لقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة: ٢٢-٢٣ التي تم الضغط عليها بروايات متعارضة في إثبات رؤية لله تبارك وتعالى في الموقف تارة وفي الجنة تارة أخرى، مع أن محكمات الكتاب العزيز تدل في صراحة أنه تعالى ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الأنعام: ١٠٣، وتلك الآية لا تدل سوى أنها (=الوجوه) إلى ربها ناظرة أي منتظرة لثواب ربها كما تدل

---

٥٤٥ رواه البخاري (٦٩٤٩) عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

على ذلك دلائل اللغة ومحكمات آيات التنزيه، وهذا ما فسر به الآيةَ فقهاءُ التابعين مثل مجاهد والحسن وسعيد بن جبير، وغيرهم[٥٤٦].

– وكذلك الحال بالنسبة إلى آيات الوعد والوعيد، تم الافتئات على وعيد الله تعالى بأماني الغفران من خلال عشرات الروايات التي تؤمل المغفرة والشفاعة دون التوبة أو الخروج من النار إن دُخلَت، (ألجأهم ثقل كتاب الله واستوحشوا منه، ونفروا عن الحق واستأنسوا بالروايات الكاذبة، وقالوا إن قوماً يخرجون من النار، بعد توكيد الله في غير موضع: أن من دخلها خالداً، وما هم منها بخارجين، وإنهم ماكثون، ولهم عذاب مقيم)[٥٤٧].

– وامتد الأمر إلى الأنبياء، فقد روى البخاري (٣٢٢٣) ومسلم (٣٣٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، **وإن الحجر عدا بثوبه**، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل **فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله** وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، **فوالله إن بالحجر لندباً** من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله

٥٤٦ كتاب الترتيب، آثار الربيع في الحجة على مخالفيه (١١٣).

٥٤٧ أصول الديـنونة الصافية ص٦٧، عمروس بن فتح.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ الأحزاب:٦٩) .

هذه الرواية تصور موسى عليه السلام أنه كان يستحي ويغتسل وحده و (كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض) كما في رواية مسلم، فاتهمه قومه بأنه أبرص.

وعندما كان يغتسل وحده ركض الحجر!! بثيابه (=مشهد يذكرنا بالرسوم المتحركة)، فانطلق موسى خلفه (=لاحظوا جيداً أنه بلا ثياب كما تقول الرواية)، فرآه ملأ من قومه على هذا الحال!! **(فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله)** كما تقول الرواية.

فطفق موسى يضرب الحجر بعصاه، ولا ينسى الراوي أن يَذكرَ لنا أن **(بالحجر لندباً** من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً)، وهذا بالطبع هو التفسير العلمي لوجود الندبات على الأحجار كما تقول الرواية!!.

الرواية من أولها إلى آخرها غير مقبولة، فهي تصور لنا نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بصورة فظيعة ومخزية لا يقبلها أخس الناس قدراً، وهي لا تختلف عما يرويه أهل الكتاب من أمور مشينة في حق الأنبياء، في حين أن القرآن الكريم وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول لنا ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ ص:٤٦-٤٧ .

الجانب المثيولوجي في الرواية يذكرنا بالرسوم المتحركة: حجر مزود بـ (four wheel) ينطلق بسرعة كبيرة!!، والندبات على أحجار الدنيا هي من آثار ضرب

موسىعليه السلام للحجر! وكأن الأحجار وجدت فقط من أيام بني إسرائيل أو أنها تولدت من الحجر الأم الذي ضربه موسى عليه السلام!.

والطامة الكبرى أن تلز هذه الأكاذيب بقوله تعالى: ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالّذِينَ آذَوْاْ مُوسَىَ فَبرّأَهُ اللّهُ مِمّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللّهِ وَجِيهاً﴾ الأحزاب:٦٩، مع أن هذه الرواية هي عينها أذية لموسى عليه السلام بوصفه بصفات لا يتصف بها سوى سفهاء الناس، (ولست أدري لِمَ الإصرار على قضية التعري هذه؟! وكأنه ليس للأنبياء معجزة إلا كشفهم عن سوآتهم أمام الملأ، وتحللهم من الأخلاق والقيم)[٥٤٨] .

ولو جئنا نقرأ كتاب الله تعالى لوجدنا أن أذية موسى عليه السلام التي تعرض لها من قبل قومه تمثلت في مواقف كثيرة ظهر فيها عتوهم وكفرهم وعدم احترامهم لنبيهم موسى عليه السلام، قال تعالى ﴿قَالُواْ يَامُوسَىَ إِنّا لَنْ نّدْخُلَهَآ أَبَداً مّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلآ إِنّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة:٢٤ وقال تعالى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مّنَ السّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىَ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوَاْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمّ اتّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىَ سُلْطَاناً مّبِيناً﴾ النساء:١٥٣، وليست في نسبة الحمق والسفاهة إليه.

– أما بالنسبة إلى الأشراط المستقبلية فحدث ولا حرج، فالمجئ الثاني للمسيح في قول الله تعالى ﴿وَإِنّهُ لَعِلْمٌ لّلسّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنّ بِهَا وَاتّبِعُونِ هَـَذَا صِرَاطٌ مّسْتَقِيمٌ﴾

---

٥٤٨ الرد على الفقيهي (الفصل الرابع ص ٩)، عبدالله بن عامر العيسري.

الزخرف:٦١ ، روى ابن حبان (٦٨١٧) والحاكم في المستدرك (٣٠٠٣) عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: (نزول عيسى بن مريم من قبل يوم القيامة)، مع أن سياق الآيات كما بينا في مباحث الكتاب كان عن بعثة المسيح عليه السلام وليس فيه من قريب ولا بعيد ما يتعلق بالمجئ الثاني، وكذلك الحال بالنسبة إلى الآيات في يأجوج ومأجوج ودابة من الأرض؛ ليس فيها ما يتعلق بأحداث وملاحم آخر الزمان كما تفترضها تلك الروايات.

كل هذه التساؤلات والملاحظات أضعها للتأمل فقط، فمن لم تنفعه قليل الحكمة ضره كثيرها.

قائمة بالمراجع

١ . الكتب المطبوعة :

- الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الأولى)، علي يحيى معمر، ط مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ابتلاءات الأمم، سعيد أيوب، ط دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد محمد كنعان، ط رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، سلسلة كتاب الأمة العدد (٢٦)، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- أصول الدينونة الصافية، عمروس بن فتح، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، تحقيق: حاج أحمد حمو كروم.
- إعادة صياغة الأمة، أحمد بن حمد الخليلي، ط الجيل الواعد، سلطنة عمان ١٤٢٤هـ
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٨٦م.
- إعمال العقل، لؤي صافي، ط دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ط دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت
- بيان الشرع، محمد بن إبراهيم الكندي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- التاج المنظوم، عبدالعزيز الثميني، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- تاريخ ابن خلدون، ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت.
- التاريخ الإسلامي، عبدالعزيز الحميدي، ط دار الدعوة ودار الأندلس، المملكة العربية السعودية.
- تاريخ الدولة البيزنطية، محمود محمد السيد، ط مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر.
- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، ط دار الفكر، بيروت، تحقيق هاشم الندوي.
- تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن عساكر، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق محي الدين عمر بن غرامة العمري.
- تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، عبدالمجيد النجار، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبع الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- تحفة الأحوذي، محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
- تدريب الراوي، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف.
- تدوين السنة، إبراهيم فوزي، ط رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور الكشميري، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الخامسة ببيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. تحقيق عبدالفتاح أبو غدة.
- تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب، ط دار الجديد، بيروت ١٩٩٨م.
- تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، ط دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.
- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- تمهيد قواعد الإيمان، سعيد بن خلفان الخليلي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- التمهيد، يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، ط وزارة عموم الأوقاف المغرب، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبدالكبير البكري.
- تهذيب الآثار، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ط مطبعة المدني القاهرة، تحقيق محمود محمد شاكر.
- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، ط دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ط مكتبة المعارف ١٤٠٣هـ، تحقيق محمود الطحان.
- الجامع، محمد بن جعفر الإزكوي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.
- جوابات الإمام السالمي، عبدالله بن حميد السالمي، الناشر: مكتبة الإمام السالمي، سلطنة عمان، بدية، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- حاشية ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ.
- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبة الثالثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م، تحقيق: عبدالسلام هارون.
- الخوارج والحقيقة الغائبة، ناصر بن سليمان السابعي، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- دراسات عن الإباضية، عمرو خليفة النامي، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
- دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي، ط دار الإمام النووي، عمّان الأردن، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، تحقيق وتقديم حسن بن علي السقاف.
- دليل أعلام عمان، مجموعة مؤلفين، ط جامعة السلطان قابوس ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- الدليل والبرهان، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- الدين في القرار الأمريكي، محمد السماك، ط دار النفائس ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
- الرد على سير الأوزاعي، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، ط دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق أبو الوفا الأفغاني.
- رسالة في الرفع والضم في الصلاة، أحمد بن سعود السيابي، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سلطنة عمان.
- رواية الحديث عند الإباضية، صالح بن أحمد البوسعيدي، ط مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- السلطة في الإسلام، عبد الجواد ياسين، ط المركز الثقافي العربي ٢٠٠٠م.
- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، ط دار الشروق، الطبعة الحادية عشر، مارس ١٩٩٦م.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ط دار الفكر بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، ط دار الفكر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد.
- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ط مكتبة دار الباز مكة المكرمة،

١٤١٤هـ/١٩٩٤م، تحقيق محمد عبدالقادر عطا.

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ط دار إحياء التراث، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- سنن الدارقطني، علي بن عمر البغدادي الدارقطني، ط دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٦٦م، تحقيق: عبدالله هاشم يماني المدني.
- السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، ط دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، تحقيق عبدالغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن.
- السنن الواردة في الفتن، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ط دار العاصمة، الرياض ١٤١٧هـ.
- سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور، ط دار الصيمعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، تحقيق: سعد عبدالله الحميد.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط.
- السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- شرح الجامع الصحيح، عبدالله بن حميد السالمي، الناشر سعود بن حمد السالمي.
- شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، ط دار إحياء التراث بيروت، ١٣٩٢هـ.
- شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، ط مكتبةالمنار، الأردن ١٤٠٧هـ. تحقيق همام سعيد
- شرح كتاب النيل وشفاء العليل، محمد بن يوسف اطفيش، ط مكتبة الإرشاد جدة المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٩٥م.
- شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، تحقيق محمد زهري النجار.
- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، تحقيق شعيب الأرناؤوط.
- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، ط المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ط دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، تحقيق مصطفى ديب البغا.
- صحيح شرح العقيدة الطحاوية، حسن بن علي السقاف، ط دار الإمام النووي، الأردن– عمّان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ط دار إحياء التراث بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
- الصراع بين الإيمان والمادية، أبو الحسن الندوي، ط دار القلم والدار الشامية، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ضعفاء العقيلي، محمد بن عمر بن موسى العقيلي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، عبدالمعطي أمين قلعجي.
- الضعفاء والمتروكين، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، ط دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، تحقيق عبدالله القاضي.
- الطب الوقائي النبوي، محمود الحاج قاسم محمد، ط دار النفائس، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الطوفان الجارف لكتائب البغي والعدوان، سعيد بن مبروك القنوبي، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- العدل والإنصاف، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث، إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني، ط دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- عقيدة المسيح الدجال في الأديان، سعيد أيوب، ط دار الهادي، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- العقيدة والسياسة، لؤي صافي، ط دار الفكر دمشق و دار الفكر المعاصر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- العلو للعلي الغفار، محمد بن أحمد الذهبي، ط دار الإمام النووي، عمّان الأردن، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق وتقديم حسن بن علي السقاف.

- عمدة القاري، محمود بن أحمد العيني، ط دار إحياء التراث، بيروت.
- عمر أمة الإسلام، أمين محمد جمال الدين، ط مكتبة المجلد العربي القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- الفتاوى (الكتاب الأول)، أحمد بن حمد الخليلي، ط الأجيال سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- فتاوى الإمام الشيخ بيوض، ط مكتبة أبي الشعثاء، السيب، سلطنة عمان، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب.
- الفتن، نعيم بن حماد المروزي، ط مكتبة التوحيد، القاهرة، ١٤١٢هـ.
- الفصول في الأصول، أحمد بن علي الرازي الجصاص، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. تحقيق عجيل جاسم النشمي.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط دار الشروق، بيروت، ط الخامسة والعشرون ١٤١٧هـ/١٩٩٦م
- قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة، جميل بن خميس السعدي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.
- قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث، زكريا بن خليفة المحرمي، ط مكتبة الضامري، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.
- قواعد الإسلام، إسماعيل بن موسى الجيطالي، ط مكتبة الاستقامة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الكامل في ضعفاء الرجال، عبدالله بن عدي الجرجاني، ط دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، تحقيق يحيى مختار غزاوي.
- كتاب الترتيب في الصحيح من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، جمع وترتيب أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، ط مكتبة مسقط، سلطنة عمان.
- كتاب الجامع، عبدالله بن محمد بن بركة، ط دار الفتح، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، تحقيق عيسى بن يحيى الباروني.
- كتاب السير، أحمد بن سعيد الشماخي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٤٠٧هـ/١٩٩٧، تحقيق أحمد بن سعود السيابي.

- كتاب الضياء، سلمة بن مسلم العوتبي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- كتاب النور، عثمان بن أبي عبدالله الأصم، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، أحمد بن سعيد الدرجيني، تحقيق إبراهيم طلاي.
- كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ط مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، تحقيق عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي.
- الكفاية في علم الرواية، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ط المكتبة العلمية، المدينة المنورة، تحقيق: عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني.
- لا إكراه في الدين، طه جابر العلواني، ط مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- لباب الآثار، مهنا بن خلفان البوسعيدي، ط ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ط دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- المدونة الصغرى، بشر بن غانم الخراساني، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م..
- المدونة الكبرى، بشر بن غانم الخراساني، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية، محمد سليمان الأشقر، ط دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، تحقيق محمد عبدالقادر عطا.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، ط مكتبة قرطبة، مصر.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، ط دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

- مشـــارق أنـــوار العقـــول، عبـــدالله بـــن حميـــد الســـالمي، ط دار الجيـــل، بـــيروت، الطبعـــة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، تحقيق عبدالرحمن عميره.
- مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، ط مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، تحقيق كمال يوسف الحوت.
- مصنف عبدالرزاق، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ط المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، تحقيق حبيب عبدالرحمن الأعظمي.
- معارج الآمال، عبدالله بن حميد السالمي، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٣م.
- معالم للزمن القادم، خالد بن مبارك الوهيبي، ط مشارق الأنوار، سلطنة عمان، ٢٠٠٠م.
- معجم أحاديث الإمام المهدي، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، إيران ١٤١١هـ.
- معجـــم أعـــلام الإباضـــية، مجموعـــة مـــؤلفين، ط دار الغـــرب الإســـلامي، بـــيروت، الطبعـــة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- المعجـم الكـبير، سـليمان بـن أحمـد بـن أيـوب الطبرانـي، ط مكتبـة العلـوم والحكـم، الموصـل، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي.
- المعرفـة والتـاريخ، أبـو يوسـف يعقـوب بـن سـفيان الفسـوي، ط دار الكتـب العلميـة، بـيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، تحقيق خليل المنصور.
- مقاصد الشريعة، طه جابر العلواني، ط قم، إيران ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي، صلاح الدين الأدلبي، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، عداب محمود الحمش، ط دار الفتح للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الموافقات، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، ط دار المعرفة، بيروت، تحقيق عبدالله دراز.
- الموضوعات، عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- موقـف المدرسـة العقليـة مـن السـنة النبويـة، الأمـين الصـادق الأمـين، ط مكتبـة الرشـيد، الريـاض ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- هرمجدون... آخر بيان يا أمة الإسلام، أمين محمد جمال الدين، ط المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون

تاريخ.

- وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فن الحديث، محمد بن يوسف اطفيش، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٢. الكتب والآثار المخطوطة:

- آثار الربيع، عبدالملك بن صفرة، نقل من مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٥٨٢/ب).
- جواب نظمي، سعيد بن خلف الخروصي، ٢٣ محرم ١٤٢٥هـ الموافق ١٥ مارس ٢٠٠٤م.
- الديوان المعروض على علماء الإباضية، نقل من مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٥٨٢/ب).
- الرد على الفقيهي، عبدالله بن عامر العيسري، نسخة الكترونية.
- عبدالله بن يزيد الفزاري... حياته وآثاره، سعيد بن محمد الفزاري، بحث تخرج (معهد العلوم الشرعية بسلطنة عمان).
- القواعد الأصولية والفقهية وضوابطها، رضوان السيد، (بحث مقدم إلى ندوة تطور العلوم الفقهية في عُمان خلال القرن الرابع الهجري، ذي القعدة ١٤٢٤هـ /يناير ٢٠٠٤م)، مسقط سلطنة عمان، نسخة الكترونية.
- المدونة الصغرى، بشر بن غانم الخراساني، محفوظة بمكتبة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان.
- المدونة الصغرى، بشر بن غانم الخراساني، محفوظة بمكتبة الشيخ سالم بن حمد الحارثي بولاية القابل.
- مصادر علم الأصول العمانية، مصطفى باجو، نسخة الكترونية.
- تعليقات الإباضية على الأحاديث المروية في مسند الإمام الربيع من خلال مؤلفاتهم (١٧٥–٥٧٠ هـ)، فهد بن علي السعدي، بحث تخرج (معهد العلوم الشرعية بسلطنة عمان).

٣ . الأقراص المدمجة :

- المكتبة الألفية للسنة النبوية ، مركز التراث للبرمجيات ، الإصدار ٣,٠
- مكتبة الفقه وأصوله ، مركز التراث للبرمجيات ، الإصدار ٣,٠

٤ . المحاضرات :

- الدعوة والتعليم عند الإباضية ، أحمد بن سعود السيابي ، بهلا ، سلطنة عمان ، ٢٠٠٣م .
- في ظلال السنة ، سعيد بن مبروك القنوبي ، تسجيلات مشارق الأنوار سلطنة عمان .
- من أشراط الساعة ، أحمد بن حمد الخليلي ، الرستاق ، ربيع الآخر ١٤١٩هـ/ يوليو ١٩٩٨م ، تسجيلات الهلال ، سلطنة عمان .

٥ . التعليقات :

- تعليق كُتِب في عام ٢٠٠٢م ، أفلح بن أحمد بن حمد الخليلي .
- تعليق كُتِب في عام ٢٠٠٤م ، مؤمن الحارثي .

٦ . مواقع على الانترنت :

- سبلة العرب (www.omania.net)
- مكتبة الندوة العامة (www.alnadwa.net) .

أشراط الساعة

النص والتاريخ

كانت روايات الأشراط المستقبلية للساعة ولا تزال تشكل معالم الرؤية المستقبلية للجم الغفير من المسلمين؛ برغم تكشف الأوضاع بخلافها كلما تقدم الزمن، مما يضع علامات استفهام كبيرة وشكوك حول صحة هذه الروايات، وربط هذه الروايات بالدين يضع الدين ذاته في موضع الشك، وهـذا بالفعل ما حصل لقطاعات من العلمانيين في الغرب وفي العالم الإسلامي.

